قصة الفلسفة الغربية

تأليف

محمد زكريا توفيق



1

بداية الفلسفة الغربية

قصة الفلسفة الغربية بدأت في اليونان. المدن اليونانية قديما لم تكن قاصرة على أرض دولة اليونان الحالية. بل كانت تتبعها مدن يونانية في دول أخرى. أيونيا ومالطة وإفسوس في آسيا الصغرى، والاسكندرية في مصر، وإيليا في جنوب الساحل الإيطالي.

كلمة "لوجوس" باليونانية تصف نوعا معينا من التفكير. طريقة تفكير تستخدم المنطق والتحليل، لتفسير الظواهر والأشياء التي تعتري الإنسان. هذا النوع من التفكير، غالبا يقود إلى الحكمة.

الحكمة باليونانية تعبر عنها كلمة "صوفيا". إذا أضفنا لكلمة صوفيا، كلمة "فيلو" وتعني حب، أصبحت الكلمة المركبة "فيلو صوفيا"، وتعني حب الحكمة. من هنا جاءت كلمة فلسفة. التي تعني حرفيا حب الحكمة. إذا كنت محبا للحكمة والمعرفة، فأنت فيلسوف.

ماذا كان يوجد قبل الفلسفة, وقبل طريقة "لوجوس" في التفكير؟ كانت توجد طريقة أخرى، هي "ميثوس"، أو الأساطير. لا داعي للتفكير ووجع الدماغ. نترك التفكير للكهنة والمفسرين ورجال الدين، ونأخذ نحن المعلومات على الجاهز.

الأساطير والقصص الموروثة عن الأجداد تفسر لنا كل شئ. البرق والرعد سببهما مقرعة كبير الآلهة "زيوس" على قمة جبل الأولمب. الكرة الأرضية يحملها ثور كبير على قرنيه. عندما يشعر بالتعب، تحدث الزلازل. الأمراض والأوبئة بسبب غضب الآلهة. وهكذا.

معظم الأساطير لها علاقة بالدين وحياة الآلهة. لذلك كانت لها صفة القداسة. حافظ عليها الأجداد وعضوا عليها بالنواجذ. كان يسلمها كل جيل إلى الجيل الذي يليه.

استخدمت هذه الأساطير في خلق نظام اجتماعي متكامل، يفسر كل شئ ويجيب على كل سؤال. لكن عيب هذه الأساطير المقدسة، أنها تخلق مجتمعات ساكنة راكدة، تقاوم التقدم والتغيير. العصور المظلمة، استمرت أكثر من 1000 سنة بسبب سيطرة الكنيسة الكاثوليكية.

لكن شئ مختلف ظهر في اليونان في القرن السابع قبل الميلاد. وجاء أول تفسير فلسفي، بعيدا عن الأساطير. يشرح لنا أسباب حدوث فيضان نهر النيل خلال الصيف من كل عام. بالرغم من أن معظم أنهار الدنيا تجف أثناء فصل الصيف.

فيضان نهر النيل يحدث بسبب "رياح الصحراء". ليس بسبب الصراع بين الآلهة، أو علاقات الحب والزواج بينهم. هنا نجد الظواهر الطبيعية تفسر بظواهر طبيعية أخرى. القوى الخفية الخارقة للطبيعة ليس لها دخل بموضوع فيضان نهر النيل.

لذلك يمكننا القول بأن المدن الاغريقية هي مهد الفلسفة الغربية. إن لم يكن الاغريق قد نقلوها عن المصريين عن طريق مدينة الاسكندرية التي كانت مدينة يونانية أيام حكم البطالمة، أو قبل ذلك. ثم طوروها وأبعدوها عن الفكر الديني، لكي تصبح فكرا مستقلا.

لماذا الإغريق وليس غيرهم من الشعوب؟ لسبب بسيط. لأنهم لم يكن لديهم نظام كهنوتي ديني مسيطر، يحجر على الرأي ويمنع التفكير المستقل. سبب آخر هو ولع الإغريق بالتفاصيل. فمثلا، قام الشاعر هومير في ملحمة "الإلياذة" بوصف درع البطل "أخيل" في أربع صفحات كاملة.

سبب إضافي هو إدراك الاغريق للتغيير وصراع الأضداد. الشتاء والصيف، البرد والحر، الحب والكره، الحياة والموت، إلخ.

كل ذلك دفعهم للبحث عن الحقائق والأسباب بعيدا عن التفسيرات الدينية. هنا نرى العقل البشري يعمل مستقلا، دون قيود تمنع انطلاقه إلى آفاق بعيدة.


طاليس

أول محاولة لتفسير ما يجري في هذا الكون، بعيدا عن قصص الأساطير، جاء على يدي "طاليس" المالطي (639 – 440 ق م). وهو أول الفلاسفة المعروفين. مالطة التي ينتسب إليها طاليس، تقع في أحد ثغور آسيا الصغرى من بلاد الإغريق القديمة. وهي تختلف عن جزيرة جمهورية مالطة في البحر المتوسط جنوب إيطاليا.

إذا كان هناك تغيير، فذلك لأن شيئا آخر لا يتغير، يسبب هذا التغيير. لكل سبب مسبب. تعدد الأشياء في الظاهر، وراءه وحدة واحدة وأصل واحد، أي شئ يجمعها جميعا.

قد كان الاعتقاد في زمن طاليس، أن العناصر التي يتكون منها الكون أربعة: الهواء والماء والنار والتراب. كل شئ محسوس، مكون من هذه العناصر الأربعة. لكن طاليس، كان يقول أن هذه العناصر الأربعة، لابد أن يكون لها أصل واحد. فما هو يا ترى؟

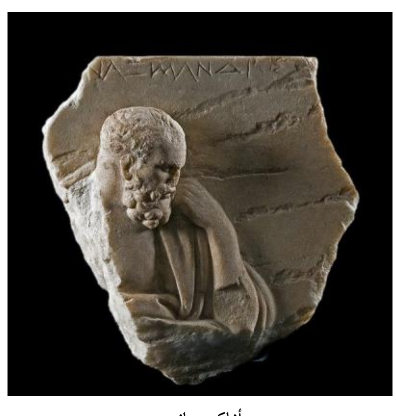
يبدو أن الماء هو أصل كل العناصر. ماء النيل يترسب ليكون الطمي، ومن الطمي تتكون أرض الدلتا. الماء يتحول إلى ثلج. الثلج يتحول ثانية إلى ماء. الماء بالحرارة يتحول إلى بخار، ثم إلى هواء ورياح. الرياح تؤجج اللهب. هذا يعني أن كل شئ أصله ماء.

طبعا هذا بالنسبة لمعلوماتنا الحالية كلام فارغ. لكن سبب أهمية أفكار طاليس ليست فيما يقوله، لكن في أسلوب تفكيره. في الطريقة التي يقول بها هذه الأفكار.

هو يقول: أن كل الأشياء مكونة من الماء. ونحن اليوم نقول كل الأشياء مكونة من الذرات. فكرة مشابهة، لكن ليست بالضبط.

كانت لطاليس انجازات أخرى غير الفلسفة. كان فلكيا بارعا. تنبأ بكسوف الشمس سنة 585 ق م. ألف سجلا للنجوم ليستخدم في الملاحة. قام بالمساعدة في تحويل مجرى أحد الأنهار. تمكن من قياس ارتفاع الهرم الأكبر، بتطبيق نظرية تشابه المثلثات على قياسين. أحدهما قياس ظل الهرم، والآخر قياس ظل عصا ثبتها عموديا.

ينسب إلى طاليس أيضا، عدد من نظريات الهندسة المستوية، منها: المثلث المتساوي الساقين، متساوي الزاويتين. الزاوية المرسومة في نصف الدائرة قائمة. يتطابق المثلثان، إذا تساوى في كل منهما زاويتان وضلع.



أناكسيماندر

لم يقبل بعض معاصري طاليس قوله أن الماء هو أصل كل الأشياء. منهم "أناكسيماندر" (610 – 546 ق م)، تلميذ طاليس، وهو أيضا مالطي.

كان يقول أناكسيماندر، أنه لو كانت المياه هي أصل كل شئ، لتحول كل شئ إلى ماء مرة ثانية بمرور الوقت. بمعنى أن كل شئ يرجع إلى أصله في نهاية الأمر عن طريق التحلل (إنتروبيا). كما أنه من غير المعقول أن يتحول الشئ إلى نقيضه. فكيف تتحول المياه إلى نار، والماء أصلا يطفئ النار.

لذلك يعتقد أناكسيماندر أن أصل الأشياء لا يمكن أن يكون الماء. ولا أي عنصر من هذه العناصر الأربعة، يصلح أن يكون أصل الأشياء. ماذا يكون ياترى؟ لابد أن يكون شيئا خفي لا نلاحظه. غير محدد الشكل وغير متناهي.

واحد سرمدي لا يتغير. يختلف كل الاختلاف عن الكثرة المتغيرة الفانية. لأنه لو كان شيئا متغيرا محدد الشكل، أصبح مكونا من العناصر الأربعة المعروفة. أناكسيماندر يتفق هنا مع فلسفة هيربرت سبنسر التي نشرها عام 1860م.

هذا الشئ الغير محدود، يجب أن يحتوي على كل المتناقضات التي تتصارع داخله. هو أصل الأشياء وسبب الحركة. منه وجدت العناصر الأربعة، الماء والهواء والنار والتراب. مآل كل شئ إلى الفناء والتحول إلى هذا الشئ الغير محدود الشكل. مرجع كل شئ إلى أصله.

كان أناكسيماندر عالم في الفلك والجغرافيا. يؤمن بالقياس والتجربة والتحليل المنطقي للظواهر. يقول بكروية الأرض. قام برسم خريطة لها. كانت له أفكارا متقدمة في نشأة الحياة وتطور الكائنات الحية. تتفق إلى حد بعيد مع نظريات "لامارك" و"دارفون" في القرن التاسع عشر في التطور.

كان أناكسيماندر يقول بأن الأرض كانت كتلة منصهرة سائلة، ثم بردت. الحرارة المتبقية كافية لكي تشكل الكائنات الحية، التي بدأت كحياة بدائية. ثم تدرجت بسبب عوامل البيئة لكي تكون كائنات راقية منها الإنسان. أفكار عجيبة ورائعة قبل الميلاد بستة قرون، لكنها تقترب إلى حد ما من أفكارنا الآن.

يأتي بعد ذلك "أناكسيمنيس" (585 - 525ق م). مالطي أيضا، تلميذ أناكسيماندر. ليقول بأن أصل الأشياء هو الهواء. من الهواء تنشأ جميع العناصر الأخرى. بالتلطيف تنتج النار, وبالتكثيف تحدث الرياح والسحب والماء والأرض والحجارة. الروح عبارة عن هواء، يمسك أجسامنا. كذلك هواء العالم هو روحه السارية.



أناكسيمنيس

هنا يقول أناكسيمنيس أنه بالتلطيف والتكثيف، أي بتغيير كمية الهواء، تتغير نوعية المادة. التغيير في الكمية، يؤدي إلى التغيير في النوعية. هذا ما نقوله نحن اليوم. التغير في عدد البروتونات داخل نواة الذرة، يحول الذرة من عنصر معين إلى عنصر آخر.

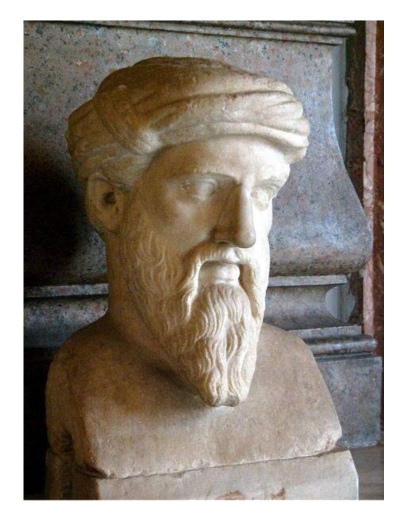
نلاحظ هنا حرية الرأي والبحث عن الحقيقة. لا مصادرة لرأي مخالف، وحقه في الاختلاف. طاليس قال بأن الأصل هو الماء. فيعارضه أناكسيماندر ويقول: لا بل أصل الأشياء هو شئ غير محدود. فيأتي اناكسيمنيس ليخالف كلا منهما ويقول بأن أصل الأشياء هو الهواء.

المهم هنا هو حق المفكر في قول رأيه دون حجر أو خوف. هكذا تتقدم البشرية. وهذا سبب أهمية هؤلاء الفلاسفة الأوائل الثلاثة، عظمة على عظمة. قيمة كبيرة للفلسفة اليونانية والبشرية.

هؤلاء الثلاثة، طاليس وأناكسماندر وأناكسيمنيس، هم أول الفلاسفة المعروفين. وأول مدرسة فلسفية في العالم الغربي تعرف بالمدرسة الأيونية أو المالطية. بالرغم من اختلاف الفكر بينهم، إلا أنهم يتفقون في شئ واحد.

هو البحث عن تفسير طبيعي بسيط، لفهم الظواهر الطبيعية، وما يحدث في هذا الكون. أي أنهم كانوا يعتمدون على الملاحظة والتفكير المنطقي. وليس النقل والأسطورة. كما أنهم كانوا يرجعون أصل كل شئ إلى شئ واحد. هذه هي أصول الفكر العلمي الغربي الحديث.

طبعا لكل شئ نهاية. جاءت نهاية المدرسة الأيونية بعد أن اجتاحت جيوش الفرس مالطا، في آسيا الصغرى، بعد اتفاقية السلام بين الإغريق والفرس. فلم تعد مالطة مدينة إغريقية، تتمتع بالحرية التي كانت تتمتع بها من قبل.


فيثاغورث

بعد المالطيين، جاء "فيثاغورث" (572 – 500 ق م). فيثاغورث هو أول اسم أجنبي غريب يمر علينا في المدرسة ونحن أطفال. فهو صاحب أشهر نظرية في الهندسة المستوية، هندسة إقليدس. النظرية تقول بأن المربع المنشأ على وتر المثلث قائم الزاوية، يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين.

فيثاغورث، لم يتبع خطا الفلاسفة المالطيين في البحث عن أصل مادي واحد لكل الأشياء. مثل الماء أو الهواء أو الشئ الغير محدود. لكنه جاء بنظرية غريبة بعض الشئ. هي أن الأرقام هي أصل كل شئ.

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا كلام فارغ. لكن فيثاغورث، لم يكن ساذجا أيضا. فقد كان يعني ما يقول. الوصف الصحيح للحقيقة، يمكن التعبير عنه بالأرقام والمعادلات الرياضية.

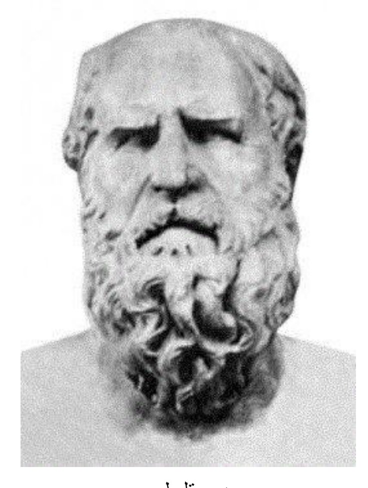
كانت لفيثاغورث إضافات كبيرة في الهندسة المستوية بعد إقليدس. أوجد العلاقة بين نسب أطوال الأوتار، ونغمات السلم الموسيقي. كان يقول بأن الكون كله في تناغم موسيقي. سيمفونية عظيمة. نظرية الأوتار الحديثة تقول ذلك أيضا.

تأثير فيثاغورث في الأجيال اللاحقة كان كبيرا. المدرسة الفيثاغورثية استمرت 400 سنة بعده. أفلاطون نفسه، تأثر بفكر فيثاغورث.

كان فيثاغورث، إلى جانب كونه عالما وفيلسوفا، زاهدا ودرويشا ورئيس جماعة دينية "كلت". أعضاؤها كانوا ملتزمين بالتقشف، ولبس الملابس البيضاء والبعد عن أكل اللحم، وتقديس الارقام، وتحريم أكل الفول.

نعم الفول، لأن حبة الفول، يوجد بداخلها جزء صغير يشبه شكل الجنين الآدمي. فكيف يأكل الإنسان أخيه الإنسان. ويبدو أن فيثاغورث كان قد تعلم الهندسة والزهد من الكهان المصريين أثناء اقامته 10 سنوات في مدينة منف بمصر.

يأتي بعد ذلك الفيلسوف الإغريقي "هيروقليطس" (535 – 475 ق م). كان يعيش في أسيا الصغرى (تركيا حاليا)، في مدينة إفسوس. قام بتعليم نفسه بنفسه. تعتبر فلسفته كئيبة متشائمة.


هيروقليطس

أفكار هيروقليطس جديدة تماما، غريبة بعض الشئ. فهو يقول بأن أصل كل شئ، ليس الماء أو الهواء أو الشئ الغير محدود، كما يقول الفلاسفة الذين سبقوه، إنما أصل الأشياء هو النار.

هناك شئ في طبيعة النار. هي دائمة التغيير والحركة. لذلك الأشياء التي تتكون من النار، لابد أن تكون دائمة التغيير والحركة أيضا.

إنك لا تستطيع أن تغمس قدمك في نفس النهر مرتين. لأن النهر في الحالة الأولى يختلف تماما عن النهر فى الحالة الثانية. النهر دائم الحركة. هناك مياه تبخرت ومياة تسربت وأسماك تحركت، وهكذا.

كان هيروقليطس يؤمن أيضا بوحدة الأضداد. خلق وتدمير، ميلاد ووفاة، حب ونضال، ليل ونهار، خير وشر. كل شئ وضده يكونان وحدة واحدة. لا يستطيع أيا منها أن يوجد بمفرده. نحن نقول اليوم أن الإلكترون له مضاد يسمى البوزوترون، والمادة لها مضادات المادة.

طفولتك البريئة ذهبت ولن تعود. الناس الذين كانوا يحبونك، ماتوا ولم يعد لهم وجود. أصدقاؤك ذهبوا وانشغلوا بهموم معاشهم. اخوتك وأخواتك تزوجوا وتفرقوا فى البلاد. لم يبق شئ على حاله كما تركته. قمة فى التشاؤم.

لكن هناك شئ إيجابي في أفكار هيروقليطس. نعم يوجد شئ إيجابي. فهو يقول أنه هناك هدف منطقي، وليست العشوائية، وراء هذا التغيير الدائم للأشياء. هنا "لوجوس"، وليس "ميثوس" أو الأسطورة، يفسر لنا ما يحدث. هذه الأفكار كان لها تأثير كبير على أفلاطون لاحقا، وهي أساس مفهوم القوانين الطبيعية حاليا.

الحرب هي أم كل الأشياء. الكون يقوم على الصراع الذي ينتهي بالوحدة والتناغم. هذا ليس غريبا علي فيلسوف عاصر حروب الفرس واليونان. قبل وفاته بثمان سنوات، قام داريوس ملك الفرس بالإغارة على بلاد الإغريق، التي انتهت بمعركة الماراثون وهزيمة الفرس عام 490 ق م.

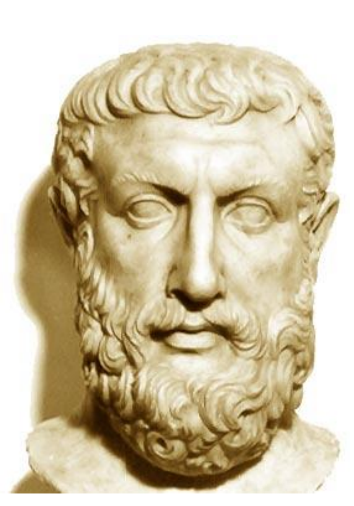
نحن نعلم أن معظم الاختراعات الهامة مثل تفتيت الذرة وعمل القنبلة الذرية، أتت بسبب الحروب والاستعداد لها. معظم الدول العظمى والامبراطوريات، ظهرت بعد حروب طاحنة.

العصر الذهبي للحضارة المصرية القديمة أيام حتشبسوت وتحتمس الثالث، جاء بعد حروب الاستقلال ضد الهكسوس، بقيادة كامس وأحمس. الحضارة العربية، جاءت بعد حروب الفتوحات الإسلامية.

يأتى بعد هيروقليطس، الفيلسوف "بارمينيدس" (515 – 440 ق م). ولد فى مدينة إيليا اليونانية على الساحل الإيطالي الجنوبى. وكان بارمينيدس شاعرا وكاهنا للإله أبوللو.

بارمينيدس تقدم بالفلسفة اليونانية خطوة إلى الأمام. كان متأثرا بشكل كبير بفيثاغورث. هيروقليطس يقول أنك لا تستطيع أن تغمس قدمك فى نفس النهر مرتين، وبارمينيدس يقول أنك لا تستطيع أن تغمس قدمك فى النهر، حتى ولو مرة واحدة. لأن هذا مجرد وهم.

يبدأ بارمينيدس بالبديهيات. أى بالحقائق التى لا تحتاج إلى برهان. ولا يمكن إنكارها إلا إذا كانت تتعارض مع نفسها. هنا يجب أن نفرق بين الحقيقة التي هي واحدة وثابتة ولا تقبل



بارمينيدس

التناقض، وبين الرأي الذي قد نكونه فى لحظة ما حول قضية معينة.

الحقيقة نأخذ بها بدون تردد. أساس البحث عن الحقيقة، هو الإقرار بوجود الكائن المطلق. وهو الشئ الموجود الذى نستطيع أن نتخيله. وكل شئ نتخيله، يمكن أن يوجد حقا. أما العدم، فلا يمكن أن نتخيله. لأننا لو تخيلناه، أصبح شيئا كائنا. بذلك لايصبح عدما.

لهذا فالعدم غير موجود. ولا يبقى لنا سوى الوجود أو الكينونة فقط. أي ذلك الشئ الذي يوجد فى أصل كل العالم، والذي تنحدر منه وتعود إليه كل الأشياء. هو القوة الميتافيزيقية التي تحكم الكون.

من هنا يصبح الوجود أو الكائن المطلق، باق أبدا لا يتغير ولا يتبدل، ويستحيل أن يكون غير موجود. ولا يمكن تجزئته أو محوه. الوجود ليس حادثا وليس قديما. هو شئ بلا ماض ولا مستقبل وفوق أي متغيرات.

من هنا تنتفي الحركة. لأن الحركة هى انتقال الموجود أو الكينونة من مكان توجد به، إلى مكان آخر لا توجد به. هذا مستحيل، لأنه لا يوجد مكان خالي من الكائن المطلق. وما كل التغيرات التي نراها إلا وهم وخيال من صنع الحواس، أو هي آراء نصف بها الأشياء.

غاية فلسفة بارمينيدس، الوصول إلى ثابت الكينونة الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يزول يزول . عندما تنظر إلى الأشياء، تدرك منها صفاتها المتغيرة الزائلة، إلا شيئا واحدا. هو الوجود أو الكينونة. هذا التجريد العالي, الخاص باعتبار كل تبديلات المادة زائلة، هو ما يقرب بارمينيدس من المثاليين اللاحقين.

من إيليا بلد بارمينيدس، يأتي فيلسوف آخر هو "زينو" (490 – 430 ق م). يستخدم المنطق لكي يثبت بعض الأحاجي والألغاز. فهو يثبت مثلا استحالة الحركة كالآتي:

إنك لا تستطيع أن تقطع مسافة ما، ولتكن المسافة بينك وبين الباب مثلا. لأنك لكي تصل إلى الباب، عليك أن تقطع نصف المسافة أولا. لكي تقطع نصف المسافة، عليك أن تقطع نصف النصف. أى ربع المسافة بينك وبين الباب. لكي تقطع ربع المسافة، عليك أن تقطع ثمن المسافة أولا. هكذا إلى أن نصل إلى مالانهاية.

أي أن هناك أجزاء من المسافة عددها لانهائي علينا أن نقطعها أولا قبل الوصول إلى الباب. حسب مفهوم زينو، عدد نهائي من المسافات يستلزم زمن لا نهائي. من ثم، يصبح الوصول إلى الباب شيئا مستحيلا. طبعا يمكننا الآن حل هذا اللغز ببساطة، باستخدام المتواليات الهندسية اللانهائية.

هناك تناقض آخر أوقعنا فيه زينو. وهو السباق الشهير بين أخيل والسلحفاء. أخيل سريع العدو، هو أحد أبطال إلياذة هومير، والسلحفاء معروفة ببطئها الشديد فى السير.

في بداية السباق، السلحفاء تتقدم عن أخيل بمسافة ما، وهذا عدل. لكي يلحق أخيل بالسلحفاء، عليه أن يصل إلى المكان الذي كانت توجد فيه السلحفاء فى بداية السباق. فتكون السلحفاء قد سبقته بمسافة أخرى.

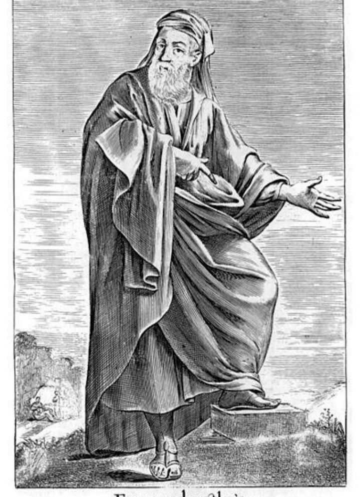
لكي يلحق أخيل بالسلحفاء فى المسافة الثانية، تكون قد سبقته بمسافة ثالثة. وهكذا إلى مالانهاية. أي أن أخيل لن يلحق بالسلحفاء مهما كانت سرعته بالنسبة لسرعة السلحفاء. وأيضا يمكننا حل هذه المشكلة باستخدام المتواليات الهندسية اللانهائية.

زينو ومن قبله بارمينيدس,سببا أزمة في الفلسفة اليونانية القديمة:

أولا: لأنهما أجبرانا على التفرقة بين ما نشاهده بحواسنا، وبين ما نصل إليه عن طريق المنطق والتفكير. هذا الفصل، تطور فيما بعد إلى مدرستين فى الفكر الفلسفي الغربي. هما المدرسة التجريبية والمدرسة العقلانية.

ثانيا: لأنهما جعلانا نعيد النظر فى فرض أن أصل الأشياء، شئ واحد (ماء أو هواء أو نار ،إلخ). لأن هذا سوف يقودنا إلى أفكار بارمينيدس التى لايمكن برهان صحتها أو الدفاع عنها.

يأتي بعد ذلك مجموعة من الفلاسفة، تؤمن بأن أصل الأشياء ليس شيئا واحدا، إنما أشياء كثيرة. أولهم "امبيدوكليس" (؟ - 440 ق م). يقول امبيدوكليس أن أصل الأشياء ليس شيئا واحدا، إنما العناصر الأربعة المعروفة. الماء والهواء والنار والتراب. أسماها الجذور الأربعة.



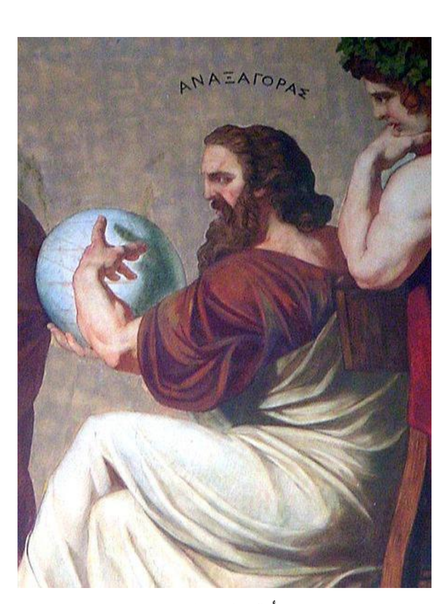
فى مواجهة نقد زينو للحركة، جاء امبيدوكليس بقوتين لتفسير الحركة. هما قوة الحب وقوة النضال. قوة الحب توحد الأجزاء المختلفة. قوة النضال تدمر وتفتت الأشياء القديمة وتحولها إلى أجزاء صغيرة.

أفكار امبيدوكليس، تبناها سيجماند فرويد، عالم التحليل النفسي المعروف. وقام فرويد بتسمية هاتين القوتين ب "إيروس" و "ثاناتوس". وهما: غريزة حب الحياة، وغريزة حب الموت، الموجودتان فى اللاوعي في عقل كل إنسان.

يتفق فرويد مع امبيدوكليس علي أن هاتين القوتين تكونان أساس كل المواد العضوية. المادة العضوية، تختلف عن المادة الغير عضوية فى أنها حية تحتاج إلى شئ آخر بجانب العناصر المكونة لها لكي تنبض بالحياة.

أول نظريات التطور، جاءت من أفكار امبيدوكليس. الحب يجمع أنواعا معينة من الوحوش. رؤوس كثيرة تنموا بدون رقاب، أزرع بدون أكتاف، عيون بدون رؤوس. من يستطيع منهم البقاء، يبقى. كان أرسطو العظيم لا يأخذ بهذا الرأي. لأنه يترك الكثير لعامل الصدفة.

يأتي بعد ذلك فيلسوف آخر من الفلاسفة الجمعيين (أصل الأشياء عناصر كثيرة)، "أناكساجوراس" (500 – 428 ق م). وجد أناكساجوراس أن نظرية امبيدوكليس بسيطة أكثر من اللازم. بدلا من وجود أربع جذور كأساس لكل الأشياء، جاء أناكساجوراس بعدد لانهائي من الجذور أو البذور كأصل لكل الأشياء.



أناكساجوراس

هذه الجذور أو البذور اللانهائية، تشبه العناصر الكيميائية فى عالمنا اليوم. أي أن هذه الأفكار تبدو أفكارا حديثة بمقاييسنا العلمية. كل جسم فى هذا العالم، يحتوي على بذور من كل العناصر. لكن عنصر واحد تكون بذوره هي المسيطرة.

كل جسم، به بذور من كل نوع بنسب مختلفة. وإلا

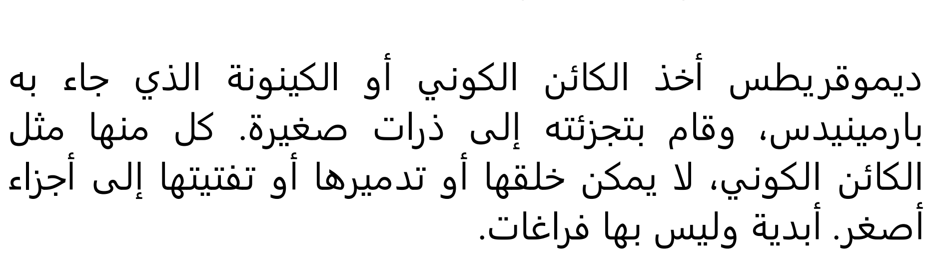
كيف يأتي الشعر من أشياء ليس بها شعر، أو اللحم من مواد ليس بها لحم.

أناكساجوراس يتفق مع امبيدوكليس فى الحاجة إلى قوة لتفسير الحركة والتغير. لكنه، بدلا من استخدام قوتي الحب والنضال، قام باستخدام قوة واحدة، هي قوة العقل. هذا يعني أن العالم يدار وفقا لنظام وترتيب عقلاني. العقل عند أناكساجوراس، يشبه إلى حد كبير مفهوم "الله". فقد خلق الله الأشياء من بذور أو عناصر.

هناك فرق بين عالم الأحياء وعالم الجماد. عالم الأحياء يحتوي على العقل داخله. بينما عالم الجماد، مسير بالعقل خارجه. العقل موجود في كل مكان. لكنه يختلف حسب الجسم الذي يحتويه. وهي أول تفرقة بين عالم الأحياء وعالم الجماد في الفكر القديم.

جاء بعد أناكساجوراس، مجموعة فلاسفة بقيادة "ليوسيبوس" (480 – 420 ق م)، و"ديموقريطس" (460 – 370 ق م)، يطلق عليهم اسم الذريين نسبة للذرة. لقد رأوا العالم يتكون من أجسام مادية. الأجسام المادية تتكون من مجموعة من الذرات. كلمة الذرة باليونانية تعنى الشئ الغير قابل للتجزئة.

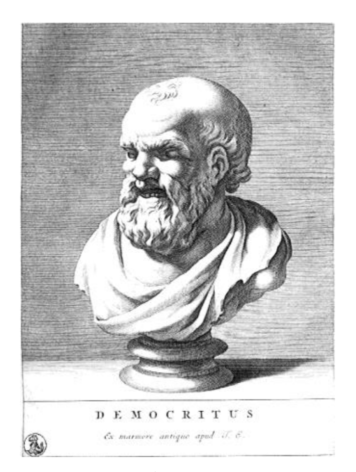

ليوسيبوس


ديموقريطس أخذ الكائن الكوني أو الكينونة الذي جاء به بارمينيدس، وقام بتجزئته إلى ذرات صغيرة. كل منها مثل الكائن الكوني، لا يمكن خلقها أو تدميرها أو تفتيتها إلى أجزاء أصغر. أبدية وليس بها فراغات.

هذه الذرات، فى حركة مستمرة فى فراغ خالي تماما. تتحرك فى مسارات مرسومة لها بالقوانين الطبيعية. على العكس من بارمنيدس، الفراغ والحركة هنا أشياء حقيقية مثل الذرات نفسها، وليست خيالا.

هذا يعني أن الفلسفة اليونانية فى عام 370 ق م، قادت إلى الفكر المادي، وإلى الفكر الحتمي. لا يوجد فى هذا الكون سوى أجسام مادية فى حركة. لا حرية أو إرادة، إنما ضرورة وامتثال.

ماذا أنجزه هؤلاء الفلاسفة الذين ظهروا قبل سقراط؟ لقد



ديموقريطس

جاءوا بفكر جديد يختلف تماما عن الفكر السائد السابق لهم، والذي يعتمد على الحدوتة والأسطورة والدين فى تفسير طبيعة الأشياء.

هذا الفكر، تطور فيما بعد إلى العلوم والفلسفة التى نعرفها اليوم. أفكار هؤلاء الفلاسفة الذين ظهروا قبل الميلاد، يمكن أن نتابعها فى أفكار علمائنا وفلاسفتنا ومفكرينا اليوم.

الفصل بين الحجة والمنطق من جهة، وما تشاهده الحواس فى فلسفة "كانط"، يمكن أن نتتبع جذوره فى الفلسفة اليونانية قبل الميلاد. أول تفسير علمي لتطور الكائنات جاء عن طريقهم. كذلك ربط الظواهر الطبيعية بالأرقام والمعادلات الرياضية فى صورة قوانين ونظريات. وهي أساسيات العلوم الحديثة اليوم.

لكنهم بتحطيمهم الفكر الديني التقليدي والقيم الخلقية المتعارف عليها، لم يتركوا شيئا يصلح كبديل في مجال الأخلاق. وكما قال أرسطوفان فى أحد مسرحياته: "عندما سقط زيوس، جاءت الفوضى وسيطرت الأعاصير." أو كما يقول مشايخنا اليوم، لولا الدين لسادت الفوضى وفجرت النساء.

القيم الخلقية النبيلة التى كانت سائدة أيام الحكم الارسطوقراطي، والمستمدة من الدين وأبطال الأساطير، بدأت تخبوا بسبب سيطرة طبقة التجار الجديدة (البرجوازية). التي لم تعد تغريها قيم الشرف والشجاعة والإخلاص. إنما كان كل همها طلب السلطة والنجاح والربح.

كيف تستطيع الطبقة الجديدة تحقيق السلطة والنجاح فى مجتمع يحكم بنظام ديموقاطي بدائي؟ عن طريق السياسة. الطريق إلى السياسة، كما هو الحال اليوم، يتطلب البلاغة والقدرة على خداع الجماهير .بالخطابة فى الماضي، وأئمة المساجد وأكياس السكر وزجاجات الزيت وفبركة البيانات في الحاضر، التى لا يشطرت أن تكون صادقة. لهذا يصبح علم الأخلاق ضرورة فلسفية.

تستمر ملحمة الإنسان ونضاله الجبار لكشف أسرار هذا الكون، ومعرفة سبب وجوده. وتستمر قصة الفلسفة الغربية التي سوف أحاول تبسيطها بقدر الإمكان للسادة القراء في الأبواب القادمة إن شاء الله.

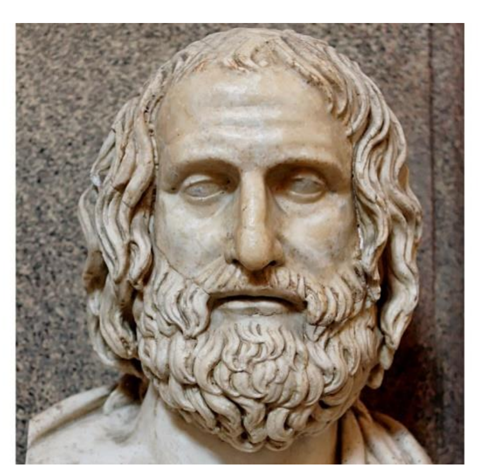
2

السفسطائيون وسقراط

الفلسفة اليونانية القديمة، كانت تفرق بين المادة والعقل (أناكساجوراس)، وبين الطبيعة والإنسان. لكن إبان نهاية القرن السادس وبداية القرن الخامس قبل الميلاد، انصرفت الفلسفة اليونانية منذ ذلك الحين إلى الإنسان وخصته بالبحث والدرس. كان أول من شق هذا الطريق هم جماعة السوفسطائيين.

لم يكوّن السوفسطائيون مدرسة فلسفية لها آراؤها الخاصة التي تربطها عقيدة فكرية منظمة. إنما كانوا هم طائفة من المعلمين، متفرقين في بلاد اليونان، يتخذون التدريس حرفة. كانوا يرحلون من بلد إلى بلد، يلقون الدروس ويتخذون لهم تلاميذ. يتقاضون على تعليمهم أجرا.

لم تكن دروس السوفسطائيين للطلبة موضوعات فلسفية تقليدية عن الحقيقة و الصدق وخلافه، إنما كانت دروسا تشرح طريقة اقتناص الفرصة، والوصول إلى السلطة. أو تمارين لإجادة فنون المناظرة والاقناع. وكانت محاضراتهم، تشمل أيضا دروسا في التاريخ وقواعد اللغة والنحو. لكنهم أهملوا تدريس الرياضيات والفيزياء.



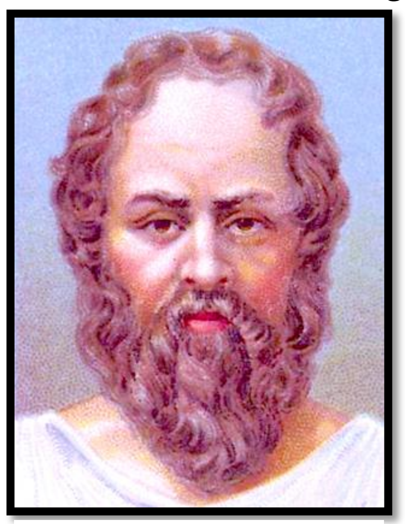
بروتاجوراس

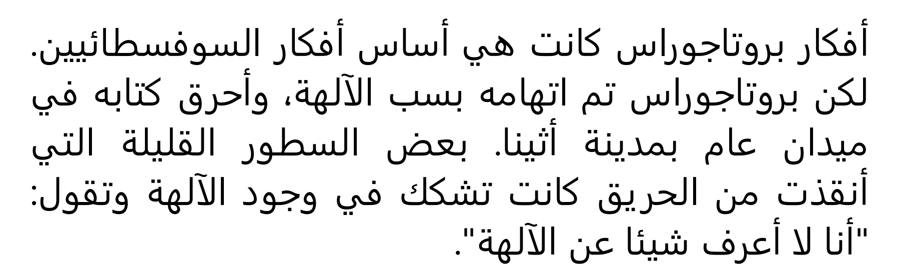
أشهر السفسطائيين هو بروتاجوراس (490 – 420 ق م). كان يقول ما يفيد بأن الطريق للوصول إلى النجاح، هو الاعتراف بعادات المجتمع وقبولها. لا لأنها صحيحة، ولكن لأن هذا هو الأفيد للفرد الراغب في النجاح. أو كما نقول نحن بالبلدي "خليك مع الرايجة"، و "اركب الموجة". إذا كانت الموجة هي

موجة الإسلاميين، فلنكن إسلاميين.

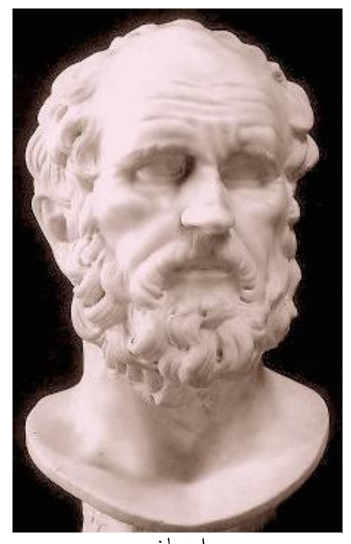
بالنسبة لبروتاجوراس، ليس هناك عادة صحيحة وأخرى خاطئة. العادة ببساطة قضية نسبية. ليست العادة فقط، ولكن كل شئ نسبي. يخضع لحكم الشخص وتقديره. لذلك جاء قول بروتاجوراس الشهير: "الإنسان مقياس للأشياء". وهو بذلك يكون أول من فكر في قوانين النسبية. ويقول البعض أنه قد ألهم البرت أينشتين بفكرة النسبية. فلا يوجد جديد تحت الشمس.

فمثلا، ثقافتنا الشرقية تعطي اهتماما بالغا لعفاف المرأة وشرفها. لكن الإسكيمو عندما يحل عليه ضيف، يترك زوجته تشاركه الفراش، كنوع من حسن الضيافة والكرم. وعندما يكون القمر بدرا، يطفئون المصابيح ويتبادلون الزوجات. الشرف هنا نسبي كما يقول بروتاجوراس. يختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان.


جورجياس


أفكار بروتاجوراس كانت هي أساس أفكار السوفسطائيين. لكن بروتاجوراس تم اتهامه بسب الآلهة، وأحرق كتابه في ميدان عام بمدينة أثينا. بعض السطور القليلة التي أنقذت من الحريق كانت تشكك في وجود الآلهة وتقول: "أنا لا أعرف شيئا عن الآلهة".

سفسطائي آخر هو جورجياس (483 – 375 ق م). حارب الفلسفة وأراد أن يسقطها من عليائها، وقام باستبدالها بعلم البيان. في محاضراته وفي الكتاب الذي ألفه، أثبت المقولات الثلاثة الآتية:

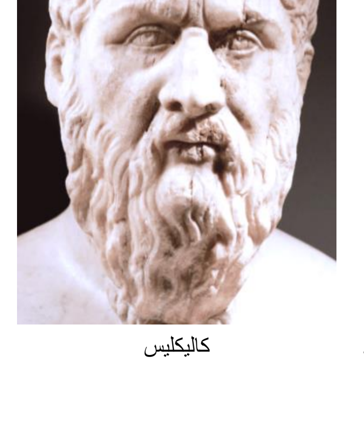

سراسيماخوس

1- ليس هناك شئ موجود. (يعني خلاها ضلمة)
2- إذا كان هناك شئ يمكن معرفته، فلا يوجد من يعرف هذا الشئ. (الناس كلها أغبياء)
3- إذا عرف شخص ما شيئا معينا، فلن يستطيع نقل هذه المعرفة إلى شخص آخر. (اللغة ووسائل الاتصال قاصرة وبظرميط)

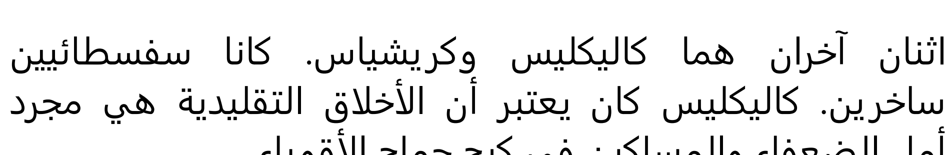
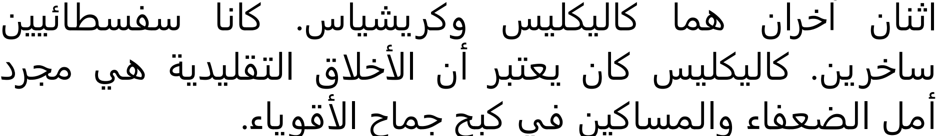
الفكرة هنا أنك لو استطعت برهان هذه التخاريف الثلاثة، يمكنك برهان صحة أي شئ.

يأتي بعد ذلك سفسطائي ثالث، هو سراسيماخوس المعروف بالقول المشهور: "العدالة تكون دائما في جانب الأقوى". ونحن نعرف الآن، من تجاربنا المريرة فى الحياة، أن القوانين مثل بيت العنكبوت. يتلعثم فيها الضعيف ويمزقها القوي.

حزب الوفد في بلادنا يتبنى مقولة سعد زغلول: "الحق فوق القوة"، وسراسيماخوس يقول "القوة فوق الحق". ونظام الحكم في بلادنا يثبت أن سراسيماخوس كان أصدق من سعد زغلول وحزب الوفد.


كاليكليس

الكلام عن الأخلاق هو في الواقع صراع خفي على السلطة. قضية الحجاب والنقاب في بلادنا اليوم، حسب رأي سراسيماخوس، هي قضية بسط نفوذ واستعراض عضلات، قبل أن تكون قضية أخلاق.



اثنان آخران هما كاليكليس وكريشياس. كانا سفسطائيين ساخرين. كاليكليس كان يعتبر أن الأخلاق التقليدية هي مجرد أمل الضعفاء والمساكين في كبح جماح الأقوياء.


كريشياس

أنا غير قادر على هذا المفتري الذي يحتكر السلطة وينهب ثروات البلد. لذلك أنادي بالأخلاق وأتوسل للطاغي لكي يلتزم بها. التوسل والاستعطاف هو الخيار الوحيد الباقي للضعيف. خيار السلام أصبح قضية أخلاقية للعرب اليوم. لأن السلام هو حيلة العاجز وسلاح الضعيف.

كان يعتقد كاليكليس في نفس الوقت، أنه من واجب القوي التخلص من هذه القيود المسماة بالأخلاق عندما يستطيع. لأن هذا هو حقه الطبيعي. هل إسرائيل تفعل شئ غير استخدامها لحقها الطبيعي في سرقة الأرض وإبادة الشعب الفلسطيني، لأنها أقوى من العرب مجتمعين. كاليكليس لم يكن مخطئا أبدا.

كان كريشياس يمت لسقراط بصلة القرابة. كره الأثينيون لكريشياس تسبب في حكمهم على سقراط بالموت. كان كريشياس ملحدا، لكنه يؤمن بالقانون مثل سقراط. وكان يعتقد بأن الآلهة خلقها حرفي ماهر مثل القوانين، لكي تجبر الناس على فعل أشياء معينة. كان أيضا يفرق بين المعقول والمحسوس. ويعتقد بأن التفكير العقلاني يقلل من خداع الناس.

المهم هنا هو أن يطلب الناس السلطة والقوة بدلا من طلب العدالة. أو كما يقول أولاد البلد "طظ في العدالة". لكن لماذا القوة والسلطة شئ جيد يجب أن نسعى إليهما؟ لأنهما وسيلة للبقاء.

لماذا البقاء شئ جيد؟ لأنه يقود إلى المتعة والرفاهية. السكن في القصور ولبس الثياب السندس الخضر وإستبرق، واقتناء السرائر والقنان، وركوب الجياد المطهمة، والاستمتاع بالطعام والشراب والجنس. هذه أهدافنا جميعا الغير معلنة، والتي نتمناها ونكبتها في عقلنا الباطن. وإذا لم نستطع تحقيقها في الحياه الدنيا، عملنا على تحقيقها في الحياه الأخرى.

هذا ما يجب أن يطلبه الإنسان الذكي. ولا يجب أن تضيع الوقت، و "تخلّى نفسك في حاجة". قيم اليونانيين القديمة التي تدعو إلى الوسطية والاعتدال، هي ببساطة قيم "يوك" كما يقول الأتراك، لا تصلح إلا للضعفاء والمساكين.

كريشياس، الذي تبين أنه أقسى السفسطائين، قام بمناهضة الديموقراطية، والدعوة إلى الدكتاتورية. كانت دروسه تنصح الحاكم الذكي باستخدام الخوف والرعب، والدعوة لعبادة آلهة وهمية، للسيطرة على رعاياه. وهو سابق لميكافيللي في استخدام مقولة: " الغاية تبرر الوسيلة". وألعن من ميكافيللي في النصيحة باستخدام الدين وتوظيفه لمصلحتك الشخصية.

من هنا يتضح أن جوهر السفسطائية يتضمن عدم الموضوعية والشك والعدمية. بمعنى أن القيم والمعتقدات التقليدية للمجتمع لا أساس لها من الصحة. وأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه ولا يستحق ثمن بصلة. مما يجعل الهدم لقيم المجتمع أمرا واجبا ومرغوبا فيه لذاته، بمعزل عن أي برنامج إنشائي.

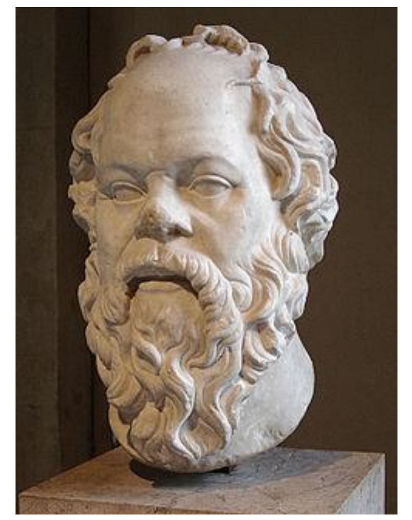
ليس هناك حقيقة موضوعية. إذا وجدت، الإنسان غير قادر على استيعابها. الذي يعنينا هنا هو الوسيلة والتلاعب بالحقيقة، وليست الحقيقة نفسها التي من الصعب الحصول عليها.

 لذلك لا نتعجب من امتعاض سقراط من فكر السفسطائيين. لكن هناك جانب إيجابي في فكر السفسطائيين. أولا، الكثيرون منهم كانوا سياسيين مهرة. لهم إسهامات كبيرة في تاريخ الديموقراطية.

ثانيا، كرهنا لأفكارهم ينبع من كره سقراط وأفلاطون لهم، وأفلاطون هو الذي نقل لنا أخبارهم. نحن نستمع إلى طرف واحد.

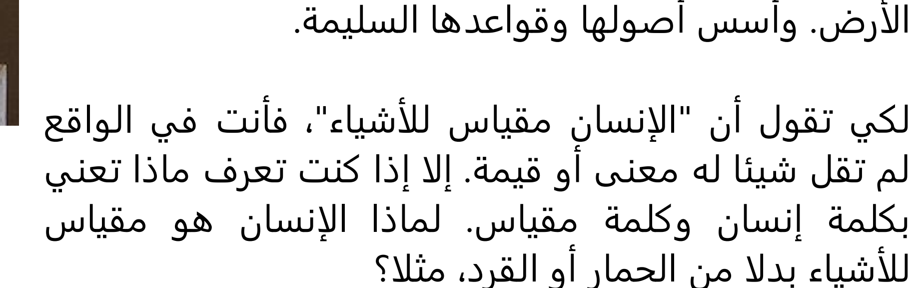
ثالثا، كان لهم تأثير إيجابي على الوعي الإنساني وإيقاظه. فأصبح الإنسان موضع الاهتمام. الإنسان مقياس للأشياء كما قال بروتاجوراس. الإنسان بدأ يهتم بنفسه ووضعه في هذا الكون.

السفسطائيون الذين كانوا مدرسين محترفين، واجهوا ندا لهم شرس شديد المراس. هو الآخر مدرس محترف، لكن يعتبر من أعظم المدرسين الذين عرفهم التاريخ. سقراط (469 – 399 ق م).



سقراط

بالرغم من أن سقراط كان يعارض السفسطائيين في أفكارهم، إلا أنه قد نهج منهجهم في التحول عن دراسة طبيعة الكون، وركز على طبيعة الإنسان. لكنه إلتزم بالموضوعية في كل حججه وأسسها على تعاريف صحيحة مقنعة. أي أنه نزل بالفلسفة من السماء ومن عليائها إلى الأرض. وأسس أصولها وقواعدها السليمة.



لكي تقول أن "الإنسان مقياس للأشياء"، فأنت في الواقع لم تقل شيئا له معنى أو قيمة. إلا إذا كنت تعرف ماذا تعني بكلمة إنسان وكلمة مقياس. لماذا الإنسان هو مقياس للأشياء بدلا من الحمار أو القرد، مثلا؟

تركزت جهود سقراط في اتجاهين: الأول، التركيز على مفهوم التعاريف وموضوعيتها. يعني إيه كلمة "إنسان". وما معنى كلمة "الحق" و"الصدق" و"الأمانة"، الخ.

الجهد الآخر، كان يهتم بالغوص في أغوار النفس الإنسانية من الداخل، للبحث عن مصادر الحقيقة والصدق. هذا عمل لم يكن قاصرا على دروس نهاية الأسبوع لتلاميذه، لكنه عمل مستمر كان بمثابة رسالة سقراط طيلة حياته.

لم تكن عادة سقراط إجابة الأسئلة والقضايا التي كان يطرحها. وكان يقضي جل وقته في الشارع والأماكن العامة بمدينة أثينا. يسأل الناس إن كانوا يعرفون شيئا مؤكدا. وكان يقول أنه لو كانت هناك حياة أخرى، فهو لن يتردد في طرح نفس الأسئلة والقضايا على أرواح الناس في العالم الآخر.

من المضحك أن سقراط كان يعترف بأنه لا يعلم شيئا. لهذا قالت كاهنة دلفي أن سقراط هو أحكم رجل بين الرجال. لأنه على الأقل يعلم أنه جاهل. بينما الآخرون يعتقدون خطأ أنهم يعرفون بعض الشئ. وله القول المشهور: "أيها الإنسان، إعرف نفسك". ترى كم منا الذي يعرف أنه لا يعلم شيئا؟ وخصوصا حكامنا ومن بيدهم مصائرنا.

لم يكتب سقراط في حياته كتابا واحدا. لكن محادثاته قام بنشرها تلميذه النجيب أفلاطون تحت عنوان محاورات سقراط. وكانت محاورات سقراط، ينقسم كل منها إلى ثلاثة أقسام:

1- طرح المشكلة للنقاش(على سبيل المثال، مشكلة تعريف العدالة أو الحقيقة أو الجمال،...إلخ).
2- يكتشف سقراط خطأ بسيطا في تعريف الشخص الذي يجادله. وببطء، يظل يركز على هذا الخطأ إلى أن يجبر المجادل على الاعتراف بجهله. في أحد المحاورات، جعل خصمه يجهش بالبكاء ويزرف الدموع.
3- في النهاية يعترف كلا من المجادلين بجهله، ويتعهدا بالبحث عن الحقيقة بجدية واهتمام أكثر.

غالبا ما كانت تنتهي المحاورات بدون حسم. سقراط لا يستطيع أن يفرض الحقيقة على غريمه. كلا منا عليه أن يبحث عن الحقيقة بنفسه.

في بحث سقراط عن الحقيقة، قام بإحراج شخصيات كبيرة وهامة من مواطنيه. فتآمر أعداؤه عليه، وقاموا باتهامه كذبا بالتجديف في حق الآلهة وإفساد الشباب. وقاموا بمحاكمته على أمل إذلاله وإجباره على الركوع وطلب العفو.

لكن سقراط لم يركع على ركبتيه. وبدلا من ذلك، قام بإحراج ممثل الاتهام وإغضاب مجموعة المحلفين البالغ عددهم 500 محلف. وقام بإظهار مدى جهلهم وغباوتهم.

عندما طلب منه إختيار طريقة عقابه. اقترح أن يقوم الأثينيون بعمل تمثال له ووضعه في ميدان عام بالمدينة. عند ذلك استشاط المحلفون غضبا، وقاموا بالحكم عليه بالإعدام. 280 صوت موافق على عقوبة الإعدام، ضد 220 صوت غير موافق.

بسبب إحساس الأثينيين بالخزي لحكمهم بالإعدام على شخصية مرموقة مثل سقراط، كانوا على استعداد للسماح له بالهرب من السجن إذا أراد، بعد رشوة حراس السجن. لكنه لم يرد.

بالرغم من توسلات أصدقائه وتلاميذه، إلا أن سقراط رفض أن يهرب. قائلا أنه لو قام بانتهاك أحكام القانون بالهرب، سوف يعني هذا الفعل أنه ضد القانون. وفضل أن يموت على أن يخرج عن قانون الجماعة التي ينتمي إليها، حتى وإن كان الحكم جائرا.

قام سقراط بتجرع السم وهو يتناقش مع تلاميذه حتى اللحظة الأخيرة في قضايا فلسفية. بموته، أصبح سقراط رمزا عالميا للشهادة في سبيل الحق. هكذا مات أحكم وأنبل وأطهر وأفضل رجل. كما قال عنه تليمذه أفلاطون. فهل كانت محاكمة سقراط وإعدامه، دلالة على عسف سلطة الأغلبية في النظام الديموقراطي وتحكمها الظالم في الأقلية؟

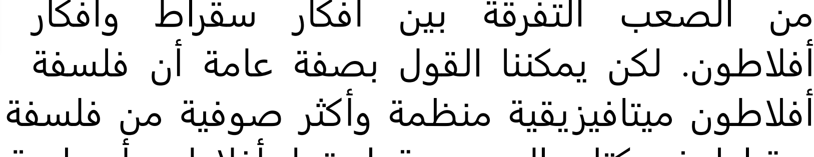
3

أفلاطون

يعتبر أفلاطون (427 – 347 ق م)، من أهم تلاميذ سقراط، ومن أعظم المفكرين الذين عرفهم التاريخ. هو أيضا مؤسس أول جامعة "الأكاديمية". يقوم طلبتها بدراسة محاورات سقراط كمادة أساسية.

ولد في أثينا لعائلة أرستوقراطية. اسمه الحقيقي "أرسطوكليس". سمي أفلاطون لأنه كان عريض المنكبين. كان جنديا ومصارعا بارزا. نال عدة جوائز في الألعاب الرياضية في شبابه.

من الصعب التفرقة بين أفكار سقراط وأفكار أفلاطون. لكن يمكننا القول بصفة عامة أن فلسفة

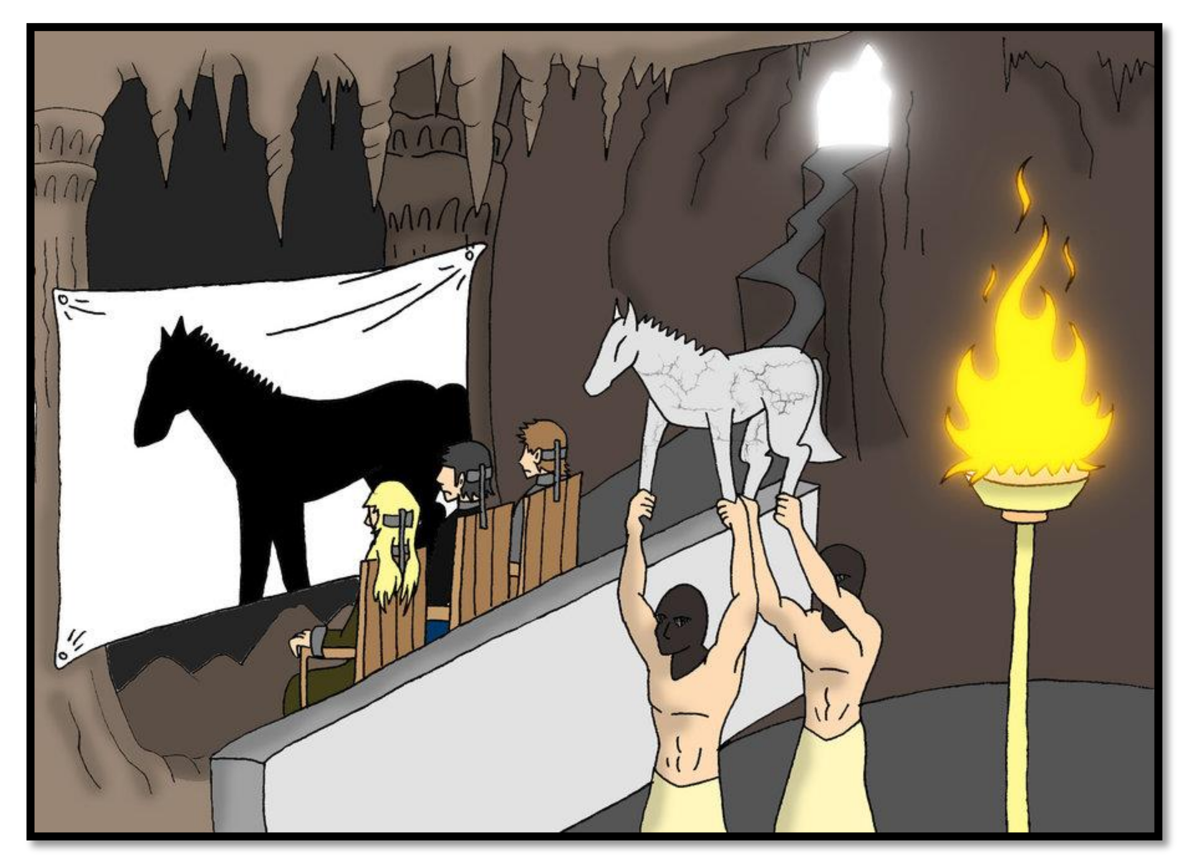


أفلاطون

أفلاطون ميتافيزيقية منظمة وأكثر صوفية من فلسفة سقراط. في كتاب الجمهورية، استعار أفلاطون أسطورة الكهف. التي تقول الآتي:

تخيل مجموعة مساجين مقيدين بالسلاسل منذ نعومة أظافرهم، في وضع يجعلهم يواجهون حائطا داخل كهف تحت الأرض. هم في وضعهم هذا، لا يعلمون شيئا عن أنفسهم أو رفاقهم أو ما يجري خارج الكهف.

من ورائهم نار مشتعلة تضئ من موقع عال. بين النار والسجناء طريق مرتفع عليه جدار صغير. على طول الجدار، رجال يحملون أشياء مصنعة من الحجر والخشب ومواد أخرى. السجناء لا يرون سوى الظلال التي يلقيها ضوء النار على الجدار المواجه للكهف.



كهف أفلاطون

لو أطلقنا سراح أحد السجناء ليترك الكهف. فإنه سوف ينبهر بالأضواء الخارجية إلى الحد الذي يجعله يعجز عن رؤية الأشياء التي كان يرى ظلالها وهو فى الداخل. فما هو الحقيقي الآن؟ الظلال التي كان يراها واعتاد عليها، أم ما يراه الآن من أشياء؟

إذا أرغمنا السجين على أن ينظر إلى الضوء المنبعث من النار. فإن عينيه سوف تؤلمانه، وسوف يحاول الهرب والعودة إلى أشكال خيال الظل التي تعود عليها، والتي يمكنه رؤيتها بسهولة. فهي في نظره أوضح مما يراه الآن. تجارب علم النفس الحديثة أثبتت صحة فرض أفلاطون هذا.

إذا مضينا به في الطريق الوعر الصاعد إلى أعلى خارج الكهف حتى يواجه الشمس، فإنه سوف يتألم أيضا وسوف يحاو ل الهرب أو الثورة. لأنه اقتيد على هذا النحو إلى أوضاع جديدة لم يتعود عليها.

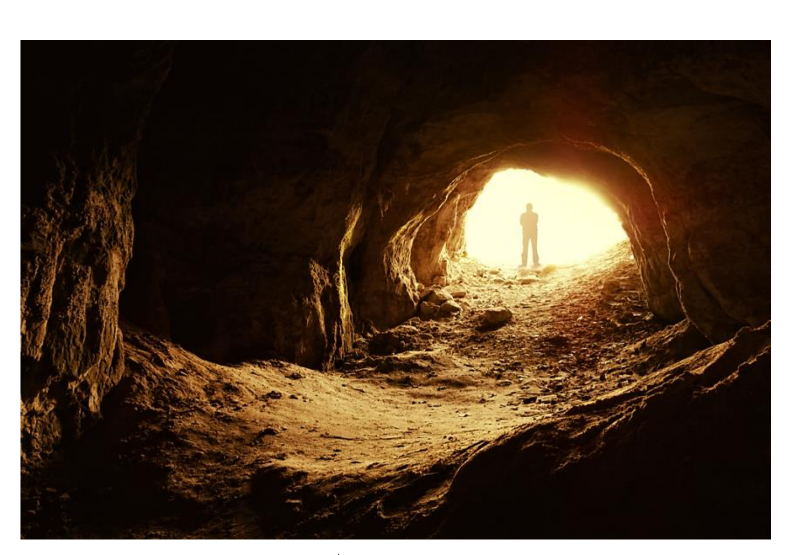
إنه يحتاج إلى التعود على الواقع تدريجيا، قبل أن يرى الأشياء على حقيقتها في ذلك العالم الجديد الأعلى. في البداية سيكون من السهل أن يري ظلال الأشياء لأنه معتاد عليها. ثم بعد ذلك يمكنه رؤية صور الناس والأشجار منعكسة على سطح الماء كما نرى نحن صورنا في المرآة.

بعد ذلك، يمكنه أن يرى الأشياء نفسها، الأشجار والأنهار والطيور،...الخ. حينئذ، يمكنه أن يرفع عينيه إلى السماء لكي يرى نور النجوم والقمر. في النهاية، يمكنه أن يرى نور الشمس ووهجها في وضح النهار. هنا يحدث التنوير وتتضح الرؤية الحقة.

الظلال التي على الحائط تمثل ظلال الحقيقة، وليست الحقيقة نفسها. مثل صور المجلات والمسلسلات التليفزيونية وأفلام السينما.

هناك أيضا معتقدات وأفكار لا نراها على حقيقتها، إنما نرى ظلالها فقط بسبب تحيزنا وبسبب قيود وسلاسل عاداتنا وتقاليدنا. يمكننا تفهم خوف الطفل من الظلام، لكن المأساة الكبرى هي خوف الإنسان من النور ومعرفة الحقيقة. مفاهيمنا للخير والشر، أسيرة نشأتنا الدينية. التفرقة بسبب الجنس أو الدين أو العرق، ترجع لتربيتنا الخاطئة منذ نعومة أظافرنا.

التحرر من السلاسل والخروج إلى العالم الخارجي يمثل التعليم الجيد الذي نفتقر إليه جميعا. وحيث أن السجين متعود على رؤية الظلال في الظلام، فعليه أن يدرب نفسه على الرؤية الحقة وبالتدريج.



خوف الإنسان من النور

عندما يعود السجين إلى الكهف لكي يحاول تحرير رفاقه المساجين وهدايتهم للحقيقة،

سوف يقابل بمقاومة شديدة. لأنه يحاول حرمانهم من الوهم السهل الذي يعيشون فيه. وهنا تصبح حياته مهددة، لأنهم يمكن أن يقوموا بقتله والتخلص منه.

تحرير المساجين من الظلام والخداع والكذب الذي يعيشون فيه، بالإضافة إلى الرحلة الصعبة إلى الضياء ودفئ الحقيقة، ألهمت العديد من المفكرين والفلاسفة والقادة. أفلاطون كان يعني شيئا أكثر من مجرد تعبير بلاغي وخيال شاعري.

قام أفلاطون بالتمييز بين العالم المحسوس الذي ندركه بحواسنا، وبين العالم المعقول الذي سماه بعالم "المُثل". أي عالم الأفكار المجردة الثابته الأزلية. كان الهدف من ذلك، هو الرد على ادعاءات السفسطائيين بأن المعرفة غير ثابتة، تعتمد فقط على الحواس التي هي في تغير مستمر.



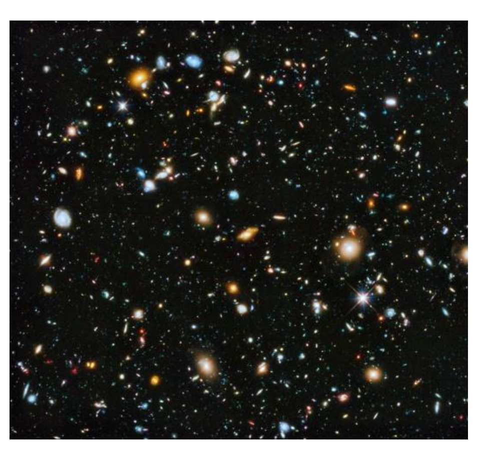
عالم المثل كما تخيله الرسام

الأشياء المحسوسة حولنا، تختلف في خواصها وصفاتها الحسية. لكن هناك شيئا مشتركا بينها. زيد وعبيد يختلفان عن بعضهما. لكن هناك شيئا إنسانيا يجمع بينهما. هذه الإنسانية، هي شئ واحد ثابت، بالرغم من أنها شئ غير محسوس.

إنها ماهية الإنسان التي لا يمكن إدراكها إلا بالعقل. الإنسان فان وجسمه وحالته المالية دائمة التغيير، لكن إنسانيته أو "مُثل الإنسان"، ثابت أزلي لا يتغير ولا يندثر. ومن ثم، كل شئ في العالم المحسوس، له "مُثل" في العالم المعقول. وكذلك الأشياء الجميلة، لها "مُثل" في الجمال، وأيضا هناك "مُثل" للفضيلة والخير والحق، ...الخ. الوردة تذبل وتختفي، لكن جمال الوردة باق وهو الوجود الحقيقي.

بنى أفلاطون نظريته في المعرفة، علي أساس نظرية "المُثل". التي تقول أن الوجود الحقيقي هو وجود "المُثل". أما الوجود المحسوس، فهو وجود مزيف.

المعرفة الحقيقية التي يمكن الاعتماد عليها، هي التي تأتي عن طريق العقل. أما معرفة الحواس، فلا تصل بنا إلا للوهم والزيف. لأنها تعتمد على الحواس محدودة


كل نقطة ضوء هي صورة مجرة بها مئات بلايين النجوم

القدرة، والمتغيرة والزائلة. التجربة، لا تقودنا إلا إلى الظن والاعتقاد، الذي لا يرقى إلى المعرفة الحقيقية.

إذا نظرنا إلى نجم خافت من نجوم السماء بالعين المجردة، فإننا نراه نجما واحدا. لكن لو نظرنا إليه بتليسكوب حديث، قد نجده مجموعة نجوم. المناطق السوداء بين النجوم نراها فارغة، لكن قد يوجد بها مجرات بعيدة جدا عنا، يبلغ عدد نجوم الواحدة منها مئات البلايين من النجوم.

إذا نظرنا إلى نقطة مطر بالعين المجردة، نراها صافية تصلح للشرب. لكن لو نظرنا إليها تحت التليسكوب الضوئي، فقد نجد بها آلاف المخلوقات الدقيقة الحية. تتحرك وتسبح وتأكل وتتكاثر وتنصب الفخاخ لصيد الفريسة. عالم آخر من المخلوقات الدقيقة.

هذا يعني أن أفلاطون كان على حق بالنسبة للحواس. هي طرق تقريبية لمعرفة ظلال الحقيقة، ولا يمكن أن تصل بنا إلى الحقيقة نفسها.

ثم قام أفلاطون بتقسيم المعرفة (إيبستيمولوجيا) إلى أربعة أقسام هي:

1- الإحساس. يشمل إدراك عوارض الأجسام وأشباحها وظلالها.
2- الظن، بمعنى الإعتقاد. وهو يسبب القلق الذي يدفع إلى طلب العلم.
3- الإستدلال والفهم. وفيه يتبع منهج الرياضيين في حل المشاكل.
4- التعقل. بمعنى إدراك الماهيات المجردة، وهو أسمى درجات المعرفة.

إذا لم تكن الحواس المتغيرة وسيلة المعرفة الحقيقية، فلا بد من البديل الذي يعتمد على وجود "المُثل". وكيف يدرك الإنسان "المُثل"، إلا إذا خالط وجوده وجود "المُثل".

لذلك، يعتبر أفلاطون أن للإنسان نفسا مجردة كانت تعيش في عالم "المُثل" قبل أن تنزل إلى العالم المحسوس. في الحياة السابقة، كانت النفس قادرة على فهم

ومعرفة "المُثل". لذلك على الإنسان أن يسعى لتذكر ما قد عرفه سابقا بخصوص "المُثل".

في أحد محاوراته تحت اسم "مينو"، جاء بصبي من العبيد لم يسبق له تعليم. وجعله يقوم بحل مسألة رياضية معقدة، عن طريق الجواب بالإيجاب أو النفي على مجموعة أسئلة سقراط.

من هنا استنتج أفلاطون أن الصبي كان يعرف الإجابة منذ البداية، لكنه لا يعرف أنه يعرف. كل المعرفة الحقيقية تأتي من الداخل، من النفس. الإنسان ينسى ما يعرفه، ويظل باقي عمره يبحث في أغوار النفس لكي يخرج ما يحتاجه من معرفة. المعرفة بالنسبة لأفلاطون، ما هي إلا تجميع لهذه المعلومات الموجوده أصلا في النفس. وهذا هو مصدر مفهوم العقل الباطن لسيجماند فرويد في علم النفس.

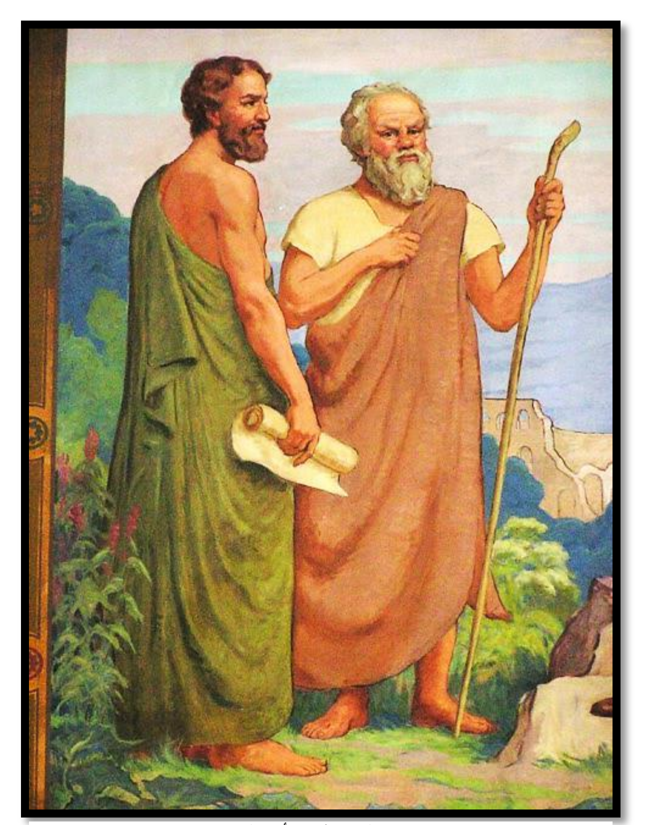
نظرية المعرفة لأفلاطون، تعتمد على نظريتة في الكينونة (أنتروبولوجيا). والتي تقول بأن النفس كان لها وجود مستقل قبل الالتحاق بالجسد (الروح في الأديان). إلتحاق النفس بالجسد، هو إنحطاط لها وسبب في كل الشرور والرزيلة. الوهم والظن وعدم المعرفة الحقة، يأتي بسبب سيطرة الحواس على النفس.

ماهية الإنسان، تكمن في النفس المجردة التي كانت تعيش في عالم "المُثل"، قبل أن تنزل إلى العالم المحسوس وتلحق بالجسد. الجسد ما هو إلا عائق يعوق النفس عن الوصول إلى المعرفة الحقة. ويعوقها أيضا عن تحقيق الفضيلة.

يقسم أفلاطون النفس إلى مستويات مختلفة. نفس غريزية، ونفس غاضبة، ونفس عاقلة. الإنسان الفاضل هو الإنسان الذي يستطيع أن ينشئ توازنا بين مستويات النفس المختلفة، بحيث لا تطغى إحداها على المستويين الباقيين.

بالنسبة للأخلاق، يربط أفلاطون الفضيلة بالمعرفة. من يفعل الشر، يفعله عن جهل. وهذا يعني أن العقل وحده هو مصدر الأخلاق. لذلك يكون التأمل المجرد وإهمال الجسد، هو الطريق لبلوغ الحقيقة والسمو بالأخلاق.

بعد هزيمة أثينا في حربها مع إسبرطة، وبعد إخماد الثورة التي تزعمها الارستقراطيون. عادت الديموقراطية مرة ثانية إلي أثينا. وقبض على سقراط وحكم عليه بالإعدام.


سقراط مع تلميذه أفلاطون

بعد موت سقراط، ترك أفلاطون أثينا خوفا على نفسه وكان يبلغ من العمر 28 عاما. أصبح مقتنعا أكثر من أي وقت مضى بأن الديموقاطية وحكم الأغلبية، هي السبب في موت سقراط، وسبب الكوارث والبلاء الذي حل بأثينا. بعد أن جال في عدة بلدان، وتأثر بفلسفاتهم، عاد إلى أثينا وهو في الأربعينات من عمره.

الأغلبية، كما كان يعتقد أفلاطون، لا تستطيع أن تعرف أبدا مصلحة الدولة العليا أو مصلحة المواطنين. فهي تفتقر إلى التدريب والتعليم والحكمة اللازمة لمعرفة الحق وفصله عن الباطل. الأغلبية لا تهتم إلا بمصالحها الشخصية، ورغباتها الحسية المباشرة. ولا تحركها سوى عواطفها الضعيفة. هذا يجعلها ضحية سهلة للديماجوجية (خداع الجماهير).

في ظل الديموقراطية وحكم الأغلبية، قد يقود الأشرار العمي. وقد تغرر قوى البطش والظلم بمواكب الجهل والحمق. ويسيطر الذين لا يريدون على الذين لا يعلمون. الأغلبية تسير بغير عقل، خلف أي شئ يتحرك. متى نصبت الزينات وقرعت الطبول.

فقد أفلاطون ثقته الكاملة في النظام الديموقراطي. وجاء بنظرية الملك الفيلسوف، أو الفيلسوف الملك. أو الدكتاتور العادل كما أسماه الإمام محمد عبده.

هذا الملك الفيلسوف، سوف تكون لديه معرفة حقيقية بالعدالة، ودراية بأصلح صيغة للحكم. إلى أن يصبح الفيلسوف ملكا، أو الملك فيلسوفا، لن يتيسر قيام المجتمع العادل. وكرس أفلاطون باقي عمره لتحقيق هذا الغرض.

شبه أفلاطون الدولة، كما جاء في جمهوريته، بالفرد. من حيث أن الفرد له طبيعة ثلاثية. تتكون من الجسد والعواطف والعقل. كذلك الدولة. هي أيضا تتكون من ثلاث فئات.

الطبقة المنتجة، وهي عامة الشعب. والطبقة العسكرية، والطبقة الحاكمة أو الحراس. منها يأتي الملك الفيلسوف. أوضح أفلاطون كيف يتم اختيار الطبقة الحاكمة من بين باقي الطبقات. وكيف يتم تدريبهم تدريبا شاقا، لمدة سنوات عديدة. حتى تسمو أرواحهم وأنفسهم وتصل إلى حد الكمال.

عندما يبلغون سن الخمسين، وبعد أن يجتازوا الإختبارات الدقيقة بنجاح، يكون لهم الحق في الإنتماء إلى الطبقة الحاكمة أو الحراس.

هذه الطبقة أثناء إعدادها، غير مسموح لها بامتلاك أي شئ. وغير مسموح لها بالزواج وتكوين عائلات. أو باقتناء الذهب والفضة والثروات. تعيش في جماعات، وتأكل في جماعات مثل الجنود. الحياة الجنسية مقصورة على أفضلهم بهدف إنجاب أفضل الأطفال.

تلك الأطفال تخضع لتربية خاصة بمعزل عن حياة الأسرة. بهدف إعدادهم فلاسفة وحكام في المستقبل. باقي الطبقات، مسموح لها بالحياة العادية، من حيث تكوين الأسرة والزواج وحق الملكية وخلافه.

جمهورية أفلاطون هذه، جمهورية غير ديموقراطية. الفرد فيها محكوم بديكتاتورية الدولة ورعايتها الشاملة ورقابتها الحديدية. عذر أفلاطون هو أن جمهوريته مبنية على المعرفة الحقة. مبنية على العدالة المطلقة.

لم يبن أفلاطون جمهوريته على العنصرية أو القوة أو الثروة، أو على طبقة معينة كما في النظام الشيوعي. أو على فرد بعينه، كما في النظام الفاشستي. لكن أفلاطون يبني جمهوريته على أساس المعرفة الحقة. من ثم ، يكون للدولة الحق في السلطة المطلقة. لأن ذلك في مصلحة الأفراد أنفسهم.

هنا نتوقف قليلا لنتساءل. أليس ما يعتقده كل حاكم بأمره وكل دكتاتور ذو سلطة مطلقة، هو أن معرفته للحقيقة دون غيره هي التي تبرر سيطرته على شعبه؟

هل هناك حقيقة مطلقة كما يقول أفلاطون؟ في الوقت الذي لم يعد فيه الخط المستقيم هو أقرب بعد بين نقطتين. لأن نظرية النسبية العامة تقول أنه لا يوجد خط مستقيم بسبب تحدب الفراغ. إنما الموجود أقواس فقط. وما هو الضمان، لكي لا يدب العفن والفساد بين الطبقة الحاكمة، أو طبقة الحراس كما يسميها أفلاطون.

ومن يحرس الحراس؟ ومن يستطيع مراجعة الحراس، إذا فسدت وأفسدت وأخطأت وضلت الطريق؟ وكيف يمكن إزاحتهم، إذا شاخوا وباخوا وطغوا في البلاد وظلموا العباد، وجاءوا بأبنائهم لكي يرثوا الحكم؟

لكن هل ينقص هذا من قدر أفلاطون؟ يقول الفيلسوف العظيم البريطاني ألفريد نورث وايتهد : "تاريخ الفلسفة، ماهو إلا تعليق وشرح لكتاب جمهورية أفلاطون".

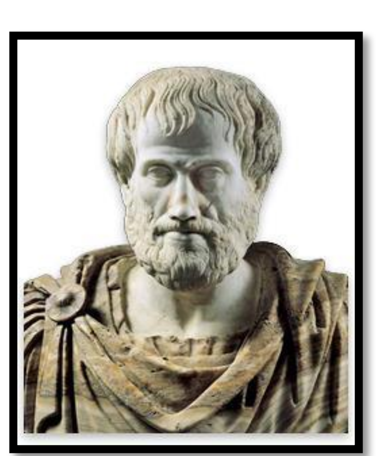
4

أرسطوطاليس المعلم الأول

"إرهاب التاريخ"، عبارة جاءت على لسان أحد فلاسفة الأديان المقارنة. إرهاب التاريخ يظهر عندما تقوم أسنة الرماح وسنابك الخيل بمحو التقدم الحضاري والإنجاز البشري بطريقة إجرامية. حريق مكتبة الاسكندرية أكثر من مرة، وأفول الحضارة المصرية القديمة واندثار الحضارة الهيلينية، خير شاهد على ذلك.

كان ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني السابق يقول أيضا: "سوف يعود العصر الحجري مرة ثانية على أجنحة العلوم اللامعة". هذا يعني أن حركة التاريخ التي لا ترحم، سوف تجعل الإنسان يستخدم التقدم العلمي وعلوم الذرة، في تدمير حضارته بنفسه.

بعد هزيمة إسبرطة لأثينا في نهاية الحرب البيلوبونيزية عام 404 ق م، تفتتت المدن اليونانية ولم تعد دولا مستقلة، وتحولت إلى شرازم وأحياء متنازعة. إلى أن غزاها فيليب المقدوني والد الاسكندر الأكبر عام 338 ق م، وصارت في عهد الابن جزءا من الامبراطورية المقدونية.


أرسطو

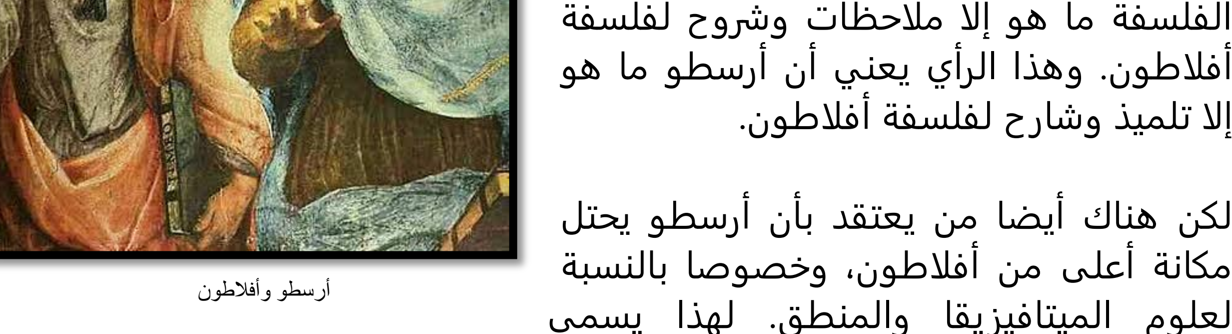
خلال فترة القلاقل والحروب هذه، كتب أفلاطون كتابه حوارات سقراط. وقام تلميذه العظيم أرسطوطاليس بتكوين نظريته الفلسفية.

ولد أرسطوطاليس(أرسطو) بمدينة ستاجيرا بولاية مقدونيا عام 384 ق م. وهي مدينة قديمة تقع بالقرب من مدينة سالونيكا حاليا. جاء أرسطو من عائلة كلها أطباء يخدمون البلاط المقدوني. والده نيكوماخوس، كان طبيبا للملك أمينتاس. في عمر الثامنة عشر، عام 367 ق م، أُرسل أرسطو

إلى أكاديمية أفلاطون في أثينا للدراسة.

ظل أرسطو يدرس في الأكاديمية لمدة عشرين سنة، حتى وفاة أفلاطون عام 347 ق م. حينئذ، ،ترك أرسطو الأكاديمية ومدينة أثينا ليلتحق ببلاط فيليب ملك مقدونيا لتولي مهمة تعليم ابنه، الإسكندر الأكبر.

في عام 335 ق م، عاد أرسطو إلى أثينا مرة ثانية لكي ينشئ مدرسته الخاصة، أسوة بمدرسة أفلاطون "الأكاديمية"، لكن أسماها "الليسيوم". في مدرسته "الليسيوم"، ظل أرسطو يُدرّس ويشرف على الأبحاث العلمية، وقام بكتابة معظم مؤلفاته. عندما مات الاسكندر الأكبر عام 323 ق م، فر أرسطو من أثينا خوفا من غضب الأثينيين ضد المقدونيين. كان يقول، لقد هربت حتى لا يذنب الأثينيين مرتين ضد الفلسفة. مرة بإعدامهم سقراط، ومرة أخرى بقتله هو إن أمسكوا به. ثم وافته المنية في العام التالي.


أرسطو وأفلاطون

كيف نقارن فلسفة أرسطو بفلسفة أستاذه أفلاطون؟ هناك من يتفق مع رأي الفيلسوف البريطاني الفريد نورث وايتهد في أن تاريخ الفلسفة ما هو إلا ملاحظات وشروح لفلسفة أفلاطون. وهذا الرأي يعني أن أرسطو ما هو إلا تلميذ وشارح لفلسفة أفلاطون.

لكن هناك أيضا من يعتقد بأن أرسطو يحتل مكانة أعلى من أفلاطون، وخصوصا بالنسبة لعلوم الميتافيزيقا والمنطق. لهذا يسمي بالمعلم الأول. لأنه أول من درّس علم المنطق، وأول من صاغه علما.

يوجد فريق ثالث يرى أن الفروق بين أفلاطون وأرسطو، لا ترجع إلى تفوق أحدهما في الذكاء على الآخر. إنما ترجع إلى اختلاف شخصية وتربية كل منهما ونظرته للعالم من حوله. لهذا يقال أن الإنسان يولد، إما أفلاطونيا أو أرسطيا.

إذا كنت أفلاطونيا، فأنت تفضل الأشياء النظرية المجردة والعلوم الرياضية والمنطق والحياة السياسية والخلقية المثالية.

أما إذا كنت أرسطيا، فأنت تفضل العلوم العملية وترى التغير الملموس في الطبيعة وفي النفس البشرية، وتثق في العلوم البيولوجية والعلوم التجريبية.

الميتافيزيقا تعني "ما وراء الطبيعة". هو اسم لم يكن مستخدما أيام أرسطو أو من سبقوه من الفلاسفة. إنما الاسم المستخدم كان "الفلسفة الأولى"، أو كما جاء في فلسفة الكندي "المسألة الأولى". الميتافيزيقا هو علم المبادئ الأساسية العامة للعالم. يشمل المعرفة والوجود والأخلاق والجمال،...الخ. العلوم الأخرى تعتبر ثانوية بالنسبة له.

لم تستخدم كلمة الميتافيزيقا إلا منذ نحو نصف قرن قبل الميلاد. عندما نُشرت كتب أرسطو، ووضع باب "البحث في الفلسفة الأولى" بعد باب "البحث في الطبيعة". أي الباب الذي يأتي بعد باب الطبيعة. ومن ثم جاء الاسم "ما وراء الطبيعة" أو "ما بعد باب الطبيعة".

بالنسبة للوجود، يرى أفلاطون عالمين: عالم علوي من "المُثُل"، وعالم آخر سفلي من الأشياء المحسوسة. التي هي بمثابة صور تقليد رديئة من الأصول وهي "المُثُل". المُثُل جمع مثال ويعني الشبيه.

لكن أرسطو يختلف مع أستاذه أفلاطون. يرى أرسطو أن نظرية أفلاطون الخاصة بالمُثُل بها أخطاء. أرسطو يرى عالما واحدا، بدلا من اثنين، نحن نوجد وسطه. كانت حجة أرسطو في رفضه نظرية أفلاطون الآتي:

نظرية أفلاطون لا تبين نشأة العالم وبدايته وكيف وجدت الأشياء في هذا الكون. إضافة عالم آخر لهذا العالم لا تحل المشكلة. إنما تضاعف الموجودات وتزيد الارتباك. هذا يذكرني بنكتة سمعتها منذ مدة تقول:

اثنان من البسطاء أرادا الاتجار في البطيخ. فقاما بشراء حمولة "عربية نقل" بطيخ بسعر البطيخة خمس جنيهات. ووقفوا على ناصية الشارع يبيعون البطيخة الواحدة بخمس جنيهات.

في نهاية اليوم وبعد حساب حصيلة البيع، وجدوا أنفسهم لم يكسبوا شيئا. فقام أحدهم بصفع الآخر على قفاه قائلا، ألم أقل لك خليهم عربيتين. المشكلة ليست في عدد العربات أو عدد العوالم، كما يقول أرسطو.

إذا كان اللون الأبيض له مثال ثابت لا يتغير في عالم آخر كما يقول أفلاطون، فكيف نشأت عنه الأشياء البيضاء في عالمنا هذا، وهي أشياء متغيرة لا تستقر على حال؟

يقول أفلاطون أن المـُثل، وهي أشياء مجردة أزلية، لا تدرك بالحس. لكن أرسطو يعتقد أنها يمكن أن تدرك بالحس.

المـُثل عند أفلاطون، هي بمثابة صفة للأشياء. وصفة الشئ، كما يقول أرسطو، يجب أن تكون فيه لا خارجه. لكن أفلاطون فصل المـُثل عن الأشياء وجعلها عالما مستقلا. وجعل لكل مثال وجودا مستقلا.

العدل والحرارة والبرودة والإنسانية، مفاهيم ليس لها وجود خارجي عن الأشياء نفسها. إنما الموجود هي المفردات. القضيب الحار والشئ البارد والإنسان. الإنسانية لا وجود لها إلا في أذهاننا. ولا توجد مستقلة، إنما توجد في الأفراد. وجود الإنسان يسبب وجود الإنسانية.

ليس بضروري ما ذهب إليه أفلاطون من أن كل مانتصوره لا بد أن يكون له مثل أو صورة موجودة. فإننا قد نتصور ما ليس له وجود خارجي، كجبل من ذهب وبحر من ذئبق.

الفلاسفة المحدثين يفرقون الآن بين العلة والحكمة(الغرض). العلة هي السبب الميكانيكي الذي ينشأ عنه الهدف. البرودة تسبب تحول الماء إلى ثلج. هذه علة ميكانيكية. لكن لا تبين لنا حكمة تحول الماء إلى ثلج.

أما العلة عند أرسطو، فتشمل العلة الميكانيكية والحكمة معا. قال أرسطو إن للعلة أربعة أنواع. تعمل جميعا في كل حالة من حالات الوجود، التي تشمل كل ما تنتجه الطبيعة أو الإنسان، وهي:

1- العلة المادية، هي المادة التي يتكون منها التمثال مثلا. لأنه بدونها، لن يكون هناك تمثالا.
2- العلة المحركة، هي القوة التي عملت على تغيير الشئ وإتخاذه شكلا جديدا. وهنا تكون العلة المحركة هي صانع التمثال.
3- العلة الصورية، هي صورة الشئ أي ما يجعل التمثال تمثالا بدلا من شئ آخر.

4- العلة الغائية، وهي الغرض أو الهدف وهي التمثال نفسة.

ثم قام أرسطو بعد ذلك بدمج العلل الأربع في علتين، أسماهما المادة والصورة. وأطلق كلمة "الهيولي" على المادة. بذلك يكون الهيولي والصورة هما أساس فلسفة أرسطو الميتافيزيقية. وبهما شرح العالم.

كلمات مثل هيولي وميتافيزيقا هي كلمات الناس المثقفة. يمكن استخدامها في الحفلات العامة لإبهار الناس ولفت انتباههم.

الهيولي والصورة لا ينفصلان. كل موجود يتكون من كلاهما، وهما ليسا منفصلين إلا في عقولنا. خواص الأشياء لا وجود لها بمفردها، وهذا عكس ما يقوله أفلاطون.

الصورة عند أرسطو ليست الشكل فقط، إنما تشمل كل الصفات من ثقل ولون ورائحة وجمال وخلافه. أما الهيولي فهو الشئ الذي يمكن أن يوصف بهذه الصفات.

الشئ، بما له من هيولي وصورة، أطلق عليه أرسطو كلمة "الجوهر". ومن الجواهر المختلفة، تتكون الحقيقة. الحقيقة عند أرسطو، تقع في هذا العالم الذي نعيش فيه. وهي تختلف عن الحقيقة عند أفلاطون، التي تتكون من عالمين: عالم علوي هو عالم "المُثُل" وعالم سفلي هو عالم المادة، التي هي تقليد رديئ للمثل.

الحقيقة عند أرسطو تعددية، منازل أو كتب كثيرة مثلا. لكن عند أفلاطون الحقيقة ثنائية. ثنائية لكنها تقترب من المثالية، لأن العالم العلوي فقط عند أفلاطون هو العالم الحقيقي.

الهيولي في ذاته لا صورة له ولا صفة. لذلك يحتاج إلي الصورة لكي تجعله يوصف ويظهر. والهيولي يختلف عن العناصر الكيميائية مثلا. لأن العناصر لها خواصها وصفاتها الخاصة بها، بينما الهيولي لا صفات له ولا يوجد بمفرده.

ويعبر أرسطو عن ذلك بأن الهيولي شئ "ممكن" و عن طريق الصورة يتحول إلى شئ "فعلي"، وقد أطلق على "الممكن"، "ما بالقوة". و"الفعلي"، "ما بالفعل".

الوجود ناتج من تحول "الممكن" إلى شئ بالفعل. وكل حركة أو تغيير هي مجرد التحول من الممكن إلى الفعلى. أو من الهيولي إلى الصورة.

الحركة من الهيولي إلى الصورة تسيرها غاية وهدف. هذه الغاية سابقة في الفكر علي الوجود.

يقول أرسطو أن العالم هو سلسلة انتقال من صورة إلى صورة أرقى منها. والعالم يسير في ارتقاء مستمر تجذبه نحوها قوة الغاية، أو العلة الغائية.

هذه الغاية هي الذروة العليا للموجودات، وهي التى يسميها أرسطو "الله". وهو الموجود حقا لأن له أتم صورة. وكلما اقترب الشئ من كمال الصورة، كان أقرب إلى الحقيقة. الله عند أرسطو غير مجسم. هو السبب في وجود هذا العالم.

أي أن الله هو العلة الغائية المحركة لهذا العالم. وإذا كان الله عقلا، كان هو غاية الغايات. وهو الذي يسعى إليه كل موجود. وإذا كان هو العلة المحركة، كان هو المحرك الأول للعالم ومصدر كل حركة.

العالم لا أول له في الزمن. إنما سبقه الله كما تسبق المقدمة النتيجة. كذلك لا نهاية للعالم. لأنه لو كانت له نهاية لكانت صورة مجردة، والصور المجردة لا وجود لها بمعزل عن المادة.

إذا كان أفلاطون يفترض أن النفس لها معرفة بالمُثُل قبل حلولها في الجسد، فأرسطو يقول بأن المعرفة موجودة في عالمنا هذا وما علينا سوي انتزاعها من الأشياء التي حولنا.

معرفتنا بالعالم من حولنا تبدأ بالحواس. ثم نقوم بتجريد هذه المعلومات حتي نصل إلي المعرفة العقلية. ما من فكرة في العقل إلا وأصلها في الحس. النفس عند أرسطو هي الدافع الداخلي الأول في الكائن. وهي لا تأتي من الخارج. الإنسان عبارة عن مادة هي الجسد، وصورة هي النفس. مثل باقي الكائنات.

لكي يكون الكائن قادرا علي النمو، يجب أن تكون له نفس نامية، ونفس غذائية. هذان النفسان توجدان لدي كل كائن حي. ويوجد لكل كائن حي نفس حاسة. أما الإنسان فله

فوق ذلك نفس عاقلة قادرة على التجريد وإدراك المعقولات وماهية الأشياء وحقيقتها.

ربط أرسطو الأخلاق بالبحث عن أفضل الطرق لتحقيق السعادة. السعادة هي أسمى الغايات وتُطلب لذاتها. بينما أي شئ آخر، مثل الثروة أو السلطة أو العلم ...الخ، إنما تطلب كوسيلة لتحقيق السعادة.


ما هي السعادة؟

السعادة عند أرسطو، ليست حالة أو وضع معين بقدر ما هي فعل وممارسة وعمل. ويركز أرسطو على الاعتدال والوسطية كشرط أساسي لتحقيق السعادة. السعادة هي أن يحقق الإنسان ذاته. وذات الإنسان في عقله. لذلك تكون أحسن حياة هي حياة الفكر والثقافة. لو اجتمع للإنسان الرخاء والعلم وعاش حياة التفكير والتأمل، لحقق كمالا شبيها بكمال الآلهة.

الأخلاق عند أرسطو، كما جاء في كتاب "أخلاق نيقوماخوس"، تعكس نظريته في العلة. كل فعل يحدث لسبب معين. نحن نقوم بفعل شئ ما، لأننا وجدنا هذا الفعل مجدي. مجموع هذه الأفعال ينتج عنه ما يلي:

إما تجعل الإنسان يدور في حلقة مغلقة. مثلا نحن نستيقظ من النوم لتناول الإفطار، للذهاب إلى العمل، لكي نحصل على مرتب، لكي نشتري به الطعام، لكي نتناوله في الفطار، ...الخ. دائرة مقفلة. أو مقولة نحن نأكل لنعيش، ونعيش لنأكل. في هذه الحالات تكون الحياة مملة بدون هدف.

وإما أن يكون للإنسان هدف نهائي نبيل، تقود إليه كل الأفعال. إذا وجد مثل هذا الهدف، علينا العمل على معرفته، وتوجيه كل أفعالنا تجاهه حتى نتجنب بؤس وشقاء الحياة بدون هدف.

بالنسبة لأرسطو، الهدف النهائي النبيل الذي يجب أن نسعي إليه جميعا هو السعادة. طلب السعادة من أجل السعادة، وليس من أجل شئ آخر. لكن في نفس الوقت، علينا أن نفهم معني السعادة وكيفية الحصول عليها، بدلا من الاكتفاء بالقول بأنها شئ جيد أو نبيل.

لكي يوضح لنا أرسطو معني السعادة، طرح علينا هذا السؤال: ما هي وظيفة الإنسان في هذه الحياة؟ بالنسبة للدين الإسلامي، الإجابة هي: "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون".

لكن أرسطو يقول بأن وظيفة الإنسان في هذه الحياة هي "عمل الخير والسمو بالروح والالتزام بالقيم الخلقية وفقا لمبادئ عقلانية".

لكن ماذا يعني أرسطو بالقيم الخلقية أو الأخلاق؟ القيمة الخلقية عند أرسطو تنقسم إلى قسمين: قيمة عقلية وقيمة سلوكية. وكلاهما مطلوبتان للحصول على السعادة.

القيمة العقلية تأتي عن طريق الوراثة والتعليم. والقيمة السلوكية، تأتي عن طريق التقليد والتدريب والعادة. والعادة تشكل طباع الشخص.

إذا كانت طباع الشخص تتسم بالاعتدال والوسطية، فهي طباع خلقية نبيلة. فمثلا، عند مواجهة الخطر، الإسراف في مواجهة الخطر يعتبر تهورا. وأيضا الإسراف في الخوف يعتبر جبنا.

لكن الوسطية بين التهور والجبن هي الشجاعة، وهي القيمة النبيلة المطلوبة. أيضا الكرم، هو وسط بين الإسراف والبخل، وهكذا.

القيمة العقلية، الموروثة والتي تأتي عن طريق التعليم الجيد (الفلسفة والحكمة)، ضرورية لكي تجعل حكمنا على الأمور صواب بدون تعارض. وتجعلنا نفهم معني الحياة، ونحياها بطريقة أفضل.

الفن عند أرسطو، هو اقتناص لروح أو لصورة الأشياء، وليس تقليدا للأشياء نفسها. مثل المرآة التي قد تظهر القبيح جميلا أو العكس. الجمال هو الوحدة وتعاون الأجزاء مع بعضها داخل الكل .

الوحدة في المسرحية هي وحدة العمل. أي أن القصة يجب أن تكون عملا موحدا. على الأعمال الأخرى في المسرحية أن ترقى بالقصة الرئيسية وتوضحها. ولكي يكون العمل الفني رائعا، وجب أن يكون الموضوع متسما بالنبل والبطولة.

أسهم أرسطو إسهامات هامة في الفلسفة والكثير من العلوم الأخرى. ولا تزال أعماله في الميتافيزيقا والأخلاق والمنطق وعلم الجمال، صروحا جبارة تمثل عظمة الفكر الإنساني في أوجها.

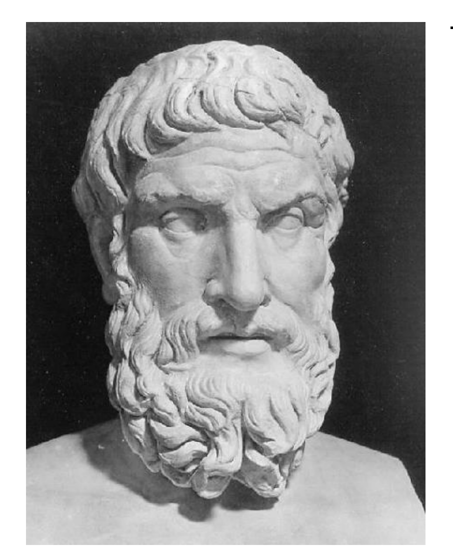
فهل تصدق أن هذا الفكر كان موجودا قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون. وبالله عليك، قارن هذا المستوى الفكري بما يدور في بلادنا اليوم ونحن في القرن الواحد والعشرين.

5

الفلسفة الهيلينية

بعد موت أرسطو، دخلت الفلسفة اليونانية ما يعرف بالعصر الهيليني. وهو عصر يتصف بانحدار الثقافة والفكر. المدن اليونانية التي كانت كل منها بمثابة دولة مستقلة، أصابها الوهن ولم تتمكن من حل مشاكلها السياسية الملحة، ولم تستطع أن تتوحد تحت لواء دولة كبيرة. ذلك بسبب الحرب البيلوبونية وانتشار الأمراض والوباء.

في البداية، سقطت المدن اليونانية تحت نير الحكم المقدوني. بعد موت الاسكندر الأكبر، أصبحت تابعة للامبراطوية الرومانية الوليدة. الكثير من الأفكار الفلسفية لتلك الفترة، بدأت في اليونان، لكنها وجدت لها صدى عظيما في روما. هذا ينطبق على الفلسفة الأبيقورية والفلسفة الرواقية.



أبيقور

تنسب الفلسفة الأبيقورية إلى الفيلسوف أبيقور (341 – 270 ق م). إذا كانت عبارات "العربدة" و"الإغواء" و"الإفساد" و"النهم" تنسب إلى الفلسفة الأبيقورية، فهذا يرجع إلى شروح وتفسيرات الرومان، وليس لفلسفة أبيقور.

أبيقور نفسه كان يحيا حياة اعتدال. يأكل الخبز والجبن والزيتون. ويشرب القليل من النبيذ. ينام في أرجوحته الشبكية. ويستمتع بالحديث مع أصدقائه بينما هو يتنزه في حديقته. توفي بكبرياء وشجاعة بعد مرض عضال مزمن أصابه.

تعتمد الفلسفة الأبيقورية على الفلسفة المادية

لديموقريطس. التي تقول إن كل الأشياء مكونة من ذرات صغيرة لا تنقسم. لكن أبيقور لم يكن كغيره من الفلاسفة في عصره، مهتما بالعلوم، بقدر اهتمامه بالبحث عن طبيعة الحياة الجيدة.


البحث عن السعادة

منذ أيام أرسطو، طبيعة الحياة الجيدة أصابها انحدار ونكسة. لم تعد تتطلب النشاط والعمل السياسي وتحمل المسؤولية وتثقيف النفس. الفرد أصبح عديم القيمة داخل الكتل الغفيرة من البشر ، في ظل البيروقراطية المتحكمة للإمبراطورية الرومانية.

أبيقور، مثل أرسطو من قبله، كان يعتقد بأن الهدف من الحياة هو السعادة. لكن السعادة بالنسبة لأبيقور هي المتعة. لا يجب أن نقوم بأي عمل إلا إذا كان يؤدي إلى متعة معينة. العمل الذي يأتي من وراءه الهم والغم، يجب رفضه والابتعاد عنه.

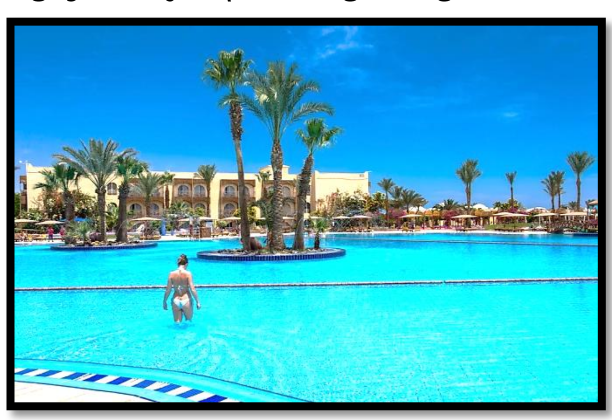
هذا مما حدا بأبيقور إلى بحث أنواع المتعة. هنا نوعان من الرغبة. وبالتالي، يوجد نوعان من المتعة. النوع الأول من الرغبة، هو الرغبة الطبيعية. والرغبة الأخري هي الرغبة الخادعة.

الرغبة الطبيعية نوعان:
رغبة ضرورية، مثل الرغبة في الطعام والشراب والنوم.
ورغبة غير ضرورية، مثل الرغبة في الجنس.

هناك أيضا الرغبة الخادعة: مثل الرغبة في لبس الملابس الفاخرة والطعام المستورد من مطاعم باريس.

الرغبة الطبيعية الضرورية، هي الأسهل ولابد من تحقيقها. ينتج عنها متعة كبيرة. لكن الرغبة الخادعة، ليس من الضروري تحقيقها. لأنها رغبة ليس لها حدود ونهاية طبيعية. فهي تمثل هاجسا يتملك الشخص، وتؤدي إلى عواقب وخيمة.

الرغبة في ممارسة الجنس مثلا، هي رغبة طبيعية. لكن يمكن التحكم فيها. تُمارس بهدف المتعة التي تصاحبها، وتستلزم رفيقا آخر. لكن للأسف العلاقة مع الطرف الآخر معقدة. تنتهي في الغالب بالألم والشجار وكسر الخاطر.

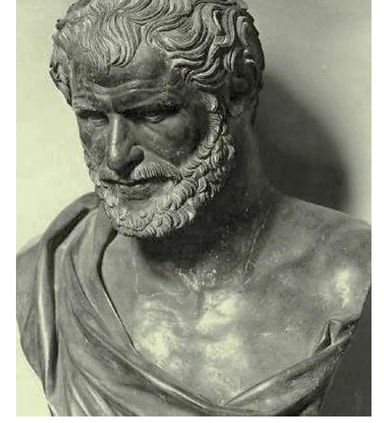

توفير الوقت للاسترخاء

أحد الرغبات الطبيعية الضرورية التي بحثها أبيقور بإسهاب، هي الرغبة في الاسترخاء والاستجمام، التي نطلبها في الأجازات بالذهاب للمصايف والبلاجات.

الإنسان السعيد هو الإنسان الذي يحقق أكبر قدر من المتعة، عن طريق، إشباع رغباته الضرورية بإعتدال، والتحكم في رغباته الغير ضرورية. الإنسان السعيد هو الذي يوفر لنفسه الوقت الكافي للاسترخاء بعيدا عن القلق وهموم الحياة اليومية.

نلاحظ هنا أن أبيقور قام بتعريف السعادة بطريقة سلبية. أي بالبعد عن الآلام، أو تخفيف أسبابها. ولم يقع في فخ المطالبة بتحقيق الشهوات الحسية طلبا للذة في حد ذاتها.

لكن المشكلة في تعريف أبيقور السلبي للسعادة، هو أنه يجعل الموت، وهو الامتناع الكلي عن الآلام، أفضل من أي حياة يمكن أن يحياها الإنسان.

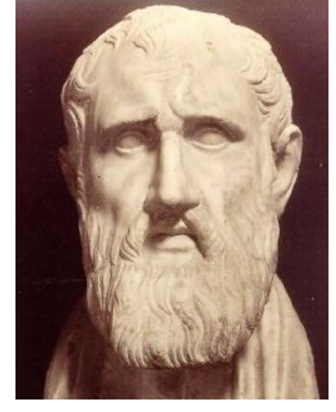

ديموقريطس

هذا ما يقوله سيجماند فرويد بالضبط. غريزة الرغبة في الموت، كامنة في العقل الباطن للإنسان (ثاناتوس). وهي غريزة تقبع جنبا إلى جنب مع غريزة حب الحياة (أيروس). غريزة الموت هذه، هي التي تدفع الناس إلى الانتحار.

هذا أمر متناقض. لأن أبيقور يدعي أن فلسفته تتغلب على الخوف من الموت. فلسفة ديموقريطس المادية أوحت إلى أبيقور بأن الموت ما هو إلا تعطيل للحواس وغياب عن الوعي.

لا توجد حاسة للإنسان تستطيع أن تشعر بالموت. لذلك لا يجب الخوف منه. عندما نكون على قيد الحياة، لا يوجد هناك موت لكي نشعر به. وعندما نموت، لن نكون علي قيد الحياة لكي نشعر به أيضا.

بعض الرومان أتباع أبيقور، قاموا بتفسير المتعة عند أبيقور تفسيرا مختلفا. المتعة عندهم شئ إيجابي مرتبط باللذة. هذا هو السبب الذي جعل اسم أبيقور يرتبط بمذهب المتعة في أذهان الناس. بينما أبيقور نفسه، بريء من هذه التهمة.


زينو

أفكار أبيقور لا تمثل حركة فلسفية كبيرة. بالرغم من ذلك، كانت له أتباع في كل من اليونان وروما لعدة قرون. أشهر تلاميذه كان لوقريطس الروماني.

كتب لوقريطس في القرن الأول قبل الميلاد، أشعارا وقصائد طويلة عن طبيعة الأشياء. يشرح فيها ويبسط أفكار أستاذه. خلال لوقريطس، جاءتنا أفكار أبيقور.

مدرسة فلسفية أخري هامة ظهرت في الفترة الهيلينية، هي الفلسفة الرواقية. تأسست في اليونان على يدي زينو القبرصي (334 – 262 ق م)، ثم انتقلت إلى روما. كان زينو يحاضر تلاميذه من أروقة، وتعني الشرفات. لذلك سميت بالفلسفة الرواقية. يعني بالبلدي، فلسفة البلكونات والشرفات.


رواق

الفلسفة الرواقية، مثل الفلسفة الأبيقورية، لها
جذورها في الفلسفة المادية قبل سقراط. خصوصا في صبغتها الرومانية. لا تهتم بالفيزياء، أو بكيف تعمل قوانين الطبيعة. إنما جل إهتمامها بالإنسان وسلوكه.

أشهر الفلاسفة الرواقيين ثلاثة. هم:


فلاسفة رواقيون

سينكا (4 ق م- 65 م)، عبد اكتسب حريته بنفسه، وكاتب دراما، وصل إلى أعلى المناصب السياسية. ومن أقواله: "الموت أفضل من العبودية، أو من الحياة الرديئة".

إبيكتيتوس (نهاية القرن الأول الميلادي)، هو أيضا عبد اكتسب حريته بنفسه.

ماركس أورليوس (121 – 180م)، امبراطور روماني. العجيب هنا أن نجد عبدين وامبراطور يشتركون في نفس الفلسفة التي تدعو إلي الزهد والتقشف. قد يكون الزهد ومغالبة النفس عند الامبراطور أسهل من الزهد بالنسبة للعبد. لأن الزهد فيما نملكه، أسهل وأخف على النفس من الزهد في ما لا نملكه.

الفلسفة الرواقية تساوي بين الفضيلة والمعرفة. هناك حالة من المعرفة، متي تم الوصول إليها، بلغ الإنسان السعادة وأعلى درجات الرقي. حالة المعرفة التي ينشدها الرواقيون ليس لها علاقة بالشهادات والأجازات العلمية التي نطلبها اليوم في معاهدنا العلمية. إنما هي نوع من الحكمة لا يعرفه إلا الفلاسفة والمفكرون.

الإنسان لا يجب أن يكف عن طلب العلم والحكمة طيلة حياته. حتي يصل إلى حالة التنوير والعلاء المنشودة. فعليه أن يحرر نفسه من متطلبات الحياة وخصوصا ما له علاقة بالعواطف، مثل الحب والكره والحقد والرجاء وخلافه.

الرواقي رجل حكيم، متقشف. قام بمجاهدة النفس وتخليصها من كل أسباب الشقاء والبؤس. الرواقي ليس له اهتمام بأي شئ يجلب الألم أو الخوف أو حتي الأمل والفرح.

لكن، ما هو حجم الفلسفة الرواقية؟ هي فلسفة تعتمد على فكرة أرسطو التي تقول بأن الخير والصواب يأتيان من العمل وفقا لطبيعة الإنسان. يضيف الرواقيون أن هذا يتطلب العمل وفقا للطبيعة نفسها، والتي يعتبرها الرواقيون شيئا مقدسا.

الطبيعة تتصف بالكمال. لذلك يمكن للإنسان أن يصل إلى الكمال، إذا تعود العيش في توافق وانسجام مع الطبيعة. هذا يعني أن الإنسان عليه أن يوافق رغباته مع حركة الحياة والكون من حوله. عملية قطع الأشجار وتلوث الأنهار والبرك وتلوث الجو والسحب وتزوير الانتخابات، هي بالتأكيد أعمال ضد الطبيعة وسير الحياة.

إذا كانت الحرية تعني أنك تستطيع فعل ما تريد، فالطريق الوحيد لكي نصبح أحرارا هي أن نريد ما تريده الطبيعة، وما يتوافق مع الكون. أي تتشكل رغباتنا في اتجاه الزرع والمحافظة على البيئة وإنقاذ الأرواح وتضميد الجراح وإشباع الجائع...الخ.

الأغبياء والحمقى فقط، هم الذين يحاولون فرض جشعهم وأنانيتهم على باقي الناس، وعلي الحياة والحقيقة حولهم. لأن هذا يؤدي إلى شقاء الفرد وعبوديته.

يجب أن نقاوم الرغبة في الحصول على كل ما نريده ونشتهيه. لكن، علينا أن نعوّد أنفسنا على حب ما نملك والتمتع به. طلباتنا يجب أن تكون في حدود قدراتنا وإمكانياتنا، حتي لا تتراكم علينا الديون ويمكننا أن نتحرر ونكون سعداء.

خلال الفترة التي انتشرت فيها الفلسفة الرواقية إنتشارا كبيرا، ظهرت المسيحية إلى السطح كفكر ديني جديد. بالرغم من عدم وجود نظام فلسفي متكامل للمسيحيين آنذاك، إلا أن دعوتهم كانت منافسة للفكر الرواقي السائد في ذلك الوقت.

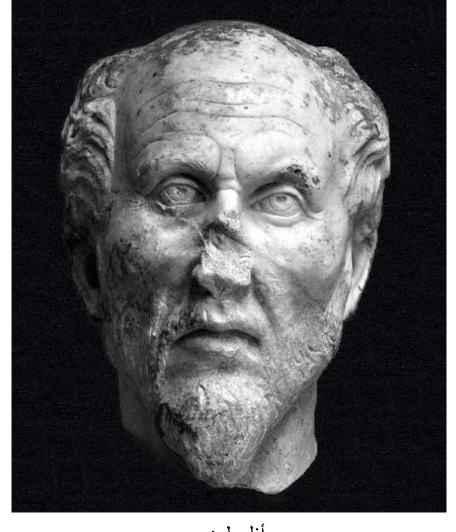
كانت المسيحية في بداية انتشارها تدعو هي الأخري إلى التقشف والزهد. لكنها كانت تختلف عن الرواقية بالنسبة لقضيتي الانتحار والامتثال للسلطة. الرواقية تجيز الانتحار، وتسمح في حدود ضيقة بالامتثال للسلطة، لكن المسيحية ترفض كلاهما.

إبيكتيتوس، الفيلسوف الرواقي، كان يقول: "لا تقسم. وإن كان لا بد، فالقليل من القسم بقدر الإمكان". بعكس المسيحيين الذين كانوا يفضلون الشهادة علي القسم بألوهية الامبراطور الروماني.


ماركوس أورليوس

بعد موت الامبراطور الرواقي وآخر الأباطرة الصالحين، ماركوس أورليوس، مرت فترة طويلة تخللتها الثورات والفوضي. إنحطت فيها القيم والفنون والعلوم. وأحس الناس فيها بالضياع، مما دفعهم إلى التمسك بالدين الجديد.

الفكر الفلسفي الحقيقي الذي كان منافسا للمسيحية في القرن الثالث الميلادي، كان نوعا من التصوف الأفلاطوني يعرف بالأفلاطونية الجديدة. وكان من أتباعه بلوتينوس (204 – 270م)، المعروف عند العرب بأفلوطين.


أفلوطين

ولد أفلوطين في مدينة أسيوط بمصر وتعلم في الإسكندرية، ثم انتقل إلى روما. أصبح معلما ذائع الصيت يلقي دروسه بلا أجر. كان يحيا حياة روحية عميقة ولا يؤمن بالطقوس العملية في الدين. وكان محببا الى النفوس مقربا من العظماء. كان يسعى لبلوغ حالات الوجد.

حياته حياة زهد وتقشف لتطهير الروح من أدران الجسد. لم يكن ينعم بالنوم إلا بقدر ما تضطره إليه الحاجة. وكان يأكل من الطعام ما يقيم أوده. حرم على نفسه أكل اللحوم. تنازل عن كل ثروته، وفك رقاب من كان يملك من الرقيق. وكان يصوم يوما بعد يوم. وصل إلى حالة الوجد أربع مرات.

صاحب مذهب الأفلاطونية الجديدة. كتب التاسوعات، وهو تدوين للمناقشات الحية، شرح فيه مذهبه. الذي يقول بأن الخير الأوحد أو الله، تخرج منه الموجودات تباعا عن طريق الفيض. إلى أن نصل إلى العالم المحسوس الذي هو خداع وشر. الهدف الأسمي للنفس، هو الوحدة مع الخير الإلهي.

الفلسفة الإسلامية، برزت من الجانب العقلي اليوناني لفلسفة أفلوطين. لكن الحياة الروحانية والاتحاد بالواحد والحب في فلسفة أفلوطين، نراه واضحا في التصوف الإسلامي والاتحاد بالله والعشق الإلهي ...الخ. لقد كان لأفلوطين والأفلاطونية الجديدة أثر بالغ في الكثير من عقائد إخوان الصفا وغيرهم من الفرق الدينية الإسلامية.

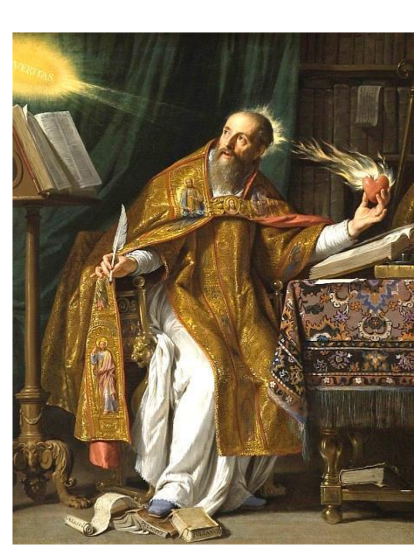
6

الفلسفة في القرون الوسطى


الامبراطور قسطنطين

في عام 313م، اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الديانة المسيحية، وباتت الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة الرومانية. في الوقت الذي لم يكن فيه عدد المؤمنين بالمسيحية بين الرعايا الرومان لا يتجاوز عشرة في المئة.

خلال القرنين التاليين، اتجه رجال الدين المسيحي إلى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة كمصدر فكري يدعمون به دينهم الجديد. أول هؤلاء هو الفيلسوف المسيحي أوغسطين.

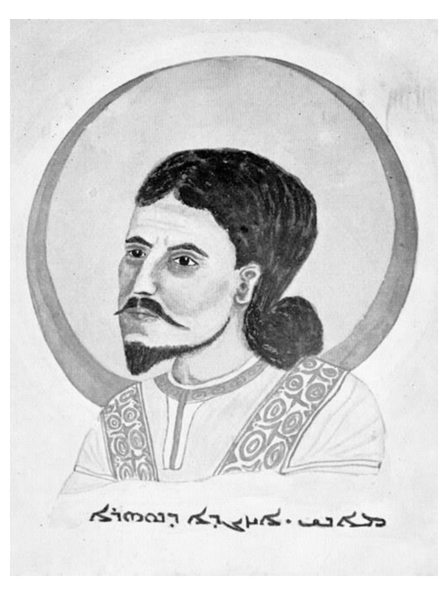

أوغسطين

ولد أوغسطين (354 – 430م)، في طاغشت من أعمال نوميديا (الجزائر اليوم). درس في مدرسة المدينة، ثم انتقل إلى قرطاجة وروما وميلانو. ارتد عن المسيحية في صباه، وتنقل بين الثقافة اليونانية والثقافة المانوية والثقافة اللاتينية، وكان يحضر حلقات الأفلاطونيين المحدثين أتباع فلسفة أفلوطين.

كتب في اعترافاته سنة 400م، إن التعاليم الأفلاطونية هي التي مهدت لاعتناقه المسيحية. فقد جعلت موضوعي الإيمان والعقل، المحورين

الأساسيين في حياته. إنه هو صاحب المبدأ الذي يقول "أومن كي أعقل". عاش راهبا كثير التنقل. يكتب ويراسل وينقد المانوية ويدافع عن المسيحية.

المانوية ديانة منسوبة إلى ماني الفارسي في القرن الثالث الميلادي، والتي تقوم على معتقد أن العالم مركب من أصلين قديمين. أحدهما النور والآخر الظلمة. لذلك جاءت فلسفة القديس أوغسطين خليطا من عناصر مانوية وأخرى مسيحية، تري الحقيقة في ضوء الصراع بين الضياء، الذي يمثل الخير، والظلام الذي يمثل الشر. الصراع بين الضياء والظلام أو الخير والشر، ينتج عنه هذا العالم.



ماني الفارسي

الروح تمثل الخير، والجسد يمثل الشر. وكان القديس أوغسطين، عندما كان يعتنق المانوية، يرجع كل الشرور إلى عناصر خارج الإنسان نفسه.

لكن القديس أوغسطين، سرعان ما أصبح غير راض عن هذا التفسير الذي يبرر وجود الشر. لذلك ذهب يبحث عنه في الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي تهتم بالأمور الغير مادية. من الأفلاطونية الجديدة، جاءت فكرة أن الشر ليست له طبيعة حقيقية مثل الخير، إنما هو مجرد نقص أو غياب للخير أو للفعل الحسن.

كلما زاد الخير، كلما زادت حقيقة الشئ. وكلما قلت حقيقة الشئ، كلما ازدادت طبيعة الشئ سوءا. مثل نقص الكالسيوم يسبب تسوس الأسنان. الحفرة ليست شيئا ما. إنما هي غياب لوجود التراب. الخطيئة، ليست شيئا في حد ذاته، إنما مجرد غياب الخير أو غياب الفعل الحسن.

في عام 388م، بعد مرور أوغسطين بتجربة روحية، تحول إلى الديانة المسيحية. وفي عام 396م، صار أسقفا لمدينة هيبو في الجزائر حتي وفاته عام 430م.

خلال هذه الفترة، كانت المسيحية غير واضحة المعالم في أذهان الناس، لم تتضح شخصيتها بعد. كان القديس أوغسطين، يكرس كل طاقته لمحاربة البدع التي كانت



بيلاجيوس

موجودة في عصره مثل الآريوسية والمانوية والبيلاجيوسية، نسبة إلى الراهب البريطاني بيلاجيوس في القرن الرابع، التي تنكر الخطيئة الأصلية وتقول بحرية الإرادة التامة وتحد من القدرة الإلهية.

لذلك وجد أوغسطين نفسه يمشي على حبل مشدود. من جهة، عليه أن يهاجم المانوية لأنها تقلل من شأن حرية الإرادة للإنسان. من جهة أخرى، عليه أن يهاجم البيلاجيوسية التي تقول العكس. وهي قضية، هل الإنسان مسير أم مخير؟ التي قسمت العالم الإسلامي إلى فرق وملل ونحل وأحزاب، سالت بسببها الدماء وقتل من أجلها العلماء والأبرياء.

هنا ظهرت للقديس أوغسطين مشكلة فلسفية عميقة. وهي:
إذا كان الله سبحانه يعرف المستقبل، فالمستقبل سوف يتحقق وفقا لهذه المعرفة. إذا كان الله يعلم أن هذا الرجل سوف يرتكب جريمة قتل في اليوم الفلاني، فأين حرية الإرادة هنا بالنسبة للقاتل. مهما فعل أو تاب أو غير من رأيه، سوف ينتهي به الأمر إلى قتل الضحية.

هذا يعني أنه ليست هناك حرية إرادة للإنسان. وفقا لذلك، هو ليس مسؤولا عن أعماله. ويكون عقاب الناس عن خطاياهم عملا غير أخلاقي. إذا كان الله يعلم مسبقا أن يهوذا سوف يخون السيد المسيح ويتسبب في صلبه، كيف يرسله إلى جهنم في هذه الحالة؟

كيف استطاع أوغسطين تجنب هذه المشكلة المحيرة؟ فعل ذلك باستخدام بعض الحجج والفروض الذكية. منها:

إن الله حاضر أبدي، ليس له ماضي أو مستقبل. كل شئ بالنسبه له سبحانه يحدث في آن واحد. القول بأن الله كان يعلم منذ ملايين السنيين بأن يهوذا سوف يخون المسيح، هو خطأ الإنسان في الاعتقاد بأن الله سبحانه داخل نطاق الزمن. في الواقع، الله خارج نطاق الزمن. هذا ما نعنيه بأنه أزلي دائم الوجود. نحن نأتي ونروح ونولد ونموت، ولكن الله باق دائم أزلي.

أيضا، جاء أوغسطين بفكرة أن حرية الإرادة تعني حرية الإنسان في أن يفعل ما يريد. معرفة الله المسبقة بما سوف يفعله يهوذا، لا تسبب الفعل نفسه. مثل علم المدرس المسبق برسوب التلميذ. علم المدرس لا يتسبب في رسوب التلميذ. إنما السبب في الرسوب يأتي من درجة تحصيل التلميذ وعدم فهمه لمواد الدراسة.

هذه طريقة تفكير القديس أوغسطين. فلسفته تنصب على علاقة الرب بعبيده. وكانت كتاباته موجهة إلى عالم مضطرب الفكر والثقافة والأخلاق.

النظام القديم والفلسفة القديمة التي أسسها الإغريق والرومان كانت منهارة في ذلك الوقت. في الواقع، عندما كان أوغسطين يمر بمرحلة الشيخوخة في مدينة هبو بشمال أفريقيا، كان البربر الفاندال يغيرون على المدينة ويقومون بحرقها. إلا أنهم أبقوا على كتدرائية المدينة التي كان يوجد بها القديس أوغسطين إكراما واحتراما له.

وكأن النار التي قضت على مدينة هبو، هي نفسها النار التي قضت على الامبراطورية الرومانية. بذلك، يسدل الستار على الفترة الكلاسيكية من تاريخ البشرية، ويبدأ الليل الطويل والسبات العميق للعصور الوسطى حالكة العتمة.

بموت أوغسطين، سقطت الفلسفة الغربية. تآكلت وباتت كعصف مأكول. استمر هذا التدهور 400 سنة. كانت بمثابة ليل حالك للروح الغربية. ويكن ليلنا طويلا طويلا. ربي من أين للزمان صباه. الرومان لم يستطيعوا السيطرة على أطراف امبراطوريتهم. قبائل التيوتان من الغابات الشرقية تواصل الإغارة على الامبراطورية الرومانية القديمة.

سقطت روما مرتين خلال 35 سنة. الأباطرة البرابرة الجدد لهم أسماء جرمانية بدلا من الأسماء اللاتينية للأباطرة السابقين. لم يكونوا مهتمين بالثقافة والعلوم المعروفة فى الزمن القديم. الفلسفة كما كان يعرفها الإغريق والرومان، أصبحت في خطر ومهددة بالفناء.

خلال هذا الليل الطويل الحالك، كانت شموع فلسفية قليلة تتوهج وهي تكابد عصف الريح فى بقايا أطراف الامبراطورية الرومانية المحتضرة. بعض الصوامع المعزولة في إيطاليا، وأسبانيا، وبريطانيا وبعض الجزر في البحر الإيرلندي. هذه

الصوامع، أنتجت ما يعرف بالموسوعيين. الذين قاموا بتجميع وحفظ ما كان يصلهم مما تبقى من الحكمة والفلسفة الكلاسيكية.


بويثوس

من هؤلاء الموسوعيين ثلاثة. هم بويثوس (480-525م) في إيطاليا، إيزيدور (570-636م) في إسبانيا، وبيدي (674-735م) في إنجلترا. جاء في موسوعة إيزيدور تحت حرف الألف، موضوع عن النظرية الذرية، وموضوع آخر عن شعب الأنتيبود الذين كانوا يسكنون المنطقة الصخرية في جنوب أفريقيا. وكان لكل منهم في كل رجل إصبع قدم خارج القدم، لكي يساعدهم في المشي بين الصخور.

بعد أربعة قرون من الصمت المطبق، بدأت تظهر أولى براعم فلسفية في أعمال جون الإيرلندي، جون سكوتوس إريجينا (810-877م). دعي جون إلى مدرسة الملك شارل، الملقب بالأصلع، لترجمة كتاب سودو-كريشيان من اليونانية إلى اللاتينية. وهو كتاب قام بتأليفه أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة. أما كتب جون نفسه ومنها، "حول تقسيم الطبيعة" و"العروض التراتبية السماوية للقديس ديونيسيوس"، فقد كانت متأثرة بالمسيحية والأفلاطونية الجديدة.


جون سكوتوس إريجينا

كان هدف جون هو فهم الحقيقة. وكان يسميها الطبيعة. أول شئ قام به، هو التفرقة بين الأشياء الموجودة، والأشياء الغير موجودة. الأشياء الموجودة أو الحقيقية درجات. هناك شئ موجود حقيقي، أكثر حقيقة من شئ موجود آخر. فمثلا، الشجرة التي تنبت أمام منزلنا، لأنها تتغير بإستمرار وتمرض وتموت، هي

أقل درجة بالنسبة للوجود من الشجرة "المُثل" التي جاءت في فلسفة أفلاطون.

الأشياء التي يمكن فهمها أو استيعابها بالعقل الإنساني، هي الأشياء الموجودة الحقيقية، والتي يسمى الكامل منها "المُثل" في فلسفة أفلاطون. ما عدا ذلك غير موجود.

جاء في قمة تقسيمات جون للحقيقة أو الوجود، مفهوم الوجود الأعلى، أو ما وراء الوجود. الوجود الأعلى لايمكن للعقل البشري أن يستوعبه. واضح أن جون كان يعني بالوجود الأعلى أو الحقيقة العليا هي الله نفسه.

قام جون بتقسيم الطبيعة أو الوجود إلى أربعة أقسام، خالق ومخلوق كالآتي:

1- وجود يَخلق ولا يُخلق. وهو الله
2- وجود يَخلق ويُخلق. وهو "المُثل" عند أفلاطون
3- وجود لا يَخلق ولكنه يُخلق. وهو العالم المادي الذي نعيش فيه
4- وجود لا يَخلق ولا يُخلق. وهو الله

الخلق هنا بمعنى السبق في الوجود. الله يخلق الإنسان. لأن الله سابق وجوده على الإنسان. لذلك فالله هو البداية والنهاية، الأول والآخر. من الله جاء العالم، وإليه يعود. كل هذا شبيه بفكرة وحدة الوجود، كما جاءت في الأفلاطونية الجديدة وتعاليم أفلوطين.

كان يقول جون سكوتوس إريجينا، إن الجنة لن يدخلها أحد، إلا عن طريق الفلسفة. وكان يقول أيضا: إبحث عن الله في كل شئ، فهو موجود في كل مكان. كل شئ يأتي منه ويعود إليه.

عندما نستخدم العقل، لا يكون هناك إيمان، كما يقول جون سكوتوس. هو هنا يؤكد مقولة توماس الإقويني: "لا يمكنك معرفة شئ ما، والإيمان به في نفس الوقت". فأنت إما أن تعرف، أو تؤمن.

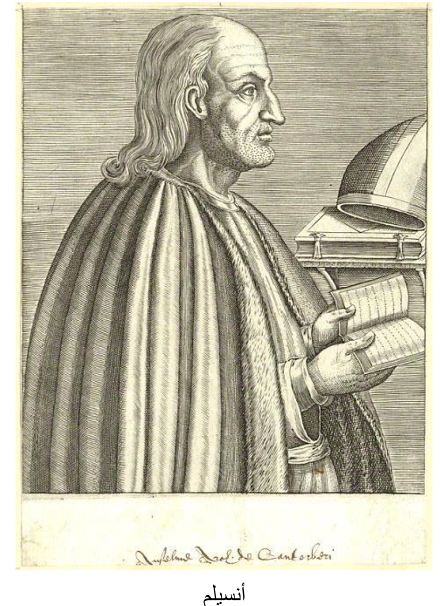
وظيفة العقل، هي فهم ما يُوحى به ويقوم العقل بشرحه. قد تكون السلطة هي مصدر المعرفة. ولكن يبقى العقل، هو الهادي الذي تقاس به كل السلطات. لم يكن جون سكوتوس يتخيل وجود إيمان يتعارض مع العقل.

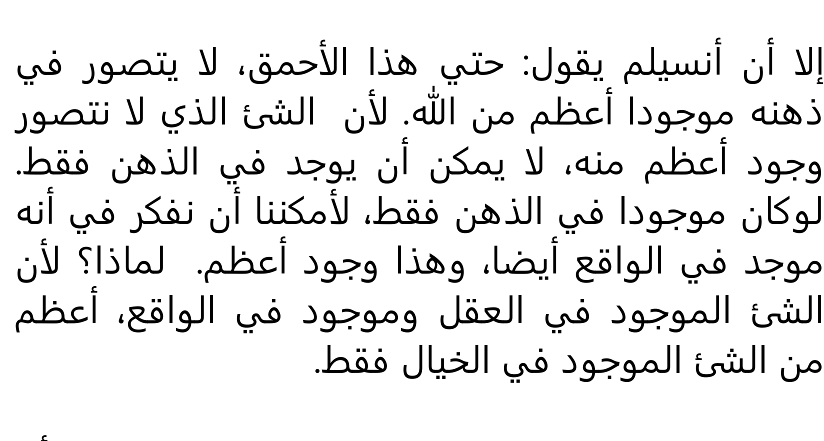
إختفى جون سكوتوس إريجينا من الوجود عام 877م. وبالرغم من محاولات الدفاع عن فلسفتة في تقسيم الطبيعة أو الوجود إلى درجات، إلا أن البابا هونوريوس الثالث في

عام 1225م، قام باتهامه بالهرطقة والخروج عن الكنيسة الكاثوليكية، وحرق كتبه. وبذلك ينتصر الفكر الدوجماتي مرة أخرى على العقل.

لم يأت بعد جون سكوتوس أريجينا من يستطيع بناء صرح فلسفي عظيم لمدة 350 سنة. منذ القرن التاسع حتى الثالث عشر، كانت الفلسفة تمارس في هيئة جهود متفرقة، لا تكون نظاما فلسفيا متكاملا مثل فلسفة أوغسطين أو جون إريجينيا، أو توماس الأقويني في القرن الثالث عشر. وكانت هذه البؤر الفلسفية المتفرقة، تنحصر في الفتاوي والأمور الدينية وقواعد اللغة.

من هذه الجهود المتفرقة، برهان وجود الله للقديس "أنسيلم" (1033-1109م). بدأ أنسيلم بقصة الأحمق، كما جاءت في سفر نشيد الإنشاد (1:55)، الذي يقول في قرارة نفسه أن الله غير موجود.


أنسيلم



إلا أن أنسيلم يقول: حتي هذا الأحمق، لا يتصور في ذهنه موجودا أعظم من الله. لأن الشئ الذي لا نتصور وجود أعظم منه، لا يمكن أن يوجد في الذهن فقط. لوكان موجودا في الذهن فقط، لأمكننا أن نفكر في أنه موجد في الواقع أيضا، وهذا وجود أعظم. لماذا؟ لأن الشئ الموجود في العقل وموجود في الواقع، أعظم من الشئ الموجود في الخيال فقط.

في هذه الحالة، يكون الموجود الذي لا نستطيع أن نتصور أعظم منه، هو نفسه ما نستطيع أن نتصور أعظم منه، وهذا تناقض. بذلك، يكون ما لا نستطيع أن نتصور أعظم منه، يوجد في الذهن والواقع أيضا. إذن الله موجود.

ولكي نفهم منطق أنسيلم، دعنا نتصور في أذهاننا أعظم أو أكمل وجود يمكن أن نتخيله. وليكن الله في مفهوم الديانة المسيحية. أي أنه يبلغ الكمال في العلم والقوة والخلود ...الخ.

الآن نسأل أنفسنا، هل هذا الإلهه الذي نتخيله موجود فقط في عقولنا؟ إذا كان موجودا فقط في عقولنا، فهو لن يكون أكمل أو أعظم شئ يمكن أن نتصوره. لماذا؟

لأن الإله الموجود في العقل والموجود أيضا في الواقع، سوف يكون أعظم من الإله الموجود في العقل فقط. لهذا يمكننا القول أنه لو استطعنا أن نتخيل أعظم شئ أو إله في عقولنا، هذا الإله لابد أن يكون موجودا أيضا في الواقع.

طبعا هذا المنطق لا يخلو من العيب. أحد معاصري أنسيلم، الراهب جونلون، قام بالاعتراض على منطق أنسيلم بالآتي:

1- من المستحيل تصور شئ عظيم، لا يوجد ما هو أعظم منه. هذا شئ محير للعقل.
2- إذا كان منطق أنسيلم صحيح، فبمجرد تصور جزيرة استوائية في غاية الكمال، يترتب عليه وجود هذه الجزيرة.

فيجيب عليه أنسيلم ببساطة:
1- إذا فهمت معني "غاية الكمال"، فأنت قد تصور في ذهنك هذه الجزيرة.
2- لا يوجد في تعريف الجزر الاستوائية ما يعني الكمال. لكن بالنسبة لمفهوم الله، الكمال موجود. ومن المستحيل تخيل الله الغير كامل. وحيث أنه من الواضح أن "الوجود" أكثر كمالا من "عدم الوجود"، لذلك مجرد تصور الله في الذهن يثبت وجوده.

منطق أنسيلم هو منطق صعب، لكنه بارع في نفس الوقت. براعة هذا المنطق تأتي من توضيحه أن جملة "الله غير موجود"، هي جملة تعارض نفسها منطقيا. ولذلك الحمقى فقط هم الذين يقولون هذه الجملة.

البرهان الأنطولوجي في إثبات وجود الله، له تاريخ طويل. يعتقد الكثيرون أن عمانويل كانط، هو أول من شيع هذا البرهان إلى مثواه الأخير في القرن الثامن عشر. عندما أثبت أن الخطأ في البرهان، ليس خطأ في المنطق، ولكن الخطأ في قواعد اللغة.

في القرون الوسطى، ابتليت الفلسفة بمشكلتين كبيرتين. المشكلة الأولى، هي مشكلة تعارض الإيمان مع العقل. والمشكلة الثانية، هي مشكلة اشتقاق العموميات من الخصوصيات.

أفضل حل لهاتين المشكلتين، جاء على يدي توماس الإقويني (أو الإكويني)، (1225-1274م).

بالنسبة للمشكلة الأولى، وهي مشكلة تعارض الإيمان مع العقل، نجد فلاسفة مثل جون سكوتوس إريجينا، كانت فلسفتهم تعتمد على استخدام العقل ولا مكان فيها للإيمان الأعمى. حتى أنسيلم، الله عنده قضية فلسفية محضة لا تعتمد على الإيمان المطلق.

على العكس من ذلك، نجد ترتوليان (169-220م)، الذي كان عدوا للفلسفة، ولم ير فيها إلا كفرا من مخلفات الوثنية. يقول بأنها السبب وراء ما دخل المسيحية من ضلالات وبدع غنوصية. ومما أُثر عنه، قوله إن العاطفة الدينية غريزة مرتكزة في النفس البشرية، تظهر في أوقات الشدائد والمحن.

الصراع بين أنصار العقل وأنصار الإيمان، نشأ عنه عدة أفكار. منها أفكار مجموعة "الرشديون اللاتين"، الذين يتبعون الفيلسوف العظيم ابن رشد، والذين يعتقدون في وجود الحقيقة المزدوجة.

الحقيقة المزدوجة تعني أنه بالنسبة لأي موضوع، توجد حقيقتان متعارضتان. حقيقة تأتي عن طريق الإيمان، والأخرى تأتي عن طريق العقل. لكن كلا منهما شرعي من وجهة نظره.

فمثلا، الإنسان جسد وروح. هذه حقيقة مزدوجة. عندما يموت الإنسان، يتحلل الجسد، وتصعد الروح إلى بارئها. هذه الفكرة، وإن كانت من الناحية المنطقية غير مقنعة، لعبت دورا إيجابيا في تطور العلوم بعيدا عن الصبغة الدينية.


بويثيوس

المشكلة الأخرى المحيرة، هي مشكلة الخاص والعام، أو الواحد والمجموع، أو الفرد والعالم. هذه المشكلة ظهرت على يدي بويثيوس، الذي كان يترجم من اليونانية مقالة لأرسطو لمؤلف من الأفلاطونية الحديثة يدعي بورفيري (232-304م).

نحن نعلم أن الحيتان موجودة. لكن هل توجد الحيتان الزرقاء في الطبيعة. وهل جملة "هذا الكلب بني اللون"، تعني أن كلمتي الكلب والبني بها، مجرد اسم ولون لحيوان بعينه، أم تدل على مجموعة من الكلاب لونها بني. وهل الكلاب البنية هذه حقيقية أم توجد فقط في عقولنا.

مشكلة الخاص والعام هذه، تشبه مشكلة مفهوم "المٌثل"، بمعنى الشبيه أو الصورة، بين أفلاطون وأرسطو. لكن أفكار الفلاسفة اليونانيين القدامى لم تكن متوافرة للفلاسفة في أوائل القرون الوسطى. كان عليهم أن ينتظروا 900 سنة، حتى يصلوا إلى ما وصل إليه أرسطو في 20 سنة فقط.

الفلاسفة في ذلك الوقت كانوا في حالة لخبطة وحيص بيص كبيرة بالنسبة لهذه القضية، لدرجة جعلت جون (1115-1180م) من سالزبيري، يقول إنه توجد آراء في هذه المشكلة بعدد الرؤوس الموجودة.



أوكهام

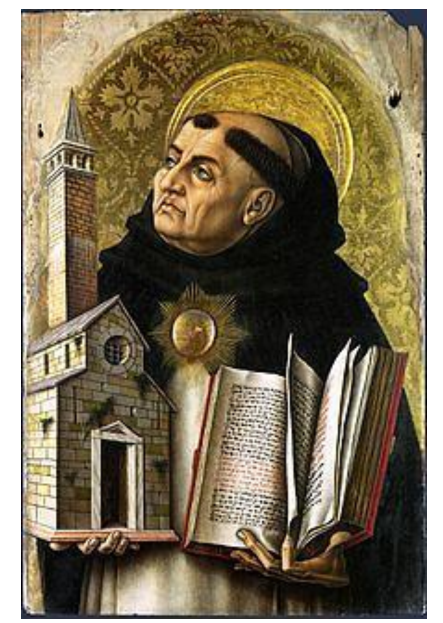
أحد هذه الآراء يتطرف في اتجاه، ويقول إن المجموعة أو النوع (الكلاب السوداء مثلا)، ليست فقط حقيقية، إنما حقيقتها أكثر من حقيقة الكلب الواحد. وكان هذا رأي أنسيلم نفسه.

على النقيض، جاء روسلين (1050-1120م) ووليام أوكهام (1280-1349م) لكي يقولا، إن الفرد فقط هو الحقيقي. أما المجموع أو النوع، فمجرد أسماء. لذلك سمي هذا الفكر ب"النومينالزم"، وهؤلاء الفلاسفة ب"النوماليست" أو "الاسميين". وهو فكر لم يحظ بقبول الكنيسة الكاثوليكية.

هذا يقودنا إلى السؤال الآتي: البند الثاني من الدستور المصري يقول بأن دين الدولة الإسلام. الدولة تتكون من مجموعة أفراد. فهل الدولة كيان حقيقي يمكن أن يتدين ويقيم الشعائر ويموت ويدخل الجنة أو النار؟ أم هي مجرد كيان لا يوجد إلا في عقولنا، مثل الخط المستقيم وقواعد النحو والقوانين العلمية والدستور نفسه؟

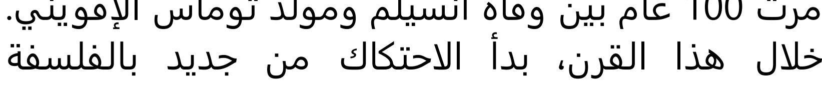
بالنسبة للاسميين، الأسماء تخلق الخلاف والتشابه بين الأفراد. الخلاف والتشابه هي أشياء لا توجد في الواقع، وإنما فقط في عقولنا وفي مفردات لغتنا.

لكن توماس الإقويني يقدم لنا أفضل الحلول لتلك المشكلتين. مشكلة العقل والإيمان، ومشكلة الواحد والمجموع.


توماس الإقويني

كان توماس الإقويني نبيلا من نبلاء إيطاليا. هرب من قلعة والده لكى يلتحق بجماعة دومينيكان الكاثوليكية. وكانت تظهر على جسمه، علامات الثراء والعز. فقد كان زائد الوزن يحب الأكل لدرجة أن مائدة الطعام كانت تعمل بها فجوة في شكل نصف دائرة، حتي يستطيع الجلوس على المائدة وبطنه داخل تلك الفجوة.

وقبل الحديث عن فلسفة توماس الإقويني، دعنا نقول شيئا عن حالة العالم الفكرية في القرن الثالث عشر .


مرت 100 عام بين وفاة أنسيلم ومولد توماس الإقويني. خلال هذا القرن، بدأ الاحتكاك من جديد بالفلسفة اليونانية القديمة، عن طريق الاتصال بالفلاسفة العرب في الأندلس. ولم تكتشف أوروبا أعمال أرسطو فقط، ولكن أيضا شروح وتفسيرات ابن رشد (1126-1198م) وابن ميمون (1135-1204م).

وجد الأوربيون نظريات أرسطو مذهلة. تناسب طبيعة القرن الثالث عشر أكثر من فلسفة أفلاطون. وجاءت سنة 1000م بدون أن يفنى العالم كما كانت التنبؤات السائدة.

تنبؤات سفر الرؤيا بدأت تتبخر، وبدأت تفيق أوروبا من سبات القرون الوسطى، وتتنبه إلى طبيعة العالم الذي تعيش فيه. لذلك، طفت فلسفة أرسطو إلى السطح من جديد. وكان على توماس الإقويني، تنصير أو تمسيح أرسطو. أي فهم فلسفته في ضوء التعاليم المسيحية. وهو ليس بالعمل الهين، وخصوصا إذا علمنا أن أفكار أرسطو ليست مسيحية بالمرة. هذه بعض أفكار أرسطو:

1- الأرض أبدية لا خالق لها.
2- الإله لا يبالي بالإنسان ومصيره.
3- الروح ليست خالدة وقد تفنى
4- الهدف من الحياة هو السعادة
5- الكبرياء فضيلة، والتواضع رذيلة

بالطبع ليس من المستغرب أن نجد أعمال أرسطو محظورة في جامعة باريس عام 1210م. كما أن أعمال توماس الإقويني، رفضت هي الأخرى في جامعات باريس وأوكسفورد بعد وفاته مباشرة.

كتب توماس الإقويني ما يزيد على الأربعين كتابا. أهم الأعمال، موسوعتين. "سوما ثيولوجيا" و "سوما كونترا جينتيلز". وهما بمثابة صروح فكرية جبارة.

كانت مهمة توماس الوفاق بين أرسطو والمسيحية. وأيضا الوفاق بين العقل والإيمان. وهي مشكلتنا في العالم الإسلامي اليوم. كما أن توماس قد تعرض لمشكلة الفرد والنوع أو الخاص والعام التي أشرنا إليها سابقا.

بالنسبة لقضية الفرد والنوع أو الفرد والمجموع، استفاد توماس من حل أرسطو. مفهوم النوع، الإنسانية مثلا، لا هي صورة ولا هي حالة عقلية. هي شئ مطمور في جوف شئ معين. الإنسانية شئ مطمور داخل الأفراد ولا يمكن إيجادها بدون الإنسان نفسه.

العقل البشري له قدرة على التجريد. بسبب قدرته على إدراك التشابه الموجود في الطبيعة. هذا التجريد، يصبح تصور أو فهم. بذلك وجد توماس الإقويني الحل لمشكلة الفرد والنوع، أو الخاص والعام. الإنسانية هي مجرد تصور أو فهم، لا توجد في الطبيعة، إنما توجد فقط داخل رؤوسنا. الجدير بالذكر هنا، أن حلا مشابها جاء به بيتر أبيلارد (1079-1142م)، 120 سنة سابقة.

بالنسبة لمشكلة العقل والإيمان، بدأ توماس في التفرقه بين الفلسفة والثيولوجيا. الفلاسفة تستخدم السببية الإنسانية فقط. الثيولوجيون، أي رجال الدين، يستخدمون ما نزل به الوحي وما جاء بالسنة المطهرة كبراهين دامغة صحيحة.

إلا أن توماس الإقويني يفرق بين إيمانين. إيمان مطلق خالص، وإيمان طبيعي يمكن أن يفسر بالعقل. الإيمان الأخير هو الإيمان الذي تتطابق فيه الفلسفة مع الإيمان.

عندما يعجز العقل عن تفسير ظاهرة أو إجابة سؤال ما، مثل سؤال "ماذا كان يوجد قبل خلق هذا العالم؟"، هنا يأتي الإيمان لكي يجيب على هذا السؤال.

معظم فلسفة توماس الإقويني، تنصب على الإيمان الذي يعتمد على العقل، أي الإيمان الطبيعي. من هذه الفلسفة، برهان وجود الله بالمنطق. وكان لتوماس خمس براهين لإثبات وجود الله. ثلاثة منها متشابة. البرهان الثاني يقول الآتي:

في عالم الحواس، نجد فاعل ومفعول. ولا نجد فعلا بغير فاعل، أو شيئا قد وجد من نفسه. سلسلة الفاعل والمفعول، أو السبب والنتيجة، لا يمكن أن تستمر هكذا إلا الأبد. ولابد لها أن تتوقف عند نهاية معينة. إذا ألغينا السبب، يجب أن نلغي النتيجة. وإذا الغينا السبب الأول، سوف تلغى الأسباب الناتجه عنه، ومن ثم يلغى كل شئ. إذن من الضروري وجود السبب الأول وهو الله.

برهان توماس يشبه نظرية الدومينو. فهو يقول ببساطة، أنه إذا كانت توجد سلسلة من الأسباب والنتائج، هذه السلسلة يجب أن تنتهي بمسبب، هو نفسه ليس نتيجة لسبب آخر. وإلا أصبحت السلسلة لانهائية، وهذا غير معقول في نظر توماس.

برهان توماس الإقويني وجد معارضة من بعض الفلاسفة أمثال دافيد هيوم في القرن الثامن عشر، وخصوصا مقولته بأن الأحداث تأتي في تسلسل، ومقولته بأن التسلسل اللانهائي مستحيل.

نلاحظ هنا أن كل براهين توماس، بخلاف برهان أنسيلم، تبدأ من الآخر، من النتائج. أي طريقة أرسطو في البرهان والتزامه بنتائج التجربة والمشاهدة. وهو أسلوب يختلف عن أسلوب أفلاطون في البرهان الذي يبدأ بالفروض والبديهيات ثم يصل منها إلى النتائج.

فلسفة توماس الإقويني، مثل فلسفة أرسطو، تؤمن بأن الوجود لم يخلق هباء، وإنما يسير نحو غاية نبيلة معينة. وهذا يتضح في كتابه الأخلاق. فنحن نختار أهدافنا، ونختار الطرق التي توصل لهذه الأهداف. أعمالنا لها غاية، قد تكون طلب الصحة أو الثروة أو الجمال أو الواجب، ...الخ. هذه الأهداف، لها علاقة بهدف أسمى مطلق يعطي قيمة للأهداف النسبية. وإلا وصلنا إلى مالانهاية، وهذا غير ممكن. نلاحظ هنا أسلوبه السابق في برهان وجود الله.

إذا أردنا الاختيار الحق، علينا أن نعرف الهدف الأسمى. أرسطو يقول أن الهدف الأسمى هو السعادة. لكن توماس يقول بأن هذه السعادة يجب أن تكون أبدية حتى تكون مطلقة. لذلك تكون سعادتنا متوقفة على اختيارنا الحق، وهذا يتوقف على معرفتنا للخالق.

ثم ينزل الستار على العصور المظلمة، ويأتي عصر النهضة بعلماء وفلاسفة مثل روجر باكون (1212-1292م)، جون دونس سكوتوس (1265-1307م)، وليام أوكهام (1280-1349م)، وجون بوريدان (1300- 1358م).

هؤلاء الفلاسفة مهدوا الطريق نحو أسلوب جديد في التفكير في القرنين التاليين. فنجد نيقولا كوبرنيق (1473-543م)، جوهانز كبلر (1571-1630م)، جاليليو جاليلي (1564-1642م)، ووليام هارفي (1578-1657م). مثل هؤلاء وغيرهم من الفنانين والسياسيين هم الذين مهدوا لعصر جديد مشرق للإنسانية.

7

ديكارت، هوبز، اسبينوزا

في عصر النهضة الأوروبية، كان يوجد عدد من الفلاسفة. لكن أول فيلسوف عظيم أقام صرحا فلسفيا متكاملا حديثا، هو الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596-1650م).

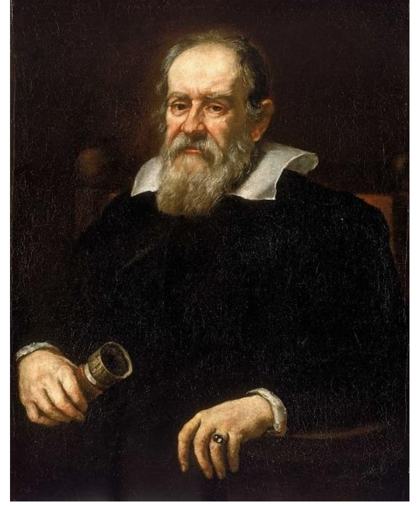
لم يكن ديكارت بهي الطلعة، وسيم السحنة، أو جميل الوجه، لكنه كان فطنا شديد الذكاء. يبدو أن الذكاء ليس له علاقة بحسن الطلعة وجمال الوجه.


ديكارت

بينما كان رينيه جالسنا في بيته يكابد الملل والسأم، أخذ يسلي نفسه بمراقبة ذبابة كانت تطير بالقرب من أحد أركان الغرفة. الذبابة تضخم الصمت المطبق بأزيزها وطنينها، وتطير في اتجاهات غير متوقعة. إذا بخاطر يأتيه فجأة، وهو أنه يستطيع تحديد مكان الذبابة في الغرفة بالنسبة لبعدها عن الحائطين والسقف. هذه إحدى شطحات العلماء وطريقة تفكيرهم التي تميزهم عن باقي الناس. الإنسان العادي يجري خلف الذبابة لكي يقتلها، لكن العالم يقوم بدراسة حركتها.

هذه الفكرة البسيطة، جعلت ديكارت، بصفة مبدئية، يتبوأ مكانا مرموقا في بانثيون عمالقة الفكر، لاكتشافه أصول الهندسة التحليلية. وهي هندسة تُعرّف الأشكال الهندسية بالنسبة لأبعادها عن محاور معينة ثابتة. بذلك أوجد ديكارت علاقة وطيدة بين علمي الهندسة والجبر، ساعدت في حل الكثير من المعضلات الرياضية. وجعلت علم التفاضل والتكامل ممكنا. بذلك يكون علم التفاضل والتكامل مدينا بالشكر والعرفان للذبابة المنزلية.

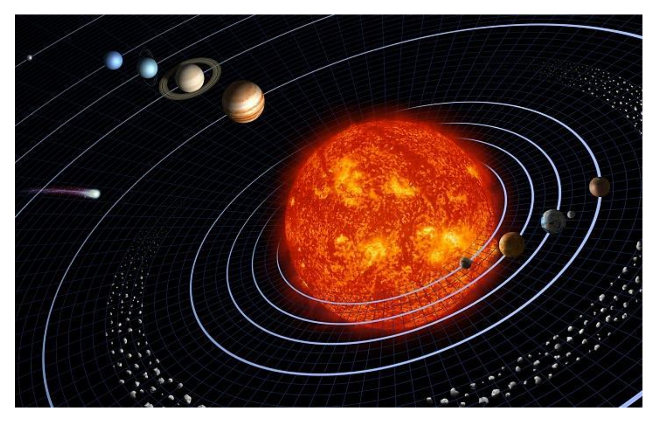
بعد أن أسدى ديكارت أفضاله التي لا تنسى إلى الرياضيات، كان على وشك نشر مؤلفا له في الفيزياء. لكن، عندما نما إلى علمه أن جاليليو جاليلي، العالم الإيطالي، قد تم القبض علية منذ 17 سنة مضت، لنشره أفكارا مشابهة لأفكاره هو في الفلك. ذهب ديكارت يجري في الشارع، ناسيا وقار العلماء، حتي يلحق الناشر في الوقت المناسب، ويمنعه من نشر كتابه.



جاليليو

كانت جريمة جاليليو أنه بحلق في تليسكوبه، الذي اخترعه حديثا، فوجد أن كوكب المشتري له أربعة أقمار تدور حوله. كوكب الأرض لها قمر واحد، فضي جميل الطلعة يدور حولها.

لماذا سببت اكتشافات جاليليو الفلكية مشكلة كبيرة لرجال الكنيسة الكاثوليكية؟ لأن إرث العصور الوسطى كان يقول بمركزية الكرة الأرضية. الأرض تقع في مركز الكون، والسماوات الطباق تغلفها، سماء وراء سماء مثل البصلة، أو أوراق رأس الكرنبة.



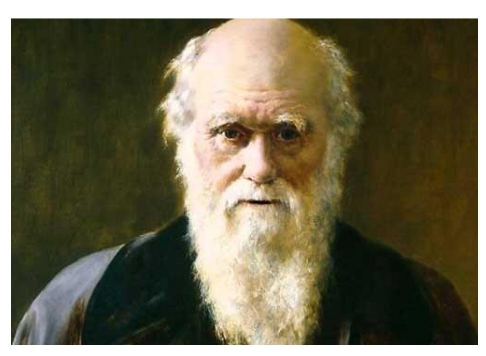
المجموعة الشمسية

بدأت الشائعات في ذلك الوقت تقول بأن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض. هذا كفر والعياذ بالله. أي عالم أو فيلسوف يدعي هذه الإشاعة، يستحق الشلح من الكنيسة والعقاب الشديد. لذلك أعدم الفيلسوف الإيطالي برونو بالحرق حيا من قبل، وسفهت أفكار كبلر وقبض على جاليليو.

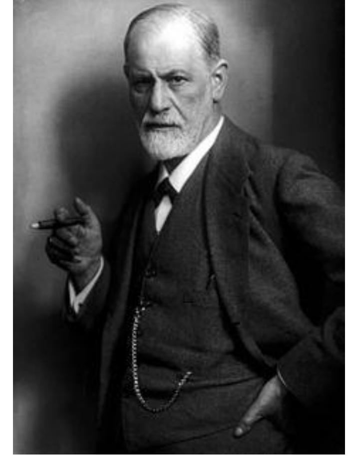

المشتري وأقمار جاليليو الأربعة

القمر يدور حول الكرة الأرضية، وكذلك الشمس. فمن يجرؤ على القول بأن الأرض ليست هي مركز الكون. لذلك، عندما يأتي جاليليو ويقول أنه شاهد في تليسكوبه أربعة أقمار تدور حول المشتري، هذا يقلب نظرية مركزية الأرض رأسا على عقب. هناك أقمار تدور حول أحد الكواكب، وكان من الواجب أن تدور حول الأرض. المشتري له 67 قمرا تدور حوله، لكن أكبرها هي أقمار جاليليو الأربعة.

خطأ مركزية الأرض، يمثل أول نسف لكبرياء الإنسان وغروره. وأول معارضة لما تقوله الأديان السماوية الثلاث بأن الكون كله قد خلق من أجل الإنسان.


داروين

الإعصار الثاني جاء مع نظرية التطور لداروين، التي تقول بأن الإنسان ما هو إلا حيوان مثل باقي الحيوانات.


فرويد

أما التدمير الثالث لكبرياء الإنسان، فقد جاء على يدي سيجمان فرويد. حينما قال بأن الإنسان ليس فقط حيوانا، لكنه أيضا حيوان مريض نفسيا. ما جاء به جاليليو كان شيئا غير محتمل. لهذا أودع غيابات الجب.

كان ديكارت كاثوليكيا معتدلا. وكان يعتقد بأن الكنيسة قد أخطأت خطأ كبيرا لمعارضتها جاليليو. كان من رأي ديكارت، أن الدين والعقيدة، إذا حاولا التصدي ومعارضة موجة التقدم العلمي الكاسحة، بدلا من التواؤم والتوافق

معها، فإن التقدم العلمي في هذه الحالة، قد يدمر الدين والعقيدة معا ويمحوهما من الوجود.

لكن لم يرد ديكارت الذهاب إلى السجن لكي يثبت هذه المقولة. كان عليه أن يخفي آراءه بالنسبة للفيزياء والفلك، ويدسها في كتاب للفلسفة يسمى "تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى". الذي قام بإهدائه إلى هيئة التدريس بقسم الثيولوجيا بجامعة باريس.

التأملات السته التي جاءت بالكتاب، كانت تشمل أفكاره الفيزيائية والفلكية. لقد كان ديكارت يأمل في إقناع رجال الدين قبل أن يتنبهوا إلى أفكاره التي تعارض ما جاء بالكتب المقدسة.

جاء بكتاب ديكارت، في باب "الفلسفة الأولى"، أن عليه هدم كل صروح المعرفة المعروفة، وبناء أصولها على قواعد صلبة من جديد.

كان ديكارت يبحث عن أساس صلب مؤكد لا يقبل الشك، يمكنا أن نبني عليه صرح المعرفة الجديد. فوجد ضالته في مبدأ الشك نفسه. يجب أن نبدأ بالشك في كل شئ. ما يقوله الدعاة الجدد. وما يقوله زغلول النجار. وما تقوله الكتب المقدسة. وما تدرسه الجامعات للطلبه. وما جاء بكتب التاريخ. وحتى الفلسفة الكلاسيكية وكلام أرسطو والأدب الإغريقي القديم. كل هذه المعارف، ليس لها أساس صلب.

يقول ديكارت: "في الواقع، لقد رأيت رؤيا ليلة 10 نوفمبر 1619م، أخبرتني أن المعرفة الحقة تأتي عن طريق العقل البشري فقط." يخبرنا ديكارت أنه كان يجلس بمفرده بجانب المدفأة في ألمانيا عندما كان مجندنا بالجيش، حينما توصل إلى مبدأ الشك.

لإيجاد جذور حقيقية ثابتة للمعرفة، جاء ديكارت بأربع مبادئ، التزم بها في بحثه. وهي:

1- لا تقبل أي فكرة إلا إذا كانت واضحة جلية
2- قسم أي مشكلة كبيرة تستعصي على الحل، إلى أجزاء صغيرة إذا لزم الأمر
3- رتب أفكارك من السهل إلى الصعب
4- دائما راجع أفكارك درأ للخطأ

حواسنا لا تصلح لكي تكون أساسا للمعرفة الحقة. لماذا؟ لأن الحواس محدودة القدرة وخادعة في كثير من الأحيان. قضبان السكك الحديدية نراها متلاقية من بعيد. القمر نراه أكبر حجما في الأفق منه في كبد السماء. الملعقه نراها مكسورة في كوب الماء. وبعض النجوم قد نراها نقطا مضيئة، بينما هي في الواقع مجرات تحوي كلا منها بلايين النجوم.

كيف أتأكد من أنني جالس هنا بجوار المدفأة؟ إذ ربما أكون في حالة حلم، أو متعاطي جرعة بانجو، أو حبوب هلوسه. كيف أتأكد أنني هنا؟ قد يكون هنا عفريتا أو شيطانا رزلا، مزاجه يلخبط دماغي ويجعلني أهلوس وأري أشياء غير حقيقية.

الشئ الوحيد الذي يمكنني التأكد منه، هو أنني جالس هنا أفكر في إيجاد شئ مؤكد يمكنني الإعتماد عليه. حتي إذا كان الأمر لا يعدو أن يكون حلما أو تدخل العفاريت. فهذا لن يغير من حقيقة أنني جالس أفكر في البحث عن حل. إنني إن لم أكن أنا الذي أفكر، والذي يقوم بالتفكير شخص آخر، في هذه الحالة، لن أشعر أو أتأكد من وجودي بأي حال من الأحوال.

لقد وجدتها. أنا أفكر، إذن أنا موجود. وباللاتينية "كوجيتو إرجو صم"، " COGITO ERGO SUM".وهي جملة لا تقل شهرة عن معادلة أينشتين التي تساوي الكتلة بالطاقة (E=mc2). يمكنك استخدامهما في الحفلات العامة وأعياد الميلاد لجذب انتباه الفتيات.

لهذا اعتقد ديكارت أن ماهية الوجود وجوهره، هو التفكير أو العقل. وإن العقل مختلف ومستقل عن الجسد. كل الذي توصل إليه ديكارت كشئ مؤكد حتي الآن هو وجود العقل.

لكن العالم الخارجي لا يزال محل شك. لكي يستطيع العقل إدراك العالم الخارجي بدون خداع وتدخل الشياطين والعفاريت، كان عليه أن يثبت وجود الله. لأن وجود الله سوف يكون الضامن لعدم تدخل الشياطين ولخبطة عقولنا في إدراك العالم الخارجي. ما ندركه بعقولنا من العالم الخارجي، في حالة وجود الله، لا بد أن يكون حقيقيا، وإلا كان الثواب والعقاب في الآخرة غير مجدي ولا معنى له.

لجأ ديكارت في إثبات وجود الله إلى برهان القديس "أنسيلم" (1033-1109م)، المذكور في باب سابق. الآن أصبح لدينا عقل حقيقي، وعالم خارجي حقيقي بما فيه أجسامنا.

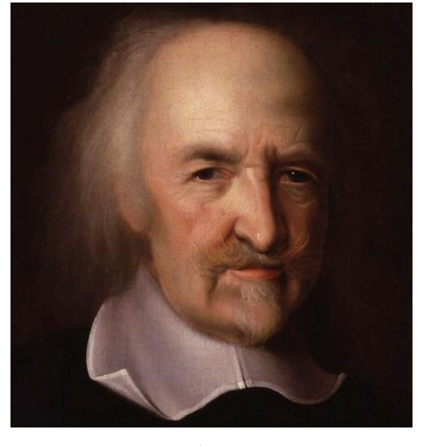
وهما شيئان منفصلان لا شئ واحد. يعملان مع بعضهما في تزامن كامل، كأنهما ساعتان منضبطتان.

هذه "الثنائية"، عقل ومادة، جسد وروح، لازمت ديكارت في كل أفكاره وكتاباته. العقل له خواصه. فهو الذي يولد الأفكار، ويجعلنا نؤكد أو ننفي الأحداث. العقل ليس له لون أو مكان أو شكل أو حجم أو خواص ميكانيكية. بعكس المادة والعالم الخارجي.

أما العالم الخارجي، فله حجم وشكل ومكان وخواص ميكانيكية. كل المخلوقات بما فيها أجسامنا لها خواصها الميكانيكية. مُسيرة بالقدرة الإلهية. الكون كله مثل الساعة التي يقوم الرب بشحن بندولها. من هنا جاء مبدأ "الحتمية". الذي كان له تأثير كبير على المفكرين والفلاسفة فيما بعد.

كيف يؤثر العقل في الجسد أو العكس، وهما شيئان مختلفان. إن عقولنا تعطي أوامر إلى أجسامنا بالحركة والمشي،...الخ. لكي يحل ديكارت هذه المشكلة، جاء بحل الغدة الصنوبرية الموجودة في المخ. لكن، عندما يتقابل العقل مع الجسد في الغدة الصنوبرية، يكون له مكان، هذا يعني أنه يصبح مادة. وهذا تعارض.

بطريقة تبدو حتمية، ذهب ديكارت إلى السويد لكي يدرّس للملكة "كريستينا" سنة 1649م. كانت الملكة تصر على أخذ دروسها الساعة الخامسة صباحا. كعادة الفلاسفة والمفكرين، لم يكن ديكارت يذهب للنوم إلا في ساعة متأخرة من الليل. لذلك، كان عليه أن يلهث مسرعا في الصباح الباكر من كل يوم بعد نوم ساعات قليلة، للحاق بالملكة في الوقت المحدد. مما تسبب، خلال شهور قليلة، في إصابته بالالتهاب الرئوي الذي قضى عليه.



هوبز

علي الجانب الآخر من بحر المانش، كان يوجد الفليسوف البريطاني توماس هوبز (1588-1679م). عجوز شاذ الأطوار مشاغب، له إسهامات في كثير من القضايا الفكرية. ادعي أنه نجح في تربيع الدائرة وتكعيب الكرة. قام بمعادات كل الأحزاب السياسية في بلده، ثم لاذ بالفرار إلى فرنسا.

قام بحل مشكلة "ثنائية" ديكارت واتصال العقل بالجسد عن طريق الغدة الصنوبرية، بأن قام بإلغاء فكرة الثنائية من جذورها. وقام بإحياء المادية الميكانيكية والنظرية الذرية لديموقريطس، الفليسوف اليوناني القديم.

بالنسبة لهوبز، الشئ الوحيد الموجود، هو أجسام في حالة حركة. يعني لا هناك عقل أو روح أو أي شئ من هذا القبيل. إذا كان ديكارت يقول هناك عقل ومادة، فهوبز يقول لا، توجد مادة فقط.

لم ينكر هوبز وجود الفكر. إنما اعتبره نوعا من الوهم، أو ظلال ناتجة من نشاط المخ. لذلك، كان يقول بالحتمية الناعمة، التي تؤمن بأن الحرية تسير جنبا إلى جنب مع الحتمية المطلقة. مثل الفلاسفة الرواقيين والقديس أوغسطين. يمكننا الحديث عن الحرية، طالما لا يوجد من يقف في طريقها. الماء يجري في النهر بحرية وحتمية في نفس الوقت.

فلسفة هوبز كانت فلسفة متشائمة. كل كائن حي يخضع لقانون البقاء. لذلك، كل تصرفات الإنسان، مدفوعة بحب البقاء ومصلحته الشخصية وطلبه للسلطة. الإيثار وحب الناس، ليس فقط أفكارا سيئة، لكنها أيضا مستحيلة. الأنانية هي البضاعة الوحيدة الموجودة في المدينة. أنا وبعدي الطوفان. العمل التطوعي لكل إنسان، يأتي بدافع المصلحة الشخصية.

أشهر أعمال هوبز الفلسفيه، ما كتبه عن السياسة. فهو يعتبر الدولة مثل أمنا الغولة، وحش غير طبيعي، مثل وحوش الأساطير القديمة "اللوفيتان". تقمع الناس وتحد من حريتهم، تضللهم وتزور الانتخابات نيابة عنهم. لكن هوبز يبرر وجود الدولة، لأن وجودها أفضل من غيابه.

غياب الدولة، يجعلنا نعيش تحت رحمة قانون الغاب. حيث يسيطر الخوف والرعب. ويجد كل منا نفسه عدوا للآخر. القوي يفترس الضعيف. السمك الكبير يبلع السمك الصغير.

توجد القسوة في الطبيعة كأنها قانون من قوانينها. الإنسان أو الحيوان يقتل لكي يأكل. لا ينجو النبات من القتل. غير أننا لا نسمع صراخه. الفرق بين الإنسان والحيوان، هو أن الإنسان يقتل بطريقة مهذبة راقية. قد نطلب الرأفة في عملية القتل، بأن نفضل أن يكون السكين حادا، حتي لا يتألم الحيوان المسكين.

نوع من الذنابير يقوم بلدغ العنكبوت لإصابته بالشلل. يسحبه إلى عشه بعد أن ينزع أرجله من جسده. ثم يقوم بوضع بويضاته على جسد العنكبوت.

يظل العنكبوت هكذا جسدا بدون أرجل. غير قادر على الحركة، لكنه ينبض بالحياة. القلب يدق، والجهاز العصبي سليم. إلى أن تفقس البويضات. ثم تبدأ اليرقات في أكل أحشاء العنكبوت من الداخل ببطء. وتترك الجهاز العصبي للآخر. لأن اليرقات إذا بدأت بأكل القلب والجهاز العصبي، يموت العنكبوت المسكين، ويتعفن باقي جسده ولا يصلح للأكل بعد ذلك.

إنها طريقة مبتكرة، بديلة لحفظ اللحوم في الثلاجات. هكذا تقسو الطبيعة على سكانها. قسوة الحياة توجد في كل مكان. الأمثلة عليها لا تحصى ولا تعد.

لذلك يقول هوبز أن الحياة في ظل قانون الغابة، لا يوجد بها قانون أو أخلاق أو رحمة أو حتي ملكية خاصة. فقط حقوق طبيعية لمواصلة الحياة وحماية النفس بكل السبل المشروعة وغير المشروعة. بما في ذلك العنف والقتل والخداع والكذب والتضليل.

إذا وجد اثنان من الناس على جزيرة معزولة. ليس بها إلا عدد محدود من ثمار جوزة الهند التي تصلح للأكل. فلن يجرؤ أيا منهم على إدارة ظهره للآخر، خوفا من أن يقوم الآخر بتهشيم رأسه بحجر من الخلف.

لكن إذا كانا عاقلين، فقد يجدا أنه من الأوفق والأسلم عدم الركون إلى العنف. الأفضل هو المشاركة في ثمار جوزة الهند. لكن طبيعة النفس العدوانية عند الإنسان والتي تميل للطمع، كما يقول هوبز، لا تمنع أحدهما من نقض الاتفاق لكي يفوز بالغنيمة كلها.

الحل عند هوبز يأتي عن طريق إيجاد طرف ثالث. يقوم الطرف الأول والثاني بتسليم كل ما في حوزتهم من أحجار وأسلحة إلى الطرف الثالث. يتنازلون بمحض اختيارهم عن أسلوب العنف واستخدام النبابيت والهراوات. في المقابل، يقوم الطرف الثالث بالوعد باستخدام ما لديه من قوة، للتأكد من أن الطرفين الأول والثاني ملتزمان باتفاقهما السابق.

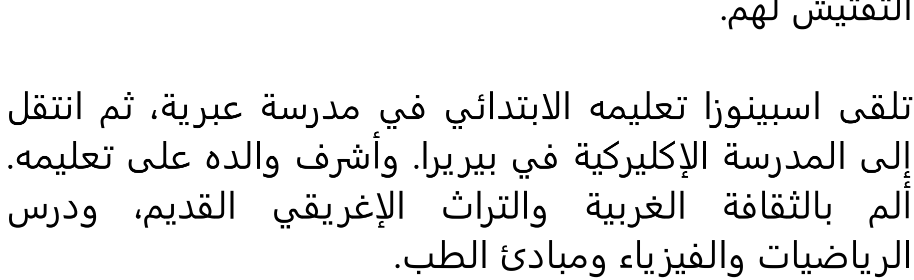
الطرف الثالث الوسيط في فلسفة هوبز، قد يكون الملك أو البرلمان. في كلا الحالتين، الطرف الثالث هو مصدر السلطات المطلقة.

هذا هو "العقد الاجتماعي" المشهور عند هوبز. كان هوبز يعلم أنه لا يوجد ما يمنع الملك أو البرلمان، بما لهم من سلطة مطلقة، من إساءة استخدام هذه السلطة. لكنه كان يعتقد في قرارة نفسه أن السلطة المطلقة حتى وإن كانت ظالمة، هي خير من عدم وجود سلطة بالمرة والعيش تحت رحمة قانون الغاب. وكما يقول مشايخنا الكرام: "إمام ظلوم، خير من فتنة تدوم."

نظرية هوبز السياسية، لم تجد من يؤيدها في بريطانيا. البرلمانيون لم يحبوها لأنها تكرس السلطة في يد فرد أو مؤسسة واحدة (لا توزيع للسلطة). الملك لم يعجب بها، لأنها تنفي عنه حقه الإلهي في الحكم.


اسبينوزا

نعبر بحر المانش عائدين إلى القارة الأوروبية، فنجد الفيلسوف الهولندي، باروخ اسبينوزا (1634-1677م). من أسرة يهودية برتغالية هاجرت بعد سقوط غرناطة عام 1492م، وبعد صدور مرسوم الملك فرديناند بطرد اليهود منها، وملاحقة محاكم التفتيش لهم.



تلقى اسبينوزا تعليمه الابتدائي في مدرسة عبرية، ثم انتقل إلى المدرسة الإكليركية في بيريرا. وأشرف والده على تعليمه. ألم بالثقافة الغربية والتراث الإغريقي القديم، ودرس الرياضيات والفيزياء ومبادئ الطب.

ثم قام بدراسة كوبرنيق وجاليليو وكبلر وديكارت، مما جعله يبتعد عن اليهودية. هاجمه رجال الدين وحكموا عليه بالحرمان الديني عام 1656م. ثم نفي في أحد ضواحي أمستردام.

كان يكسب عيشه من صقل العدسات الزجاجية. ألف في هذه الفترة كتابه "رسالة موجزة في الله والإنسان وسعادته"، ثم كتابيه، "رسالة في إصلاح العقل" و "مبادئ فلسفة رينيه ديكارت".

حاول اسبينوزا حل مشكلة ديكارت بخصوص علاقة العقل بالمادة. يعتبر من العقلانيين الذين يؤمنون بأن المصدر الحقيقي للمعرفة، هو العقل وليست الحواس. لذلك يجب أن تبني الفلسفة على البديهيات والاستنتاج بدلا من التجربة والمشاهدة. المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس، معرفة مهلهلة لا ترقى إلى اليقين. حتى وإن كانت يقينية، فهي متعارضة لا رابط بينها.

أعلى درجات المعرفة، هي المعرفة العقلية التي تدرك ماهية الأشياء وعلاتها، إدراكا كليا، مثل علم الهندسة. هذا النوع من المعرفة، هو الذي يجب أن يأخذ به في بناء صرح جديد للفلسفة.

كان رأي الفيلسوف البريطاني "بيرتلاند رسل" في اسبينوزا، أنه أنبل الفلاسفة وأقربهم إلى القلب. لأنه، أكثر من أي فليسوف آخر، كان يعيش فلسفته. بالرغم من علمه أن سلوكه هذا سوف يحرمه من عطف الجاليتين اليهودية والكاثوليكية.

تقبل اسبينوزا طرده من المعابد اليهودية والكنائس وباقي أنشطة المجتمع، بدون ضغينة أو حقد على أحد. لم يطلب أبدا شهرة أو ثراء، ولم يتطلع إلى منصب أكاديمي مرموق. كان يستمتع بالسلام الداخلى بينه وبين نفسه وفقا لما تدعو إليه فلسفته.

كان يؤمن اسبينوزا بأن الفلسفة يجب أن تبني على قواعد صلبة عقلانية مثل القواعد التي بني عليها علم الهندسة المعروفة بهندسة إقليدس. لذلك قام بإخضاع الفلسفة الميتافيزيقية، التي تبحث في الوجود والمادة وخلافه، إلى القواعد التي تبني عليها هندسة إقليدس.

لذلك، بدأ اسبينوزا بالبديهيات والفروض التي لا تحتاج في إثباتها إلى برهان. من البديهيات والفروض، بدأ يشتق نظريات، ومن النظريات، نظريات أخرى. بعد كل إثبات، كان يزيله بعبارة، "وهو المطلوب إثباته"، كما نفعل نحن في برهنة النظريات الهندسية.

كان ديكارت يقول بوجود جوهران، العقل والمادة. كلاهما يوجد مستقلا عن الآخر. هذا الكلام لم يعجب اسبينوزا. فهو يرى أنه لا يوجد إلا جوهر واحد لانهائى هو الله. العالم من حولنا نراه في صور مختلفة. المنازل والمفروشات والناس والحيوانات وهكذا. لكن هذه الصور، ما هي إلا تموجات وتذبذبات في الزمان والمكان، تأتي من الجوهر اللانهائي وهو الله. أي أن الله والكون هما شئ واحد. هذا ما يعرف بوحدة الوجود.

يقول اسبينوزا: إذا كان وجود الله لا نهائي، فالعالم لا يمكن أن يكون منفصلا عنه. وإلا كانت هناك أزمنة وأماكن لا يوجد بها الله. في هذه الحالة، سوف يكون الله محدودا في الوجود والقدرة.

يرى اسبينوزا أيضا، أن العقل والمادة هما شئ واحد. كلاهما صور مختلفة من صور الله. وهو هنا يرفض ثنائية ديكارت في تقسيم الأشياء إلى عقل ومادة، جسد وروح. جوهر الأشياء شئ واحد لا ثاني له.

الله عند اسبينوزا لانهائي، له مالانهاية من الصفات. العقل والمادة يمثلان جزءا صغيرا متناهيا في الصغر بالنسبة لصفات الخالق الكلية.

إيمان اسبينوزا بالله المتمثل في وحدة الوجود، لم يرق لرجال الدين اليهودي أو المسيحي. إله اسبينوزا يختلف عن الإله الخالق المنفصل عن باقي المخلوقات. كما أن اسبينوزا لم يكن يعتقد بوجود الروح الخالده للإنسان. الروح والجسد عند اسبينوزا هما شئ واحد.

موت الجسد، سوف يؤدي إلى موت الروح أيضا. هذا بعكس ثنائية ديكارت التي تقول أنه عندما يموت الجسد، تبقى الروح للأبد. ومع هذا، اسبينوزا يعتبر رجل مؤمن بالله. الله الذي يوجد في كل مكان وكل زمان ولا يمكن فصله عن الطبيعة والكون. لأنه هو الطبيعة والكون.

8

ليبنيز العقلاني، لوك التجريبي


ليبنيز

أحد الفلاسفة العقلانيين العظام في القارة الأوربية في عصر النهضة، هو الفيلسوف الألماني جوتفريد ليبنيز (1646-1716م). عبقري موسوعي، قام بإسهامات هامة في تقدم المنطق الرمزي.

توفى والده عندما كان في السادسة من عمره. لذلك تلقى علوم الدين والأخلاق من والدته. مما كان له أثر كبير على أفكاره وفلسفته في المستقبل. كان والده أستاذا جامعيا، ترك له مكتبة كبيرة من الكتب الفلسفية والعلمية والأدبية.

اطلع ليبنيز على مكتبة والده منذ سن مبكرة، مما وسع مداركه، وجعله يتعلم اللاتينية في سن الثانية عشر، ويؤلف قصيدة مكونة من 300 بيت شعر، ألقيت في احتفال بمدرسته في سن الثالثة عشر.

التحق ليبنيز بالجامعة في سن الرابعة عشر، وحصل على ماجستير الفلسفة في سن الثامنة عشر. نال ليسانس الحقوق في سن التاسعة عشر. في سن العشرين، نشر أول كتاب له بعنوان "فن التراكيب"، تضمن مقالا له في الفلسفة. ثم التحق بجامعة "التدورف" وحصل منها على شهادة الدكتوراة في القانون. ثم هجر الحياة الأكاديمية، وتفرغ لخدمة عائلتين من عائلات النبلاء الألمان.

عندما دعي ليبنيز إلى باريس، قام بمقابلة عالم الرياضيات والفيزياء العظيم هايجينز. عندما اكتشف ليبنيز أن معلوماته في الرياضيات والفيزياء ليست على ما يرام، قام

بتعليم نفسه بنفسه الرياضة والفيزياء بتوجيهات من هايجينز. وسرعان ما ساهم ليبنيز بنظريات هامة في كلا من هذين العلمين.

ثم قام بمقابلة الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين، ودرس فلسفة ديكارت وباسكال. (نموذج لما فعله رفاعة الطهطاوي، والإمام محمد عبده في باريس فيما بعد). ثم ذهب ليبنيز إلى إنجلترا عام 1673م، لمقابلة أولدنبورج وكولينز. وقام بعرض الآلة الحاسبة التي قام باختراعها، التي تقوم بالعمليات الحسابية الأساسية من جمع وطرح وضرب وقسمة.

قام أيضا بوضع خطة لغزو فرنسا لمصر حتي يشغل فكر الفرنسيين ويبعدهم عن أطماعهم في غزو البلاد الناطقة بالألمانية. نفس الخطة، قام باستخدمها نابليون بونابرت بعد 120 سنة.

اكتشف ليبنيز في الرياضيات علم التفاضل والتكامل، في نفس الوقت مع إسحق نيوتن، دون أن يعلم كل منهما ما يفعله الآخر. ثم قاما بتبادل الاتهامات بسرقة الفكرة.

أثناء سفر ليبنيز، توقف عدة أيام لمناقشة اسبينوزا في فلسفته. كان ليبنيز معجبا جدا بذكاء اسبينوزا، لكنه رفض آراء اسبينوزا، لتعارضها مع الديانة المسيحية واليهودية.

أراد ليبنيز، مثل اسبينوزا، تصحيح أفكار ديكارت الميتافيزيقية، دون أن يهدم أركان فلسفته الأساسية. لم يكن مقتنعا بفلسفة وحدة الوجود عند اسبينوزا. لأنه كان يعتقد بأن الإنسان له وجود حقيقي وإله متميز خارج عن الطبيعة. بالنسبة للمنطق، قام ليبنز بتقسيم كل القضايا الفكرية إلى قسمين. قضايا تحليلية، وقضايا تركيبية أو صناعية.

نحن هنا بدأنا نخلع أحذيتنا، ونغوص في عمق الفلسفة والمنطق. لذلك وجب فهم بعض التعاريف المنطقية التي أرجوا أن لا يجدها السادة القراء جافة أو مملة:

القضية المنطقية، هي كل كلام يدل على خبر يحتمل الصدق أو الكذب. الأسئلة والأوامر وجمل التعجب، ليست قضايا منطقية. لأنها لا تخبر عن شئ يحتمل الصدق أو الكذب. جملة مثل "اقرأ هذا الكتاب"، لا تحتمل الصدق أو الكذب. أما جملة "هذا الكتاب قديم"، فهي قضية منطقية. لأن الكتاب قد يكون قديما، وقد لا يكون.

القضية المنطقية تتكون في أدنى صورها من: موضوع (الكتاب)، ومحمول (قديم)، ورابطة (هو). الرابطة هنا مستترة، لأن الجملة أصلها "الكتاب هو قديم".

القضايا المنطقية التحليلية، هي القضايا التي يكون محمولها تحليلا أو تكرارا لموضوعها، بدون أن تضيف إليه شيئا جديدا. مثل قضية "كل العوانس نساء". لأن كلمة نساء لم تضف للعوانس شيئا جديدا. فالمعروف هو أن كل العوانس نساء. كلمة نساء هنا تعتبر مجرد تكرار في الجملة.

كذلك قضية "الأب رجل له ابن"، "المثلث له ثلاثة أضلاع"، "2+3=5" وأيضا كل القوانين الرياضية والتعاريف المنطقية. هذه القضايا تحليلية، لأنها تعاريف حقيقية في حد ذاتها وواقع لا يمكن إثبات خطئه بالتجربة.

أما القضايا التركيبية أو الصناعية، فهي القضايا التي يضيف محمولها إلى موضوعها شيئا جديدا ليس فيه. مثل قولنا "ارتفاع الغرفة أربعة أمتار"، وقولنا "المطر غزير"، أو "الكتاب قديم". ارتفاع الغرفة قد يكون أربعة أمتار أو أكثر أو أقل. هذه صفات غير ضرورية للغرفة أو المطر أو الكتاب، يمكن أن توجد بدونها. ويمكن إثبات عدم صحتها بالقياس أو التجربة.

القضية التحليلية هي وحدة العلوم الرياضية. صدقها مرهون بعدم تناقض الفكر مع نفسه. أما القضية التركيبية، فهي وحدة العلوم التجريبية. وصدقها مرهون بعدم تناقض الفكر مع نتائج التجربة والواقع.

أفكار ليبنيز المنطقية يمكننا أن نلخصها في ثلاثة مبادئ هي:

1- الهوية
2- السبب الكافي
3- التوافق الداخلي

بالنسبة لمبدأ الهوية، أو القضية التحليلية، نفيها خطأ منطقي، والعكس صحيح. ماذا يعني هذا الكلام؟ دعنا نوضح ذلك بمثال:

"كل العوانس نساء"، هذه قضية تحليلية صحيحة تمثل الهوية. لأن كلمة نساء لم تضف جديدا للجملة، وتعتبر تعريفا أو تكرارا لوصف جاء في كلمة العوانس. نفي هذه

الجملة هو "ليست كل العوانس نساء". هذا يعني أن بعض العوانس هن غير نساء. وهذا تعارض. هذا ما عناه ليبنيز بأن نفي الهوية أو القضية التحليلية خطأ منطقي.

بالنسبة لمبدأ "السبب الكافي"، يقول" "إن كل شئ موجود لسبب ما، وكل حادث يحدث لسبب ما". إن هذا هو السبب المعقول الوحيد الذي يفسر ما نراه من أشياء أمامنا. الله فقط هو الذي يمكنه أن يفسر لماذا تحدث الأشياء بهذه الطريقة. لا بد أن هناك سببا ما وراء وجود هذا العالم. ويتساءل ليبنيز: "لماذا يوجد شئ بدلا من لا شئ؟". مثل القديس توماس الإقويني من قبله، يري ليبنيز أنه لا بد من وجود محرك أول. هو الله الكامل وراء خلق هذا العالم.

ثم يأتي ليبنيز بمفاجأة، وهي قوله إن كل القضايا التركيبية الحقيقية، مثل قضية "القطة فوق الحصيرة"، هي قضايا تحليلية. مثل "1+1=2". لأنه كان يعتقد أن كل الجمل الحقيقية، تمثل ضرورة إلهية. القطة "كاتي" فوق الحصيرة في زمن معين، هي صفة ضرورية للقطة "كاتي"، مثل كونها قطة بدلا من كلب مثلا.

إذا كانت القطة فوق الحصيرة، فلابد من سبب. الله فقط هو الذي يعلم السبب في وجود القطة، وسبب كونها فوق الحصيرة، بدلا من كونها فوق الدولاب، في هذه اللحظة الزمنية.

بالنسبة للتوافق الداخلي، وجود الله شئ منطقي وجيد. هذا الإله لابد أن يكون قادرا على خلق كل ما يمكن من الوجود والسلوك. أي خلق الكمال الميتافيزيقي والكمال الأخلاقي.

لذلك، عند بداية الخلق، فكر الله في كل الاحتمالات. إختار منها أعظم الوجود وأكمل الأخلاق. الله خلق الأفضل بالنسبة لهذا العالم وهذه الأخلاق.

هذا الكلام لم يدخل عقل الفيلسوف والشاعر والأديب الفرنسي العظيم فولتير. فقام بالرد على ليبنيز بروايته التهكمية "كانديد". التي يمثل ليبنيز فيها، شخصية الفيلسوف بانجلوس.

بانجلوس يرى كل شئ على مايرام في هذا العالم، المضطرب المرعب الملئ بالقسوة وسفك الدماء. عالم رواية "كانديد"، شبيه بعالم الرئيس الغير مأسوف عليه جورج بوش، وسياسته الغبية اللإنسانية، والتي تسمى الفوضى الخلاقة.

كان الفيلسوف طاليس المالطي في الزمن القديم يقول، إن أصل كل شئ هو الماء. وجاء بعده أناكسيماندر ليقول بأن أصل الأشياء هو شئ سرمدي غير متناهي وغير محدود. ثم يأتي اناكسيمنيس ليخالف كلا منهما ويقول بأن أصل الأشياء هو الهواء.

بعدهم يأتي فيثاعورث ليقول بأن أصل الأشياء، لا هذا ولا ذاك، إنما هي الأرقام. ثم نجد هيروقليطس يقول بأن الأصل هو النار. وتقريبا كل فيلسوف تعرض لموضوع أصل الأشياء وكان له رأي فيه.

نحن نقول اليوم بأن أصل الأشياء هي الذرات. ثم نكتشف أن الذرات تتكون من جسيمات صغيرة، هي بدورها تتكون من جسيمات أصغر. ونظل هكذا إلى أن نصل إلى الكوارك. ثم نكتشف نظرية جديدة تقول لا هذا ولا ذاك، إنما هي أوتار من الطاقة صغيرة جدا في حالة تذبذب أو عزف موسيقي مستمر، نحن والعالم من حولنا أنغامها.

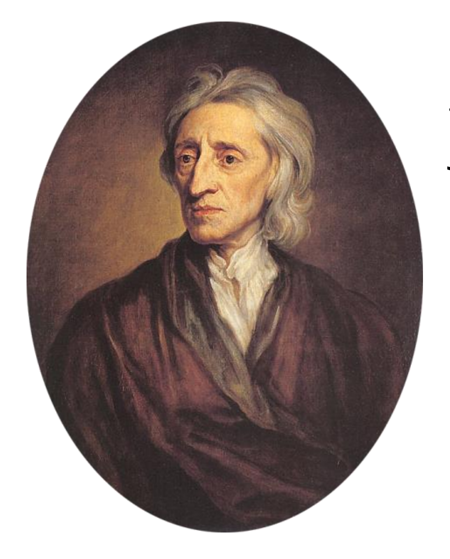
أما ليبنيز فيقول بأن المادة تتكون من عدد لانهائي من أشياء متناهية في الصغر أسماها "مونادز" المفرد "موناد".

يختلف كل موناد منها عن الآخر، مثل بصمات الأصابع. كل موناد ليس له مكان أو زمان. أي خارج نطاق الزمن والمكان. يعكس صورة العالم الخارجي. الموناد مغلق على نفسه، ليس به فتحات أو نوافذ تسمح بأي شئ يدخل أو يخرج منه.

الموناد ليس مادة، لكن له روح. وكل منها لا يتفاعل مع الآخر ومستقل بنفسه. مثل التعريف الكمي لفتافيت الطاقة، مفردها يسمى كوانتا. أو مثل فوتونات الضوء، التي جاء بها أينشتاين فيما بعد، مفردها فوتون. الكوانتا أو الفوتون، طاقتها لا تتجزء ولا تنقسم.

المونادز تتفاعل مع بعضها بسبب التوافق الذي حباها به الله منذ نشأة الخلق. المونادز هي أصل كل شئ، أما ما نراه من مادة وأشياء من حولنا فهي مجرد خواص وصفات للمونادز.

يتضح لنا مما سبق أن ليبنيز حاول حل مشكلة ديكارت في التفسير الثنائي، المادة والروح، لوجود الأشياء. لكن فلسفته واجهت العديد من المشاكل. حينئذ، هب كثير من الفلاسفة للدفاع عن الفطرة السليمة والبديهية عند الإنسان، وإعادة ثقته في حواسه.



جون لوك

فيأتي الفيلسوف البريطاني جون لوك (1632-1704م). وهو أول الفلاسفة التجريبيين. وأحد فلاسفة التنوير العظام. ليس فقط في إنجلترا، وإنما في أوروبا وأمريكا.

ولد جون لوك في مدينة صغيرة بالقرب من مدينة بريستول. كان والده محاميا ثم موظفا كبيرا في خدمة البرلمان عام 1648م. لكنه أفلس وخسر كل شئ بسبب الحرب الأهلية التي جرت بين الكاثوليك والبروتستانت في إنجلترا. فقد كان عصر جون لوك، هو عصر الحروب الدينية والمذاهب المتناحرة.

درس جون لوك في طفولته اللغتين اليونانية واللاتينية، وهما لغتا العلم والفلسفة في ذلك الوقت. كما درس فلسفة أرسطو في مدرسة ويستمنستر 1646-1652م. ثم أصبح محاميا في مدينة إكسفورد.

ارتبط بعلاقة صداقة مع لورد آشلي الذي كان وزيرا عند الملك شارل الثاني. لكن الظروف السياسية انقلبت عليه، فذهب آشلي إلى المنفي في هولندا مع جون لوك لمدة ست سنوات. درس جون لوك أثناءها أحوال أوروبا. وفكر في مصايب الحروب الأهلية. وخرج بكتاب شهير بعنوان: "مقالة في التسامح". قلده فولتير فيما بعد.

في مراحل دراستنا الثانوية والجامعية، نلاحظ أن العلوم تنقسم إلى نوعين. علوم نظرية، وعلوم عملية. العلوم النظرية، مثل الرياضيات والمنطق والفيزياء النظرية. هي علوم لا تحتاج في دراستها سوى الورقة والقلم.

أما العلوم العملية، مثل الكيمياء والفيزياء العملية والبيولوجيا والجيولوجيا والفلك ...إلخ، فتحتاج إلى الأجهزة والمعامل والقراءات من الواقع. أي أنها تحتاج إلى التجربة والمشاهدة. سوف نري فيما بعد، أننا نحتاج إلى كلاهما، لكي نقترب من فهم حقيقة هذا الكون الذي نعيش فيه.

الفلاسفة التجريبيون ومنهم جون لوك، يعتقدون أن العلوم التجريبية فقط هي العلوم الصحيحة. أي العلوم التي تستمد معلوماتها من التجربة والمشاهدة. لأنهم وجدوا

الفلاسفة العقلانيين مثل ديكارت واسبينوزا وليبنيز، تركن إلى التخمين والحدس في البحث عن الحقيقة.

ليس هناك ما يثبت بالقطع صحة هذه الفروض بالنسبة للتفسيرات الميتافيزيقية للوجود. ولننظر إلى ما أوصلنا إليه ليبنيز من "مونادز" وخلافه، أو ما كان يقوله أفلاطون من ولادة المعلومات مع الطفل عندما يولد، وما علينا سوى استخراجها بالتفكير والتأمل.

فى كتابه "مقالة بشأن الفهم الإنساني"، تساءل جون لوك عن مصدر المعرفة. كيف نعرف ما نعرفه؟ هل هو وراثي أم مكتسب؟ طبع أم تطبع؟ هل يأتي ما نعرفه عن طريق الاستنتاج أم التجربة؟

التجربة، والتجربة وحدها، هى مصدر المعرفة الإنسانية. هكذا قال جون لوك. هذه هى بداية الفلسفة التجريبية (Empiricism) التى قامت فى إنجلترا فى القرن السابع عشر. جون لوك يقول إننا نعرف ما نعرفه عن طريق التجربة واستخدام الحواس فقط. وجاء بعده جورج بيركلي(1685-1753م) ثم دافيد هيوم(1711-1776م)، ليقولا نفس الشئ.

منذ البداية، والفلاسفة التجريبيون لا يؤمنون بقدرة العقل وحده على معرفة الحقائق. لا يثقون فى كلام ديكارت: "أنا أفكر، إذن أنا موجود". التفكير وحده غير كاف. علوم الرياضيات والمنطق والعلوم التى تعتمد على فروض واستنتاج فقط، بدون تجارب وقراءات، هي غير كافية لمعرف الحقيقة الكاملة. غير كافية لتفسير ما يجرى فى هذا الكون، أو لإثبات وجود الله والملائكة والشياطين والحياة الأخرى...إلخ.

التجريبيون لا يؤمنون بالغيبيات، وليس لديهم فلسفة ميتافيزيقية تبحث فى هذه المواضيع. فقط ما تدركه حواسنا ونراه ونسمعه ونشمه ونحسه هو الحقيقي. ما عدا ذلك لا يمكن الوثوق به.

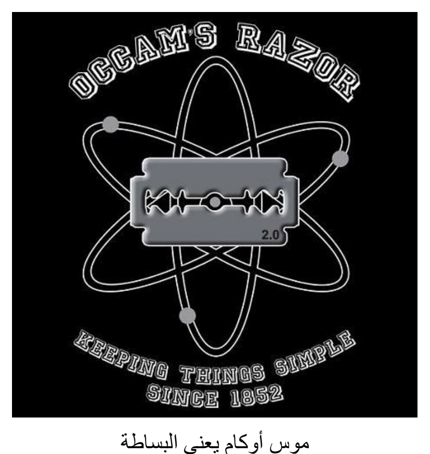
السؤال الثاني الذى يثيره التجريبيون هو قدرة العقل المحدودة على الفهم. فعقل الإنسان، مهما كانت قدرته، خلق لمساعدة الإنسان على متطلبات الحياة وبقاء النوع. ولم يخلق لمعرفة كل الحقائق.

يعتقد جون لوك أن الإنسان يولد وهو من الناحية المعرفية مثل الكراسة الفارغة أو السبورة الممسوحة. صفحة بيضاء لم يخط فيها قلم. بالتجربة والتجربة وحدها، يعرف

الإنسان مايعرف. الماء يغلى فى درجة حرارة 100 مئوية، لأن هذا ما نشاهده بالتجربة والقياس. وليس هناك طريقة أو أسلوب ما، يمكننا من استنتاج هذه المعلومة بدون تجربة.

فكرة أن الإنسان يولد ولديه معلومات فطرية غير مكتسبة، كما يقول ديكارت أو أفلاطون من قبله، هى فكرة خاطئة من أساسها. حجة جون لوك هى عدم وجود دليل مادى يدعم هذه المقولة.

كيف نعرف أن الإنسان يولد ولديه معلومات بالفطرة؟ وهل هذه المعلومات عند كل الناس أم لدى البعض منهم فقط؟ وما هى التجربة والقراءات التى تثبت هذا الكلام؟ قدرة الإنسان على التعلم لا تعني أنه مولود ولديه معلومات بالفطرة. كل ما لديه هي معلومات مكتسبة.



موس أوكام يعني البساطة

كان سلاح جون لوك في مهاجمة العقلانيين وديكارت، هو استخدامه لمبدأ "موس أوكام". وهو مبدأ منسوب إلى المنطقي الإنجليزي وليام أوكام (1288-1347م). يقول بأن شرح أي ظاهرة، يعتمد على أقل عدد من الفروض، وترك أي فرضية زائدة لا تساعد في تفسير الظاهرة أو النظرية.

فمثلا لو استيقظنا في الصباح الباكر لنجد وسط الحقول

دائرة كبيرة مرسومة . النباتات داخل الدائرة مضغوطة بآلة حادة. الآن لدينا نظريتان في تفسير ما حدث:

النظرية الأولى، هي أن سكان الكواكب الأخري، هبطت علينا من السماء أثناء الليل في طبق طائر، ثم غادرت المكان دون أن يشعر بها أحد. الدائرة بفعل ضغط الطبق الطائر على النباتات داخل الدائرة.

النظرية الثانية، هي أن بعض المشاغبين من السكان أتوا أثناء الليل، وقاموا برسم الدائرة بإستخدام حبل طويل، ثم قاموا بالضغط بآلة ثقيلة مثل التي تستخدم في رصف الشوارع على النباتات داخل الدائرة، حتي تبدو محيرة للمشاهدين.

أيي النظريتين أقرب إلى الصحة؟ يخبرنا مبدأ أوكهام بأن النظرية الأولي أكثر تعقيدا. لأنها تستلزم وجود سكان الكواكب الأخري، وزيارتهم إلى كوكب الأرض وهذا لم يثبت بعد بالدليل المادي.

أما النظرية الثانية، فهي أبسط ولا تعتمد على فروض لم يثبت صحتها بعد. إذن النظرية الثانية هي النظرية التي يجب أن نأخذ بها. مبدأ أوكهام يقول، لا يجب الذهاب أبعد من الضروري في تبرير الأحداث. أبسط النظريات هي أقربها إلى الصواب. أو كما تقول صباح في أحد أغنياتها: "البساطة البساطة ياعيني على البساطة".

دعنا نقول بأن المخ عند الولادة عبارة عن ورقة بيضاء لم يخط فيها قلم. من أين أتت هذه المعلومات؟ يتساءل جون لوك. للإجابة على هذا السؤال أقول في كلمة واحدة: "التجربة". عن طريق الحواس، وما ترسله من إشارات للمخ.

الأفكار البسيطة، لا يمكن تقسيمها إلى أفكار أبسط منها. الأفكار البسيطة متمركزة في الحواس. إذا كان الشخص لا يفهم معني اللون الأصفر. فكل الذي يمكن عمله، هو الإشارة إلى شئ لونه أصفر، والقول "هذا هو اللون الأصفر". فوق هذه الأفكار البسيطة، قام جون لوك ببناء صرح المعرفة.

الأفكار المعقدة، تتكون من تركيبة أفكار بسيطة. معرفتنا بالتفاحة تتكون من اللون الأحمر والشكل الكروي والمذاق الحلو ...الخ. الأفكار المعقدة أيضا، نجدها عندما نقارن أو نوجد علاقات بين الأشياء، أو نقوم بالتجريد عندما نشعر بالامتنان أو الغضب من حدوث شئ معين.

ثم قام جون لوك بتقسيم الأفكار إلى ابتدائي وثانوي. وهو هنا يستعير من ديكارت وجاليليو، اللذان قاما بالإستعارة، هما أيضا، من ديموقريطس مكتشف النظرية الذرية قبل الميلاد.

الأفكار الابتدائية، تأتي من الصفات الخارجية للأشياء. أما الأفكار الثانوية، فلا توجد إلا في العقل. مثل الأصوات والطعم.

الصفات الحقيقية، هي صفات أشياء حقيقية. والأشياء الحقيقية تتكون من مادة وصورة. كل ما يوجد في هذا العالم، إما مادة أو صفات للمادة.

بالنسبة لديكارت، لا يمكننا فهم طبيعة المادة من المشاهدة فقط. لأن المشاهدة، تعطينا الصفات فقط. لهذا، نحتاج إلى معلومات فطرية تولد معنا لفهم طبيعة المادة. لأن المادة، أو الهيولي كما يسميها أرسطو، ليست لها صفات في حد ذاتها.

لكن جون لوك يرفض فكرة المعلومات الفطرية التي تولد معنا. المعرفة تأتي فقط عن طريق الحواس. فماذا يقول عن موضوع المادة؟ جون لوك يقول ما معناه، أنه لا يوجد أحد يفهم معني المادة.

يقول جون لوك، إن الفلاسفة الذين يحاولون شرح معني المادة، مثل الهنود الحمر الذين يقولون، إن الأرض يحملها فيل عظيم، والفيل يقف على ظهر سلحفاء، والسلحفاء تقف بدورها على ظهر شئ غير معروف.

لم يكن اهتمام جون لوك منصبا فقط على فرع الفلسفة الخاص بالمعرفة (إبيستيمولوجيا)، لكنه كان مهتما أيضا بالفرع الخاص بالسياسة.

في رسالتين كتبهما جون لوك عن الحكومة، قام مثل هوبز من قبل بمقارنة القوانين السياسية التي تحكم الدولة، بالقوانين الطبيعية التي توجد في الغابة. إلا أن القوانين الطبيعية عند جون لوك، تختلف اختلافا بينا عنها عند هوبز.

عند هوبز، لا توجد عدالة أو ظلم. ولا يوجد صح أو خطأ بالنسبة للقوانين الطبيعية. لا يوجد إرث أو ملكية خاصة، هذا لي وذاك لك. كل شئ مباح طالما يخدم فرص البقاء ومواصلة الحياة. تستطيع أن تحصل على ما يمكنك الحصول عليه، طالما تستطيع أن تبقيه بالقوة معك. تماما كما يحدث بالنسبة لإسرائيل والأراضي الفلسطينية، وموضوع قنص السلطة في البلاد العربية والإسلامية.

عندما يقتل الأسد فريسته، لا يعتبر هذا قتل أو شئ مريع قد وقع. إنما هو مجرد عمل "روتيني" لإحضار وجبة غذاء يومية. لا أكثر ولا أقل. مثل ذهابنا للسوبر ماركت لشراء ما يلزمنا من حوائج. الحق الطبيعي عند هوبز، هو حق الحياة ولا يوجد حق غيره. كل شئ مباح في سبيل أن نبقى أحياء.

لكن الحق الطبيعي عند لوك يختلف. فهو يمثل حقوق طبيعية للإنسان. الحق الطبيعي، هو حقنا في أن نحيا، وأن نحيا حياة كريمة وفي صحة جيدة. وحقنا في الحرية الكاملة، وفي الملكية الخاصة.

كان هوبز يعتقد أن غريزة حب البقاء هي التي تولد هذا الحق. الله عند هوبز، لا يتدخل في هذه الأمور. لأن هوبز أراد أن يبتعد عن فلسفات القرون الوسطى، التي تفترض كلها وجود الله. أما الحقوق الطبيعية عند لوك، فتأتي من الأخلاق ومن الله، ولا تأتي من الغريزة فقط.

لقد وهبنا الله الأرض. فالأرض لمن يعمرها ويستصلحها ويزرعها. إذا قمت باستصلاح قطعة أرض في الصحراء، ورويتها من عرقك. فهي تصبح ملكك كما يقول جون لوك. هذا حق طبيعي لك.

إذا قمت ببناء منزل من اللبن الآتي من تراب الأرض، أو قمت بقطع الأشجار لبناء منزل. فهذا المنزل هو لك. أنت مالكه دون غيرك. وهذا حق طبيعي لك.

الإنسان له الحق في جمع ممتلكاته كحق طبيعي بالشروط الآتية:

1- أنها لا تفسد من التراكم
2- الباقي يكفي الآخرين
3- تراكم الممتلكات لا يضر بالغير

بالنسبة لجون لوك، الدولة يجب عليها أن تقوم بحماية الحقوق الطبيعية لمواطنيها. الحكومة الجيدة هي التي تضمن الحقوق الطبيعية وتعليها. الحكومة الرديئة هي التي تهمل هذه الحقوق. الحكومة الشريرة هي التي تعتدي على هذه الحقوق الطبيعية.

العقد الاجتماعي عند جون لوك يقول، بأن كل المواطنين تقبل بأن تحكم بحكومة منتخبة بالأغلبية، طالما هذه الحكومة تقوم بحماية الحقوق الطبيعية للمواطنين. حكم الطغاة غير قانوني، ويجب الإطاحة به. لوك هنا يختلف عن هوبز، في أنه يجعل الثورة على الطغاة عملا مشروعا، بل واجبا.

يعتبر جون لوك أبو النظرية الليبرالية لدولة الحق والقانون. لقد دافع عن حق الملكية والحرية الفردية. هو القائل: "حريتي تنتهي عندما تبتدئ حرية الآخرين". الحرية عند جون لوك، لا تعني الإباحية. إنما تعني المسؤولية.

على الناس أن يحافظوا على حياتهم، لأنها هبة من الله. وعليهم أن يحترموا حياة بعضهم البعض وملكيتهم الخاصة. وإلا يحدث الاطراب الذي يؤدي إلى تدمير الحياة الاجتماعية.

العنف مرفوض في المجتمع الليبرالي القائم على العقل والاحترام المتبادل. وعلى الناس أن تحترم المواثيق والعهود حتي لا يخرب المجتمع وينهار.

كانت أفكار جون لوك وراء الثورة الإنجليزية عام 1688م، التي أسست، ولأول مرة في التاريخ، دولة الحق والقانون. بذلك تكون انجلترا قد سبقت فرنسا بمئة سنة إلى النظام الديموقراطي الليبرالي الحر. لهذا السبب، مجدها فولتير في كتابه "رسائل عن الإنجليز"، بعد أن زارها عام 1728م، ورأي ما بلغته من تقدم سياسي وإجتماعي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، استخدموا نظرية جون لوك وقاموا بإدماجها في وثيقة "إعلان الاستقلال" والدستور الأمريكي.

أحسن ما في الولايات المتحدة من تقدم ونظام حكم، قد أتي من أحسن الأفكار في نظرية جون لوك السياسية. وأسوأ ما في التجربة الأمريكية، يأتي من أسوأ ما في نظرية جون لوك. الولايات المتحدة، هي نظرية جون لوك في الحكم، وتجربته العظيمة.

9

عمانويل كانط


كانط

عمانويل كانط، يعتبر من أعظم فلاسفة العصر الحديث. قسم الفلسفة، مثلما فعل سقراط قديما، إلى قسمين: ما قبله وما بعده. هو واضع الفكر الغربي الحديث. ساهم في عصر التنوير الأوربي، الذي أوصله بفلسفته إلى منتهاه.

كتب "نقد العقل المحض" عام 1781م، و"نقد العقل العملي" عام 1788م". في مجال الجمال، كتب "نقد ملكة الحكم" عام 1790م. ثم "الدين في حدود العقل وحده" عام 1793م.

تقدمت الفلسفة الغربية بسبب كانط تقدما كبيرا، وتبعه فشته، شلنج، هيجل، راينهولد، والكانطية الجديدة.

ولد عمانويل كانط (1724-1804م) في مدينة كونيسبرج في بروسيا الشرقية، كالينجراد حاليا. الابن الرابع لتسعة أطفال. مات ثلاثة منهم وهم أطفال. ماتت أمه وهو في سن الثالثة عشر. أمه كانت أول من أدرك مواهبه العقلية. كان والده يعمل سرّاجا. توفى عندما كان كانط في الثانية والعشرين من عمره. قضى كانط طفولته في محيط ديني متشدد.

التحق كانط بمعهد فريدريك الديني من عام 1732م حتي عام 1740م. هناك، درس النحو وفقه اللغة، مصحوبا بنظام لاهوتي صارم. كان معارضا للاحتفالات والطقوس الدينية. من رأيه أنه: "لا الشهادة بالإيمان، ولا التوسل بالدعاء، ولا الطقوس الدينية،

يمكن أن تساعدك في الظفر بالخلاص ورضاء الرب. الدعاء والضراعة هما نوعان من المداهنة والتملق إلى الله!"

التحق كانط بعد ذلك بقسم الفلسفة بجامعة كونيسبرج. كان منهجها الدراسي يشمل، إلى جانب الفلسفة، علم الطبيعة وعلم الميكانيكا لإسحق نيوتن، والجغرافيا. ثم صار أستاذا في الجامعة، ومديرا لها. في مدينة كونيسبرج، كتب جميع مؤلفاته، وتوفى فيها عام 1804م. لم يكن فليسوفا فقط، بل كان أيضا عالما كبيرا في الأنتروبولوجيا والجغرافيا الطبيعية والفلك.

كان كانط أستاذا محترما، كرس كل وقته للعلم. لم يكن يشغله عن العلم والفلسفة شئ آخر. لم يتزوج، وكان ملتزما إلى حد الصرامة بالنظام وترتيب الوقت. إلى درجة أن جيرانه كانوا يقومون بضبط ساعاتهم، عندما يرونه أثناء تمشيته وقت العصاري.

يعتبر من مدرسة ليبنيز، ولم يجد في بادئ الأمر ما يدعو للشك في منهجه العقلاني. إلى أن وقع في يده، عندما كان كانط في وسط العمر، نسخة من فلسفة دافيد هيوم التجريبية. قرأ كانط النسخة.

حسب تعبير كانط، "قراءة فلسفة هيوم، أيقظته من سبات عميق". لقد تحقق من أن حجة هيوم القوية، قد قوضت كل شئ كان كانط يؤمن به. فأيقن أنه لن يحدث أي تقدم في الفلسفة، قبل الرد على حجج هيوم وتفنيدها.

نظرا لأهمية فلسفة كانط في فهم العقل الغربي، وفهم الفلاسفة الذي أتوا من بعده حتي العصر الحديث، سوف نأخذ الوقت الكافي لتتبع أفكاره وتبسيطها بقدر الإمكان. فالرجا عمل فنجال قهوة أو كوبا من الشاي، مع خلفية موسيقية هادئة (موسيقى باخ أو موزارت أو أغنية لأم كلثوم أو فيروز).

لقد دمر هيوم الفكر العقلاني تماما ولم يبق منه سوي قراءات حسية بسيطة تأتينا عن طريق الحواس. فكيف تسنى لكانط أن يرم الصدع، ويصلح ما أفسده هيوم. لقد فعل ذلك عن طريق المصالحة والوئام. عن طريق تزاوج الفكر العقلاني بالفكر التجريبي.

لقد أخذ كانط أفضل ما في الفكر العقلاني، وأفضل ما عند هيوم. وعمل منهما فلسفته العظيمة. هذا ما يجب فعله في بلادنا أيضا. نأخذ أحسن ما في الحضارة الغربية، وأحسن ما في تراثنا العربي والإسلامي. لكي نصنع منهما حضارة جديدة.

تبقينا على قيد الحياة. في هذا العالم المطرب، الذي لن يبقى فيه إلا الأصلح. شئنا أم أبينا.

في كتابه الهام، "نقد العقل المحض"، تقبل كانط التفرقة بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية. القضايا أو الجمل التحليلية (Analytic)، تتسم بالخواص الآتية:

1- نفيها يؤدي إلى تعارض، (كل العوانس نساء)، النفي (ليست كل العوانس نساء) يؤدي إلى تعارض. لأن هذا يعني أن بعض العوانس ليست نساء.
2- لا تحتاج إلى خبرة سابقة (Priori)
3- صحيحة بالتعريف (المثلث له ثلاثة أضلاع)
4- صحتها لازمة، أي أنها لا يمكن أن تكون غير صحيحة (1+1=2)

القضايا التركيبية (Synthetic)، تتصف بالخواص الآتية:

1- نفيها لا يؤدي إلى تعارض (ارتفاع الغرفة 4 أمتار)
2- تحتاج إلى خبرة سابقة (Posteriori)
3- ليست تعريف
4- صحتها ليست ضرورية. ممكن أن تكون صحيحة أو لا.

هنا يتفق كانط مع هيوم في أن كل القضايا التحليلية، أي العقلية والمعلومة بالفطرة (Priori)، هي قضايا لا تحتاج إلى خبرة سابقة لإثبات صحتها.

كل القضايا المعلومة بالتجربة، هي قضايا تركيبية (Synthetic). لكن يختلف هنا مع هيوم في أن العكس غير صحيح. من هنا يبدأ كانط. كانط يقول، أنه هناك بعض القضايا التركيبية ، هي أيضا لا تتطلب خبرة سابقة (Priori). ما معنى هذا الكلام؟

هذا كلام يعتبر كفر بالنسبة للتجريبيين. قضايا تركيبية يعني تعتمد على الحواس في إثبات صحتها (Posteriori)، فكيف تقول أنها لا تتطلب خبرة سابقة؟

لإثبات ذلك، كان على كانط أن يأتي بمثال يوضح به وجود قضية تركيبية، لا تعتمد على خبرة السابقة في برهانها. بذلك، يمكن الرد على هيوم. وبذلك، تعود للفلسفة والعلوم والأديان والفطرة السليمة (Common Sense) مكانتها السابقة.

هيوم، قام بقسمة الفهم الإنساني إلى جزئين. أبيض وأسود. عقلي وتجريبي. ثم قام بإلغاء الفكر العقلي من قاموسنا. لكننا نجد هنا أن كانط، يحاول مزج الإثنين عن طريق القضايا التركيبية التي لا تحتاج إلى خبرة سابقة في برهانها (Priori).

يقول كانط أنه وجد هذه القضايا في علوم الرياضيات والفيزياء. فمثلا، نظرية فيثاغورث في هندسة إقليدس، تعتمد على نظريات أخرى في تطابق المثلثات.

نظريات تطابق المثلثات، تعتمد هي أيضا، على نظريات أخرى. ونستمر هكذا إلى أن نصل إلى بديهيات أساسية، نقبل صحتها بدون برهان. مثل البديهية التي تقول: "من نقطتين معلومتين، يمر مستقيم واحد". هندسة إقليدس كلها مؤسسة على خمس بديهيات ليس لها برهان.

قبول البديهية بدون برهان، يعتمد على تجارب وملاحظات سابقة. لأننا تعودنا أن نري خطا واحدا يمر بين نقطتين في نفس المستوى. فهي لذلك، تعتبر قضايا تركيبية.

الآن لدينا نظرية فيثاغورث، التي تعتمد خطوات إثباتها كلها على العقل. لكن خطوات الإثبات مؤسسة على بديهيات. هذه البديهيات، هي قضايا تركيبية. من ثم تكون نظرية فيثاغورث، هي ما يبحث عنه كانط. قضايا تركيبية تعتمد على العقل في برهانها (Priori).

بدأ كانط بتقسيم وظائف العقل إلى ثلاث وظائف. هي:

1- الإدراك الحسي
2- الفهم
3- الحجة

كيف يحدث الإدراك الحسي؟ وكيف يمكننا قول معلومة ما مثل: "ارتفاع الغرفة 4 أمتار"، أو "سيصل القطار بعد ساعة"، إذا لم يكن لدينا إدراكا حسيا بالفراغ، وبالزمن.

جملة مثل "القطة فوق الحصيرة"، تعني ضمنا أن "القطة في المكان والزمان". الجملة الأولي لا يمكن أن تكون صحيحة إلا بعد صحة الجملة الثانية. هل يمكن أن يكون لدينا قطة فوق حصيرة بدون أن نعرف أين ومتى؟

الجملة الثانية، "القطة في المكان والزمان"، ليست تحليلية، لأنه يمكن تكذيبها، والجمل التحليلية لايمكن تكذيبها. هي أيضا لا تعتمد على قراءات حسية، لأن المكان والزمان لا نشعر بهما عن طريق الحواس. إذن، هي حسب رأي كانط، جملة تركيبية فطرية (Priori).

تحليل كانط، أوصله إلى مفهوم المكان والزمان. فهما ليسا صفتين من صفات العالم الخارجي. لكنهما، أي المكان والزمان، صفتان من صفات العقل وركنان أساسيان من أركان بنائه.

في فلسفة كانط، يقوم العقل بتحليل القراءات الحسية التي يستقبلها، سواء عن طريق العين أو الأذن أو باقي الحواس، ثم يصبغها بلغة المكان والزمان. المكان والزمان، هما النظارة العقلية التي نستقبل بها العالم الخارجي.

المكان والزمان في عقل الإنسان، ليسا مثل قطع الشطرنج المادية. لكنهما مثل قواعد اللعبة، أو برامج الكمبيوتر. التي بدون وجودها لن يكون هناك لعبة شطرنج. بدون العقل، لن يكون هناك مكان أو زمان.

الوظيفة الثانية للعقل، هي الفهم. القدرة على فهم حقائق هذا العالم. هذه النخلة أعلى من هذا البيت. القطة فوق الحصيرة وليست الحصيرة فوق القطة. الطريق خالي أو مزدحم.

مثل هذه المعلومات، هي من صميم وظائف الفهم. ثم قام كانط، بتقسيم الفهم إلى فئات. مثلا، فئة تشمل الفرد والمجموع، وفئة تشمل السببية،... إلخ.

فئات الفهم هذه، ليست أشياء موجودة في الطبيعة. لكنها من اختراع العقل، ولا توجد في العالم الخارجي. لم يجدها كانط عندما قام بالبحث عنها. لذلك، هي قضايا تركيبية، لا تعتمد على التجربة (Priori).

نظرية كانط، تذكرنا بمفهوم أفلاطون وديكارت للمعرفة، التي تقول، إن المعلومات تولد مع الإنسان، "المثُل" أو "الأفكار". والتي تظل كامنة في الذهن حتي يستخرجها الإنسان بالتفكير.

لكن هناك فرق جوهري بين النظريتين. كانط، لا يفترض وجود الأفكار جاهزة في المخ عند الولادة، لكنه يقول بأن العقل مكون بطريقة تسمح باستقبال المعلومات وتحليلها. أي مبرمج مثل برامج الكمبيوتر. تستقبل القراءات، ثم تقوم بتصنيفها وإجراء العمليات الحسابية عليها.

العقل يقوم بترتيب العالم الخارجي إلى أشياء. وهذا يعني أنه لا توجد في العالم الخارجي مادة. العقل يفهم العالم الخارجي عن طريق سلسلة أحداث سببية. هذا يسبب ذاك. حتي لو لم يكن هناك شئ يبين سبب هذه الأحداث.

يقول كانط هنا، أن القراءات التي تأتي عن طريق الحواس وحدها، لا تستطيع أن تمدنا بالمعرفة في غياب الإدراك الحسي. الحواس محدودة. وبالتالي الإدراك الحسى محدود. كلام كانط يفهم ضمنا، أنه توجد حقيقة عليا، عقل الإنسان غير قادر على استيعابها.

معلومات الإنسان محدودة بما يسميه كانط، "العالم الظاهري" (Phenomenal World). العالم الذي نستطيع أن نستقبله ونتصوره ونتخيله ونشرحه ونحلله ونفكر فيه بعقولنا.

نحن فقط يمكننا معرفة العالم الخارجي الذي يأتي إلى عقولنا. من خلال نظارة المكان والزمان وفئات أو برامج الفهم. لذلك يقول كانط، على عكس هيوم، إن العلوم والفطرة السليمة (Common Sense)، لا تزال ممكنة. طالما هي تنحصر في العالم الظاهري.

لكن، لا شئ يمكن أن يقال عن الحقيقة العليا. إلا أنها موجودة. هذا يعني أن فهم الميتافيزيقا التقليدية منذ أفلاطون إلى ليبنيز، كان مستحيلا.

الوظيفة الثالثة للعقل، هي الحجة. افترضها كانط لكي تكون مسؤولة عن المفاهيم المجردة. مفاهيم لا تشكل بالحواس. مثل مفهوم الله والروح والملائكة، ...الخ. فهل يمكن للعقل فهم الحقيقة العليا وهذه المفاهيم؟ تأتي إجابة كانط، بلا.

الميتافيزيقا التقليدية كانت غير ممكنة، لأنها كانت توظف، بطريقة غير مناسبة، عناصر المكان والزمان والسببية لتفسير العالم المطلق. بينما هذه المفاهيم، تصلح فقط للتطبيق في العالم الظاهر الذي يمكننا أن ندركه بحواسنا.

هذا هو السبب في أن كل البراهين العقلية على وجود الله، كان مصيرها الفشل. وكل محاولات وصف الحقيقة العليا عن طريق مفهوم المادة، كان أيضا مصيرها الفشل.

نحن كبشر، يجب أن نكف عن البحث في طبيعة الله ومفاهيم مثل، العدالة، والخلود، والحرية. لأن كل هذه المفاهيم، فوق طاقة العقل البشري.

ثم يضيف كانط في نهاية بحثه "نقد العقل المحض"، ليست هناك ضرورة منطقية لرؤية العالم عن طريق مفاهيم مثل: الله، والخلود، والعدالة، والحرية، إلخ. لكن، العيش مع هذه المفاهيم ضروري لإسعاد البشرية. لأنه بدونها، سوف يفقد الكثيرون معنى الحياة.

إذا لم يعتقد الإنسان أنه حر في أفعاله، وأن هناك عدالة مطلقة سوف تنتصر في النهاية، في الدنيا أو الآخرة، سوف يفقد الإنسان الدافع والحماس لكي يواصل الحياة. لهذا حسب كلام كانط، الإنسان له الحق في الإيمان بالله والروح والخلود،...إلخ. لا لأسباب ميتافيزيقية، ولكن لفوائد عملية ضرورية. لأن هذا الإيمان، قد يجعلنا أفضل وأنجح وأقدر على مواجهة الحياة.

حاول كانط التفرقة بين المعرفة والإيمان. لكن منتقدي كانط، يتهمونه بأنه أخرج مفهوم "الله" والغيبيات من الباب، لكي يدخلهما من الشباك.

بعد "نقد العقل المحض"، كتب كانط عدة أعمال فلسفية عظيمة. منها "نقد العقل العملي"، و"أساسيات ميتافيزيقا القيم". كلا العملين يعالجان موضع الأخلاق. ويركزان على نية الإنسان والواجب الذي يجب أن يلتزم به في حياته.

نظرية كانط في الأخلاق، تبين تأثره بالفكر المسيحي. لكن محاولته جعل "الواجب" عملا منطقيا، وليس مجرد أوامر إلهية. وضعته بين مفكري عصر التنوير. حيث نجد أن سبب الأخلاق هنا علمي لا ديني.

القيم الخلقية يمكن استنتاجها بالعقل فقط. يقول كانط، علينا أن نتصرف كما لو كانت الحكمة من تصرفاتنا، هو عمل قوانين عالمية لكل الناس، بدون أن تتعارض مع المصلحة العامة.

نحن كمخلوقات عقلانية، من واجبنا طاعة هذا المبدأ. سوف أبسط فكرة كانط هذه في الأمثلة الآتية:

لنفرض أنك قد استلفت من صديق لك 5 جنيهات. ولنفترض أن الصديق لم يراع أصول الصداقة، وقام بالمطالبة بالمبلغ وملاحقتك ومضايقتك. مما جعلك تقول فى نفسك، لو قمت بقتل هذا الصديق الرزل، سيكف عن ملاحقتي، وأفوز بالخمسة جنيهات.

لكن كمعجب بفلسفة كانط وملتزم بأفكاره، سوف تختبر تعميم مبدأ القتل عالميا. وتسأل نفسك، ماذا يحدث لو لجأ كل واحد، إلى قتل الآخرين لتحقيق أغراضه؟ طبعا هذا جنون. لأن هذا لن يبقي أحدا يمكن أن نطبق عليه القانون الأخلاقي.

ماذا بالنسبة لنقيصة "الكذب"؟ هل يمكن أن أعمم مبدأ الكذب وأن أجعل منه مبدأ عالميا؟ كيف يستقيم أي شئ، لو كانت كل الناس شيمتها الكذب؟ الأخبار في الصحف ومحطات التليفزيون والراديو، كلها كذب في كذب. تصريحات المسؤولين كلها كذب. نصائح المحامي أو الطبيب، كلها كذب. هل يستقيم أي شئ؟

إذا كان القانون العالمي هو "كل واحد يقوم بالسرقة". هذا أيضا غير ممكن. لأنه سوف يخل بمبدأ الملكية الخاصة. ويصبح كل واحد، قادرا على الاحتفاظ بما في يده، طالما يستطيع الحفاظ عليه وحمايته. أي يجعلنا نعود إلى قانون الغاب.

يقول كانط، علينا أن نعامل الناس كما نحب أن يعاملوننا. تعاملنا يجب أن يكون غايات وليس وسائل. مبدأ ميكافيللي "الغاية تبرر الوسيلة" مرفوض تماما. لا تستغل الآخرين لما فيه مصلحتك. الأخلاق تشمل احترام كرامة وآدمية كل فرد كإنسان.

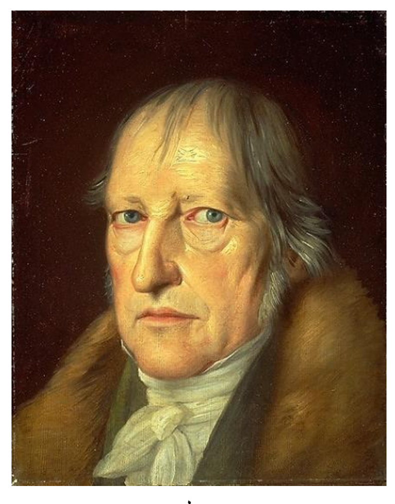
كانت المبادئ الأخلاقية لكانط، لها تأثير عملي كبير بالنسبة لقضايا المساواة والتفرقة بسبب الجنس أو الدين أو العرق. وكان كانط، حريصا على أن يجعل التمسك بالأخلاق القويمة، نوع من الواجب الإنساني. فعل الصواب كواجب إنساني، في رأي كانط، أفضل بكثير من فعل الصواب تحت تأثير الشفقة أو العطف.

مبادئ كانط الأخلاقية مستقاه من العقل، وليست من الكتب المقدسة. دافعها الواجب نحو الإنسانية، وليس الخوف من عذاب جهنم، أو الطمع في جنة الخلد. ولأن المعرفة

الإنسانية محدودة، كما يقول كانط، فالأخلاق يجب أن تتعدي النظرة الضيقة التي تنحصر في المنفعة الشخصية.

10

جدلية هيجل


هيجل

ولد جورج فيلهيلم فريدريش هيجل (1770-1831م) في مدينة اشتوتجارت بألمانيا. في نفس العام الذي ولد فيه الموسيقار الألماني بيتهوفن والشاعر الانجليزي الرومانسي وردزورث. كان الأخ الأكبر لثلاثة أولاد في أسرة متوسطة الحال. جذور عائلته نمساوية بروستانتية.

هاجرت الأسرة مثل غيرها من الأسر في القرن السادس عشر إلى ألمانيا، هربا من اضطهاد الكاثوليك للبروستانت. كان والد هيجل، موظفا حكوميا صغيرا. وكانت أمه شديدة الذكاء، محبة للتعلم على عكس نساء عصرها.

دخل هيجل المدرسة الأولية، وكانت والدته تشرف بنفسها على هذه المرحلة. ألحِق سنة 1775م بالمدرسة الرومانية. ثم ذهب إلى المدرسة الدينية الثانوية بمدينة اشتوتجارت سنة 1780م.

أثناء هذه الفترة، توفت أمه سنة 1783م، وشرع في كتابة مذكرات بعنوان "حوار بين أوكتاف وأنطوان وليبيدوس" سنة 1785م، وكتاب بعنوان "الديانة لدي الإغريق والرومان" سنة 1787م.

نال هيجل دبلوم الدراسة الثانوية سنة 1788م، ثم التحق بالمعهد الأسقفي في توبينجين لدراسة البروتستانتية بمنحة حكومية. في نفس العام، أنجز بحثا عن "بعض الفوارق والإختلافات بين الشعراء القدماء والمحدثين".

حصل هيجل على شهادة التعليم الفلسفي من المعهد الأسقفي سنة 1790م. لكنه قرر سنة 1793م، التخلي عن عمله كقسيس، وممارسة التعليم في مدينة بيرن. أثناء هذه المدة، كان زميله في السكن الجامعي، هولديرلين، الذي أصبح فيما بعد شاعر ألمانيا العظيم، وكان زميله أيضا شيلنج، فيلسوف المستقبل.

بعد ذلك، مرت بهيجل فترة عصيبة، امتدت لسنوات عديدة. كان يكافح فيها للحصول على لقمة العيش واستكمال نظريته الفلسفية. أول وظيفة أكاديمية كمدرس فلسفة، كانت في جامعة جينا من سنة 1801م إلى 1807م. بدأ بالعمل كأستاذ غير متفرغ. يحصل على أجره من الطلبة الذين يحضرون محاضراته.

كانت تمر بالقارة الأوروبية وبأمريكا، خلال هذه الأيام من القرن الثامن عشر، أحداث هائلة. العالِم المشهور "وات" يقوم باستغلال البخار في الصناعة لأول مرة عام 1775م. الولايات المتحدة تعلن استقلالها عام 1776م. في نفس العام، يصدر كتاب آدم سميث "بحث في طبيعة وأسباب ثروة الأمم"، المعروف بالاسم المختصر "ثروة الأمم". جيبون، ينشر كتابه "انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية".

في عام 1778م، يموت جان جاك روسو. وينشر الفليسوف كانط كتابه "نقد العقل المحض" سنة 1781م. في نفس العام، تصدر مسرحية "اللصوص" لشيلر. في عام 1783م، ينجح لافوازيه في تحليل الماء. وأيضا يتم صهر الحديد وتشكيله بنجاح. في عام 1785م، أقيم أول مصنع نسيج في العالم باستخدام البخار.


الثورة الفرنسية

في عام 1789م، هبت الثورة الفرنسية، واحتل الثوار سجن الباستيل. وتم إعلان حقوق الإنسان والمواطن. وظهر كتاب بنتام "مبادئ الأخلاق والتشريع".

في عام 1790م، ظهر كتاب "نقد ملكة الحكم" للفليسوف كانط. في عام 1792م، ظهر كتاب فيشته عن "نقد الوحي بكل صوره". في عام 1793م،

ظهر كتابه عن "إسهامات في الثورة الفرنسية". في نفس العام، تم إعدام لويس السادس عشر، واختراع آلة حلج الأقطان.

في أكتوبر عام 1806م، سقطت مدينة جينا في يد نابليون بونابرت، واقتحم جنود بونابرت منزل هيجل. إلا أنه تحت هذه الظروف، أمكنه استكمال كتابه "ظاهريات الروح". وهو أعظم ما كُتِب في هذا الموضوع في الحضارة الغربية. لكنه كتاب صعب الفهم. من المستحيل استيعاب بعض أجزائه.

هذا ما كان يدور في العالم الغربي. فماذا كان يدور ياترى في عالمنا الشرقي. ولنأخذ مصر على سبيل المثال. لقد كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت تحتل مصر منذ عام 1798م. في نفس العام الذي جاءت فيه الحملة، خرج الجبرتي في 5 ديسمبر ليشاهد ما يفعله الفرنسيون لشق طرق حديثة في قلب العاصمة. فكتب لنا ما يلي:


عربة صغيرة بدت للجبرتي معجزة شيطانية

"فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن. كانوا يستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول، المساعدة في العمل وقلة التكلفة. كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع، عربات صغيرة. يداها الخشبيتان ممتدتان من الخلف، يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو حجارة من مقدمها بسهولة. بحيث تسع مقدار خمسة غلقان.

ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين، ويدفعها أمامه فتجري على عجلتها بأدنى مساعدة. إلى محل العمل. فيميلها بإحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة. كذلك لهم فؤوس محكمة الصنعة، متقنة الوضع. غالبا الصناع من جنسهم، لا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية. على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة."

هكذا كانت تعيش مصر وباقى البلدان العربية، كما يقول كاتبنا الكبير المرحوم يحى حقي، في عالمها المقفل . إلى درجة أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة، بدت للجبرتي كأنها معجزة شيطانية.

عندما ذهب الجبرتي في اليوم نفسه، إلى المجمع العلمي الفرنسي بالقاهرة، وشاهد مكتبته، وحضر بعض التجارب الكيميائية والفيزيائية، التي هي أشبه بألعاب السحر في السيرك، كتب لنا ما يلي:

"من أغرب ما رأيته في ذلك المكان، أن بعض المقيمين به، أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياة المستخرجة. فصب منها شيئا في كأس. ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى. فغلي الماءان، وصعد منهما دخان ملون، حتى انقطع وجف ما في الكأس، وصار حجرا أصفر يابسا. أخذناه بأيدينا ونظرناه.

ثم فعل كذلك بمياة أخرى. فجمد حجرا أزرق, وبأخرى، فجمد حجرا أحمر ياقوتيا...وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة، في مقدار الشبر، ضيقة الفم. فغمسها في ماء قراح. وأدخل معها أخرى على غير هيئتها. وأنزلهما في الماء. وأتى آخر بفتيلة مشتعلة. وقربها من فم الزجاجة. فخرج ما فيها من هواء محبوس، وفرقع بصوت هائل. وغير ذلك، من أمور كثيرة، وبراهين حكيمة. تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع."

ويقول الرافعي عن الحالة الاقتصادية: " لقد أهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك، أمر الري وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن. فجفت الترع، وتلفت الأراضي، وتعطلت الزراعة، وفقد الأمن، وذهبت ثروة البلاد، وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة.

اضمحلت الصناعات والفنون، التي كانت تزدان بها في سالف العصور. وبدأت في الاضمحلال، بعد الفتح العثماني مباشرة. بسبب اضطراب الأحوال، وكثرة الفتن، وفقد الأمن، والإسراف في السلب والنهب. وكانت مصادرة أموال التجار، من أهم أسباب ركود الحركة التجارية. فاختفت رؤوس الأموال من أيدي الأهالي. وغلب عليهم الفقر. وصار الشعب إلى حالة محزنة من الضنك والفاقة."

وعن حالة المدارس، كتب على باشا مبارك : " أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها. وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها. وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة. فأخذوا مفارقتها. وصار ذلك يزيد عاما بعد عام. حتي انقطع التدريس فيها بالكلية. وبيعت كتبها وانتهبت.

ثم أخذت تتشعب وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها. فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها. حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة، إلى زاوية صغيرة. تراها مغلقة في أغلب الأيام. وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك. ولله عاقبة الأمور."

لقد أردت أن أسهب عن قصد في المقارنة بين حال الغرب وحال الشرق ممثلا في الحالة المصرية، أيام هيجل. حتى نفهم، لماذا تطور الفكر الغربي وظهرت به هذه الحركات السياسية والفلسفية والثقافية والفكرية العظيمة. بينما كان الشرق ولايزال، يغط في سبات عميق. مكبلا بالفكر الديني المتطرف والتخلف الشديد.

ما هي المدارس الفلسفية التي كانت معروفة أيام هيجل. لقد كانت توجد الفلسفة العقلانية الفرنسية يتزعمها ديكارت، والفلسفة التجريبية الإنجليزية يتزعمها هيوم. والفلسفة الألمانية، التي تزاوج بينهما، لكانط. كانت توجد أيضا حركة فكرية جديدة توصف بالرومانسية الألمانية.

لكن، ما هي الرومانسية الألمانية؟ الرومانسية الألمانية، لم تكن حركة جديدة تعتني بالسياسة ونظم الحكم، بقدر ما كانت حركة ثورية في عالم الأدب، والفلسفة والفنون التشكيلية والموسيقى والشعر.

لقد كانت طريقة جديدة للنظر إلى هذا العالم، نتج عنها طاقة إبداع خلاقة، تأثر بها المثقفون والفنانون الألمان. وجعلتهم يرفضون فلسفة التنوير التي تنحصر وتلتزم بالعقل فقط، وبالعلوم الرياضية وعلوم المنطق والقوانين العلمية.

فلسفة الأنوار، حسب رأي الرومانسيين، خُدعت بالتقدم الكبير المادي الذي أحرزته البشرية بتوظيفها للعلوم الحديثة في الصناعة والفلك والكيمياء، مثل قوانين نيوتن وكبلر وغيرها.

لكن ما هو البديل الذي يقدمه الرومانسيون لفلسفة الأنوار؟ البداية جاءت مع فلسفة كانط. كانط يقول، إننا غير قادرين على معرفة كل الحقيقة. لأن معرفتنا محدودة بقدرات حواسنا. هناك حقيقة عليا، يعجز العقل عن إدراكها.

كيف الوصول إلى هذه الحقيقة العليا التي لا أستطيع إدراكها بالعقل وحده؟ يجيب الرومانسيون، بالنظر داخل أغوار النفس. لن تجد الحقيقة في العالم الخارجي، الذي

يعتمد وجوده على الحواس. إنما الحقيقة والحقيقة العليا، نجدهما في الداخل. داخل النفس. نحن هنا نشم رائحة أفلوطين وإخوان الصفا ومشايخ الطرق الصوفية.

داخل أغوار النفس، يمكن معرفة الله ومعرفة الحقيقة ومعرفة سبب وجود الإنسان على هذه الأرض. وليس بالنظر إلى العالم الخارجي عن طريق العلوم والمنطق والفيزياء. إذا نظرت من الشباك، لن تجد الحقيقة التي تبحث عنها.

مثل الوجوديين الفرنسيين في القرن العشرين، استخدم الرومانسيون الألمان الأدب والرواية والدراما والمقالة والقصة القصيرة والموسيقى والشعر، للتعبير عن أغوار النفس الداخلية والشعور الإنساني، وشجبوا أي فلسفة أخري، تهمل التأمل في أغوار النفس البشرية.

العلوم الحديثة، لم تنجح في كشف كل خبايا النفس البشرية. العالم لا يزال يكتنفه كثيرا من الغموض. التخاطب عن بعد. والأحلام التي تتحقق بالضبط. والنبوءات التي تصدق. والتجارب الخاصة التي يمر بها بعض الأفراد. وقراءة الأفكار بدون كلام. والوقوع في الحب. وموضوع الروح والحياة الأخري والله والملائكة والشياطين...الخ.

لذلك بحث الرومانسيون عن فلسفة تجيب على كل هذه الأسئلة. لكي نفهم هذا العالم ونجيب على هذه الأسئلة، علينا أن نلجأ إلى التجربة الروحية. ولا نعتمد فقط على التجربة الحسية والقراءات التي تدونها أجهزتنا وحواسنا. التي تعتمد على التحليل العقلي والإستنتاج.

يجب علينا استكشاف الجانب المعتم والمناطق الغير معروفة داخل نفوسنا. ومعرفة أسرار مناطق الشعور والخيال. علينا أن نكتشف روح الإنسان والطريقة التي تتعامل بها مع هذا العالم، والمجتمع والتاريخ والله. على الفليسوف ألا يتقيد بالحدود الضيقة للعلوم والمنطق، ويبحث عن الزهرة الزرقاء التي جاءت في شعر "نوفاليس". والتي عبر بها عن الحنين لحب الجمال بدون حدود.

بالنسبة للرومانسيين، الحقيقة العليا وطبيعة الإنسان، لا تعتمد على الحجة والعقلانية فقط، لكن أيضا على إرادة الفرد. إرادة الفرد، تتشوق إلى تحقيق الذات.

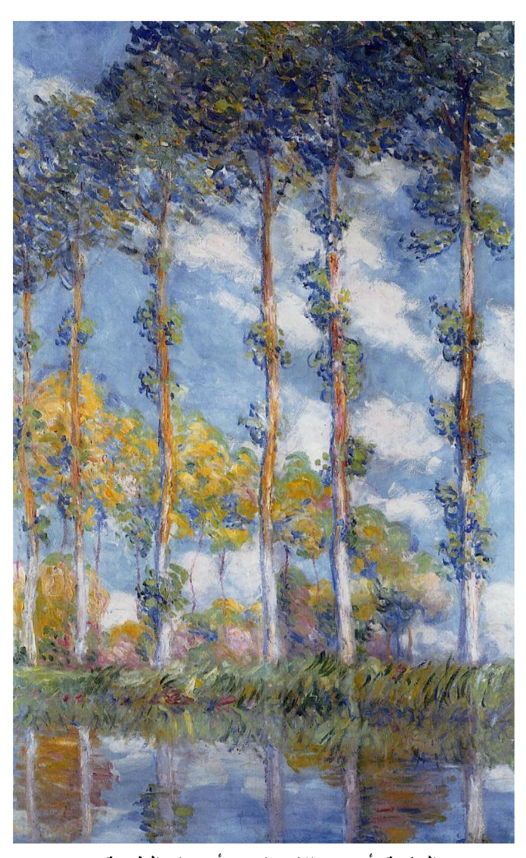
إرادة الفرد، تبحث عن الكمال. تحاول الوصول إليه عن طريق التجربة الخاصة والتجربة الروحية، أو عن طريق أحداث التاريخ وحركة الثقافة والفكر. تكافح بإستمرار مثل

شخصية "فاوست" في مسرحية جوته. دافعها الوحيد، الرغبة العارمة للوصول للحقيقة. مما جعله يبيع روحه للشيطان، ثمنا لذلك.

يقول الرومانسيون، إن الأشياء الحقيقية، هي في الواقع أشياء روحية. وليست مادية، كما يقول فلاسفة التنوير. الطبيعة، في أدب الرومانسيين، أشياء روحية. الطبيعة ليست ساعة كبيرة ميكانيكية. تعمل بقوانين نيوتن. لكنها شئ حي ينبض بالحياة، له إرادة.

الطبيعة هي أعظم معلم. التقارب مع الطبيعة، يؤدي إلى الحكمة والسعادة. هذه رسالة الشاعر الإنجليزي الرومانسي وردزورث، عندما قال ما معناه:

" إن نبضة واحدة من غابة ربيعية
كفيلة بأن تخبرنا عن طبيعة الإنسان
وعن الخير والشر
أضعاف ما يمكن أن نتعلمه من الحكماء كافة"


الحكمة تأتي من الارتماء في أحضان الطبيعة

لقد كان وردزورث، يعتقد بأن الحكمة، لا تأتي عن طريق القراءة والدراسة والشهادات العلمية، لكن عن طريق الاقتراب والارتماء في أحضان الطبيعة. كذلك يقول شاعرنا العظيم جبران خليل جبران في نفس المعنى:

أعطني الناي وغني فالغنا سر الوجود
وأنين الناي يبقى بعد أن يفنى الوجود
هل اتخذت الغاب مثلي منزلا دون القصور
فتتبعت السواقي وتسلقت الصخور
هل تحممت بعطر وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمرا في كؤوس من أثير
هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب
والعناقيد تدلت كثريات الذهب
هل فرشت العشب ليلا وتلحفت الفضاء
زاهدا في ما سيأتي ناسيا ما قد مضى
اعطني الناي وغني وانسى داء ودواء
أنما الناس سطور كتبت لكن بماء

بالنسبة لفلاسفة عصر التنوير، الله هو المهندس المصمم لهذا العالم كآلة ميكانيكية. لكن بالنسبة للرومانسيين، الله هو روح هذا العالم. لا يوجد خارجه، ولكن يوجد في كل مكان.

الموضوع الأخير بالنسبة للرومانسية، هو إيمانها بالاستقطاب. كل الأمور، لها وجه مقابل، أو وجه آخر. أي تجربة يمر بها الرومانسي، لها وجهان. لو كانت كل الأمور لها وجه واحد، لأصبحت الأمور جامدة صلبة قاسية. ويصبح الإنسان أسير أفكاره.

هذه مشكلة الفكر المتعصب. لا يعترف برأي الآخر. لذلك، يصبح المتعصب أسير أفكاره هو. الرومانسية تحارب أحادية التفكير. حتي لا يصبح الفرد، عبدا لما يعتقد. أو كما قال فاوست: "طالما أنا ساكن راكد، فأنا مستعبد".

عندما دخل هيجل المعهد الديني في توبينجين لدراسة الفلسفة والدين لمدة خمس سنوات. كانت أفكار الرومانسيين في كل مكان. فأي الأفكار الفلسفية الموجودة كان لها التأثير القوي على هيجل؟

هل هي الفلسفة الرومانسية، التي تؤمن بالروح والإرادة والتعدد؟ أم الفلسفة العقلانية أم التجريبية، التي تؤمن كل منها بالعلوم والتقدم والحقوق الطبيعية للإنسان؟ أم فلسفة كانط التي هي مزج بين العقلانية والتجريبية؟ الإجابة هي: لقد تأثر هيجل بكل هذه الفلسفات مجتمعة.

لقد تأثر هيجل بالرومانسية، بالرغم من هجومه عليها في بعض الأحيان. لقد كان يبحث هيجل عن فلسفة غير مقيدة بحدود. تشمل كل تجارب الإنسان وخبراته. تدمج كل المعارف: علوم وتاريخ ودين وسياسة وفن وأدب وموسيقى وشعر.

كيف نجمع كل هذه الخبرات في نظام فلسفي واحد؟ وكيف نضعها كلها في نظرية منطقية واحدة بدون تعارض؟ لقد فعل ذلك، عن طريق مفهوم العقل المطلق أو الروح.

كيف يجمع هيجل كل هذه الخبرات، بما فيها من تناقض وتوتر وتشاحن وتمازج وتجديد وتدمير وإبداع. كيف نضع كل ذلك في سياق وحدة عقلانية شاملة؟ لقد فعل ذلك عن طريق نظريته في "الجدلية".

لكن، هذه الفلسفة الشاملة التي تبغي فهم الحقيقة، هي فلسفة ميتافيزيقية. هنا نجد هيجل قد وقع في مشكلة. هل الميتافيزيقا لا تزال ممكنة؟ التجريبيون، بدءاً من جون لوك، كان موقفهم صعب بالنسبة للأمور الميتافيزيقية.

الميتافيزيقا تفسر معني الوجود والمادة، ولكن كما يقول لوك، هل لدينا دليل أو تجارب عملية تثبت حقيقة هذه القضايا الميتافيزيقية؟ وهل عقل الإنسان قادر على فهم الحقيقة العليا، أو استدراك مثل هذه الأمور؟

كانت نصيحة جون لوك لباقي الفلاسفة: "لا تحاولوا بناء صرح كبير ميتافيزيقي" يكفيكم، تنقية الميتافيزيقا القديمة من الشوائب والتلوث.

قام دافيد هيوم التجريبي أيضا، بمهاجمة الميتافيزيقا. الميتافيزيقا بالنسبة لهيوم، عديمة الفائدة، ومسألة تضييع وقت. لأنها ببساطة مسائل لا تدركها الحواس، ولا تخضع للتجربة. الميتافيزيقا تبحث في أشياء خارج نطاق الحواس، مجرد وهم. لذلك فهي غير ممكنة، ويجب التخلص منها وإلقاؤها في النار.

ثم تذهب الفلسفة الغربية إلى كانط، الذي يجاهد ضد التجريبيين. ويدافع عن صحة العلوم. لكن دفاع كانط عن العلوم، لم يكن بالمجان. الثمن هو أننا لا يمكننا أن نعرف حقيقة الأشياء ولكن ظاهرها فقط.

نحن يمكننا معرفة العالم الخارجي الذي يأتي إلى عقولنا. من خلال نظارة المكان والزمان وفئات أو برامج الفهم الموجودة داخل عقولنا. الميتافيزيقا هنا، هي محاولة معرفة الأشياء على حقيقتها. وهذا شئ مستحيل من وجهة نظر كانط. معرفة الحقيقة، غير معروفة لنا.

لكن الميتافيزيقا بالنسبة لهيجل ممكنة. لقد أخذ هيجل من كانط، كون المعرفة تأتي عن طريق العقل، عن طريق نظارة المكان والزمان وفئات أو برامج الفهم. لكن هيجل له ثلاث اعتراضات علي نظرية كانط في المعرفة.

الاعتراض الأول، هو أن برامج الفهم محدودة عند كانط، لكنها غير محدودة عند هيجل. الاعتراض الثاني، هو أن برامج الفهم هذه، لا تقتصر على الحواس فقط كما يقول كانط. الاعتراض الثالث، هو أن المعرفة ليست ظاهرية، كما يقول كانط. لقد أراد هيجل

مزج أفكار كانط بأفكار الرومانسيين، حتي يتخطى حدود المعرفة التي وضعها كانط في فلسفته.

لكن، ما هي نظرية هيجل الجديدة عن الحقيقة؟ لقد وجد هيجل طريقة يجمع بها ثقافة الإنسان وكل علومه وتجاربه الروحية المترامية من فنون وآداب ودين وسياسة وتاريخ، بالإضافة إلى تجاربه الشخصية، في نظرية واحدة. هذه النظرية، توحد كل المعرفة في عقل مطلق أو روح سرمدية أو الله، هي بمثابة الحقيقة العليا.

الحقيقة هنا، مفهوم عام شامل معقد، لمفاهيم عقلية تكوّن العقل المطلق أو الله. الحقيقة عقلانية، والعقلانية حقيقة. الحقيقي هنا حسب كلام هيجل، هو كل ما يدركه العقل، وليس كل ما تدركه الحواس، كما يقول التتجريبيون. وأيضا، كل شئ صادق، يمكن للعقل أن يدركه.

نظرية هيجل عن الحقيقة، هي نظرية ميتافيزيقية تسمى المثالية المجردة. المثالية بصفة عامة، هي اسم لنوع من الميتافيزيقيا، يقول بأن الحقيقة لها خواص عقلانية ومنطقية وروحية.

الحقيقة هي هذا التركيب العام للمفاهيم العقلانية. أي التي يمكن أن يدركها العقل. مثل أفلاطون، يقول هيجل، إن ما يفهم بالعقل والتصورات والأفكار هي الحقيقة. الله عند هيجل، هو الحقيقة العليا والصدق. يتجلى لعقولنا المحدودة خلال كل مجالات المعرفة وتجاربنا المختلفة.

ما هو الوجود؟ أي ما هي الأشياء الحقيقية الموجودة في هذا العالم، من مادة وخلايا ومجتمعات...إلخ؟ هل هذه الصور من الوجود كلها، لها وجود حقيقي؟ بالنسبة لهيجل، الشئ العقلاني، أي الذي يدركه العقل فقط هو الحقيقي.

الشئ الحقيقي لا يختلف عن الشئ الموجود. هو نفس الشئ. الفرق بين الحقيقي والموجود، هو أن الموجود أكثر فهما بالنسبة لنا. المثالية المطلقة لهيجل، تخترق هذا الوجود لكي تجد العقلانية والصدق.

هنا يمكننا أن نري الفرق بين مفهوم المُثُل أو الأفكار عند أفلاطون، ومفهوم التصورات عند هيجل. عند أفلاطون، الأفكار توجد مستقلة عن الشخص أو الوجود. وهذا يشكل

مشكلة بالنسبة لفلسفة أفلاطون. بالنسبة لهيجل، مفهوم التصورات العقلانية، لا ينفصل عن الوجود وعالم الأشياء.

يختلف هيجل عن هيوم وكانط، في أن الحقيقة يمكن معرفتها والوصول إليها. بالنسبة لهيجل، كل شئ موجود هو عقلاني. هذا يعني أن كل شئ له تركيبة عقلانية يمكن للعقل البشري أن يستوعبها. كل خبرات الإنسان وتجاربة يمكن إستيعابها وفهمها.

العقل المطلق، عبارة عن توحيد شامل لكل الحقائق العقلانية. يشمل كل التجارب والخبرات. ويقوم بترتيبها في وحدة مترابطة.

وظيفة الميتافيزيقا هي توضيح المكونات المختلفة للحقيقة، ومعرفة حدودها وتداخلها، داخل الوحدة الشاملة للحقائق العقلانية. العقل المطلق، كما يقول هيجل، هو الحقيقة الواحدة التي تبدو صورها المختلفة لنا في كل مجالات التجارب البشرية.

الصور المختلفة لهذه الحقيقة، تظهر كتجارب مختلفة للإنسان. تظهر في علوم المنطق والعلوم الطبيعية وعلم النفس والعلوم السياسية والتاريخ والفلسفة والمسرح والموسيقى والشعر...إلخ. نحن نفهم الفيزياء والفلسفة والفنون وعلم النفس وغيرها، كمفاهيم مختلفة في كل مجال.

كل مجال من هذه المجالات، يظهر جانب أو جزء من جوانب الحقيقة. الفيزياء مثلا، تظهر جانب مهم من الحقيقة. لكنه جانب واحد. وهذا ما يقوله الرومانسيون. وظيفة الميتافيزيقا هي إظهار كل جوانب وسمات الحقيقة. هذا هو معنى الحقيقة عند هيجل. هذه الحقيقة التي تمثل الصدق الكامل. مجرد تركيب كلي لأجزاء متفرقة.

سنقوم الآن بمناقشة النظرية الجدلية الهامة لهيجل، فأرجو ربط الأحزمة استعدادا للانطلاق.

"الجدلية"، هي فكر فلسفي قديم. أول ظهورها أيام الإغريق، 500 سنة قبل سقراط. حيث كانت نظرية العناصر الأربعة المتعارضة، الماء والهواء والنار والتراب، تكون العالم الحقيقي الذي ندركه.

جاء هيروقليطس، بعد ذلك، ليقول أن كل شئ يتشوق للتحول إلى نقيضه. سقراط نفسه، لجأ إلى الجدلية في مجادلاته مع معارضيه لكي يوقعهم في التعارض. ثم يقوم سقراط بحل التعارض ليستخرج منه التعاريف الدقيقة.

في جمهورية أفلاطون، أعلى مراحل المعرفة، هي المرحلة التي نتغلب فيها على التعارض. هي المرحلة، التي تتضح فيها المُثُل أو الأفكار، وتُعرف بمضامينها الحقيقية، وعلاقة كل منها بالآخر، وعلاقة كل منها بالله.

لقد قام هيجل بدمج أفكار هيروقليطس وسقراط وأفلاطون في نظريته عن الجدلية. وقدم لنا نظرية طموحة متكاملة عظيمة جبارة. ماذا يعني هيجل بالجدلية؟ الجدلية عند هيجل هي مجرد توحيد للعناصر المتعارضة. مثل الحكومات الائتلافية. هي أيضا، تتكون من أحزاب متعارضة الأفكار. كل مفهوم نفكر فيه، يبدي لنا حدوده وإمكاناته المتواضعة. هذا يقودنا إلى الضد. وهذا يقودنا أيضا إلى تعارض واستقطاب الأفكار.

هيروقليطس في الزمن القديم كان يقول بأن كل شئ في تغير مستمر. هذه الفكرة بدأت تظهر عيوبها. مما أدى إلى ظهور فكرة معارضة للفيلسوف الإغريقي بارمنيدس. التي تقول بأن كل شئ ثابت لا يتغير.

مقولة هيروقليطس أسماها هيجل "الطريحة" أو "الفرضية" أو الرأي الذي لم يثبت بعد (Thesis). فكرة بارمنيدس التي ظهرت من التناقض، أسماها هيجل "النقيضة" أي "التناقض" (Antithesis). الصراع بين "الطريحة" و"النقيضة"، يمكن التغلب عليه، حسب رأي هيجل.

ينتج من ذلك، مفهوم جديد يقوم بحل التعارض. ويأخذ من الأفكار المتصارعة أفضل ما فيها. هذه الفكرة الوليدة، أسماها هيجل "الجميعة" أو "التركيبة" (Synthesis).

فلسفة أفلاطون، تعطينا "الجميعة"، التي تجمع بين "طريحة" هيروقليطس و"نقيضة" بارمنيدس. لقد احتفظ أفلاطون بفكرة التغير، لكنه قصرها على العالم المحسوس. وقام أفلاطون في نفس الوقت، بالاحتفاظ بفكرة بارمنيدس الخاصة بعدم التغيير. لكن أفلاطون قصرها على عالم الفكر، أي المثل.

لقد قام أفلاطون بمزج الأفكار المتصارعة وخرج منها بفكر يجمع أفضل ما فيها. كما يقول قيس بن الملوّح، شهيد الغرام:



قيس بن الملوّح هائما على وجهه

"وقد يجمع الله الشتيتين بعدما – يظنان كل الظن أن لا تلاقيا". ولو استبدل ابن الملوح كلمة الشتيتين بالنقيضين، لسبق هيجل في التوصل إلى الجدلية.

جدلية هيجل تحدث على ثلاث مراحل. لذلك توصف بالثلاثية. وهي تختلف عن ثلاثية نجيب محفوظ وبطلها السيد عبد الجواد. تنتقل من المرحلة الأولى "الطريحة"، إلى المرحلة الثانية "النقيضة" التي تنفي وتضاد وتعارض صحة المرحلة الأولي. هذا التعارض، ينشأ عنه المرحلة الثالثة "الجميعة"، وهي مرحلة التصالح والتسامي. مرحلة صدق أعلى وأسمى وأرقى من كلا من المرحلتين السابقتين.

المرحلة الثالثة "الجميعة"، لها ثلاث خواص:

1- تستطيع أن تنهي التصادم والتشاحن بين "الطريحة" والنقيضة"
2- تبقي على أفضل ما في "الطريحة" و"النقيضة" من خصال.
3- تتغلب على التناقض وتسمو بالصراع إلى حالة أرقى وأفضل.

هذه الخطوات الثلاث في جدلية هيجل، لا تقتصر على تاريخ الفلسفة، كما بينا سابقا بالنسبة لأفكار هيروقليطس وبارمينيدس وأفلاطون. لكنها، كما يقول هيجل، بمثابة الإيقاع والنغم للحقيقة وكل ما نعرف.

المعلومات التي ننشدها بتجاربنا ودراساتنا وعلومنا، ليست معلومات جامدة وساكنة وثابتة. لكنها تنتقل باستمرار من الفروض إلى النقائض إلى حقائق جديدة.

العقل المطلق، الذي يشمل كل هذه الحقائق، عبارة عن حركة ديناميكية. تُظهر لنا الحقائق والصدق بأسلوب جدلي. الحقيقة لا تظهر لعقولنا المحدودة مرة واحدة، ولكن

خطوة خطوة. أو كما تقول الفلاحة المصرية لابنها الذي يتعلم المشي: "تاتا تاتا، خطي العتبة تاتا". تاتا كلمة فرعونية قديمة، تعني امشي.

إذا قارنا نظرية هيجل الجدلية بكلام أفلاطون، فسوف نجد خلافا بينا. بالنسبة لأفلاطون، الهدف من الارتقاء بالمعرفة، هو التخلص من التناقضات والتعارض. لكن بالنسبة لهيجل، التعارض دائما موجود ومستمر. خلق التعارض بين الأضداد، هو طبيعة الفكر العقلاني، وبالتالي هو الحقيقة نفسها.

جدلية أفلاطون، ينتج عنها المعرفة والحقائق الصادقة الجامدة الثابتة. لكن جدلية هيجل تقول بأن المعرفة والحقائق، ديناميكية متغيرة.

بالرغم من وجود فروق جوهرية بين جدلية أفلاطون وجدلية هيجل، إلا أنه لا يزال هناك تشابه بين الجدليتين. كلاهما يتصاعد بجدليته من معرفة دنيا إلى معرفة أسمى وأرقى. وكلاهما يرى الحقيقة تتخطى حدود الحواس والأسلوب العلمي المعروف. كلاهما استخدم الجدلية لبناء نظام فلسفى متكامل.

الجدلية تفسر الوجود بأنه "الطريحة"، والعدم بأنه "النقيضة". ومن التعارض بين الوجود والعدم، يأتي كل شئ في هذا الكون. الجدلية هي خاصية من خواص الحقيقة نفسها وطريقة العقل الإنساني المحدود لفهمها. تتناغم مع كل الفكر الإنساني وحركة التاريخ، وأسلوب لفهم كلاهما.

11

فلسفة التاريخ عند هيجل

نحن الآن نعيش في القرن الواحد والعشرين. فهل يعي كثير منا طبيعة هذا العالم الذي نعيش فيه؟ ينصحنا هيجل، لكي نفهم هذا العالم وهذا العصر، وحتى لا نعيش فيهما غرباء، علينا أن نفهم قوى التغيير التي تعمل داخلهما.

في كتابه الرائع، "تجسد الروح"، حاول هيجل فهم طبيعة النفس البشرية، عن طريق النظر إلى جذور تكوينها في الماضي. كتاب "تجسد الروح"، سيرة شخصية. لا لشخص معين، ولكن للروح الإنسانية بصفة عامة، على مر العصور. تتابع تطورها ونموها ونضوجها.

يقوم هيجل بوضع كل خبرات وتجارب العالم أمامك. بما فيها من أديان وإيمان ونظريات علمية وآراء فلسفية وحركات فنية. ثم يسألنا: أي نوع من البشر نحن، وما تأثير هذه التجارب والخبرات فينا؟

كيف تعمل هذه الخبرات والإنجازات، وما السبب في عجزها وقصورها عن فهم الحقيقة كاملة؟ الذي يظهر لنا، هو جانب واحد من الحقيقة. لا يخلو من التشويه والعيوب.

يبدأ هيجل كتابه، بالحديث عن تاريخ الفلسفة. حيث تتعارض وتتصارع الأنظمة والنظريات الفلسفية مع بعضها. تذهب من النقيض إلى النقيض. يدعي كل فليسوف، وكل نظام فلسفي، أنه وجد الحقيقة نفسها التي لا يوجد بعدها حقيقة. لسان حاله يقول: "أنا اللي فيهم، وكلهم ركشٌ"، كما يقول المثل الشعبي.

الدارس لتاريخ الفلسفة، يلاحظ شدة العداوة بين الفلسفات المختلفة. بدءا بالتصادم بين أفكار هيروقليطس وبارمنيدس. ثم التعارض بين أفلاطون والسفسطائيين. وبين هيوم وديكارت، ثم كانط وهيوم. كل منهم يناقض الذي قبله.

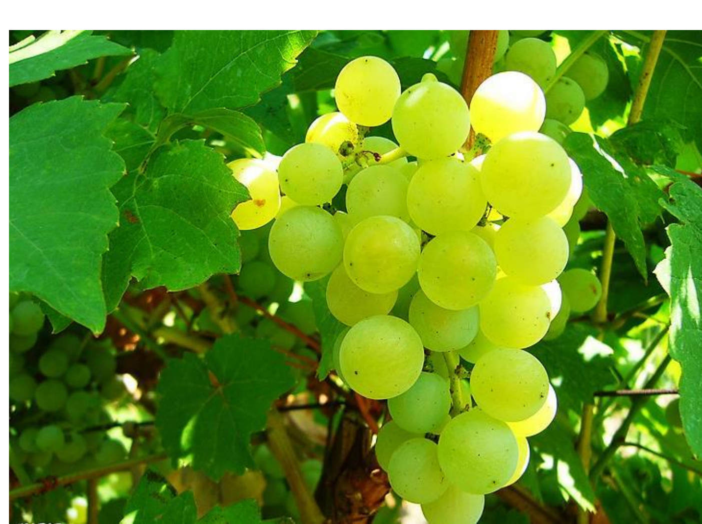
يشير هيجل إلى أن كل فيلسوف، يعتقد أنه قد توصل إلى الحقيقة التي تجُب كل الفلسفات التي قبله، ويعمل على تشويه سمعة من سبقوه. يعتقد هؤلاء المفكرين، أن الحقيقة الفلسفية التي تم الوصول إليها، هي حقيقة نهائية ثابتة صلبة جامدة. بالتالي، يمكن الدفاع عنها ضد هجوم أي فلسفة معارضة.

هؤلاء الفلاسفة، لا يفهمون معني اختلاف النظريات الفلسفية. الفهم الحقيقي لهذا الاختلاف، هو أنه لا يمثل أزمة وعداوة بين أفكار مختلفة. لكنه يدل على نمو وتطور الحقيقة. حتى الحقيقة تتطور. "اللّه يرحمك يا شارلز داروين ويحسن إليك، ويفشفش الطوبة اللي تحت راسك". فشفشة الطوبة التي تحت الرأس، هو دعاء البسطاء للميت. حتي يكون مرتاحا في قبره.

اختلاف النظم الفلسفية، لا يجب أن ينظر إليه على أنه حروب بينها. هذه النظم المختلفة، ما هي إلا عناصر متنوعة في كائن حي أو وحدة عضوية واحدة.

الفلسفة، وباقي الحقائق وكل المخلوقات الحية، تتكون من أجزاء مستقلة. لكل منها وظيفته المختلفة. يشبه هيجل تاريخ الفلسفة بشجرة الفاكهة. النظريات الفلسفية على مر العصور، تشبه مراحل نمو الفاكهة. البراعم تتحول إلى زهور، والزهور إلى ثمار.

كل فيلسوف في زمانه، يمثل مرحلة هامة من مراحل تطور الفلسفة. البراعم تختفي، لتفسح مكانا للزهور. والزهور تختفي، لكي تنمو مكانها الثمار. ولا ننظر نحن للبراعم والزهور على أنها أشياء غير حقيقية. لكن مراحل نمو عضوي لثمار الفاكهة.



الزهور تختفي لكي تظهر مكانها الفاكهة

كان هيجل من أوائل الذين استخدموا مفهوم الكائن الحي أو العضوي لوصف الفلسفة. كل الفلسفات عبارة عن أجزاء أو مراحل تطور لهذا

الكائن العضوي. بنفس الأسلوب، يمكننا فهم الفكر الإنساني والمجتمعات والمؤسسات والتاريخ.


الشاعر وردزورث

لقد تأثر بفكرة "الكائن العضوي" لهيجل، كل من عاصره، وكل الذين أتوا من بعده. فنجد جوته ينظر إلى الطبيعة على أنها كائن عضوي واحد حي.

الشعراء "شليجيل" و"وردزورث" و"نوليريدج"، كانوا يعتبرون الفن وحدة عضوية واحدة. كذلك فلاسفة الاجتماع، روسو وهيردير وبورك. لم يكونوا ينظرون إلى المجتمعات على أنها مجموعة أفراد مستقلة. لكن كل مجتمع، عبارة عن وحدة عضوية واحدة، مثل أي كائن حي.

تحدث هيجل عن موضوع لم يعره ديكارت أو هيوم أي إلتفات من قبل. وهو موضوع "التاريخ". هذا مفهوم جديد، عندما نضيفه لمفهوم الكائن العضوي، يصبح لدينا أسلوبا ناجعا لفحص كل قضايانا ومعارفنا وخبراتنا الماضية.

نظرية هيجل الخاصة بالتاريخ تسمى: "Historicism". تقول: لكي نفهم الإنسان، يجب أن نفهم تاريخه. كيف تطور فكريا؟ وما هي جذور هذا التطور؟ وبدلا من الاكتفاء بسرد الأحداث في تسلسل زمني ممل، يقول هيجل، إن كل ظاهرة إنسانية هي ظاهرة تاريخية.

لكي نفهم فلسفة معينة أو نظرية معينة ولتكن نظرية داروين مثلا، لا يجب أن ننظر إلى النظرية في حد ذاتها بمعزل عن أحداث التاريخ، وما كان يدور وقتها. علينا أن نبحث عن الأسباب التي دعت هذا الفيلسوف، أو هذا العالم، أو جمال عبد الناصر، إلى تبني هذه الأفكار، وإصدار تلك القرارات؟ لماذا كان على السادات أن يمشي في طريق مخالف للطريق الذي سار فيه عبد الناصر من قبل؟

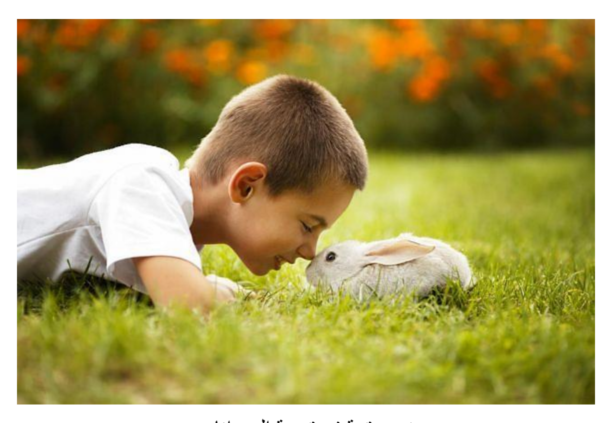
ماذا يعني هذا بالنسبة للفلسفة؟ يعني أن هيجل قد أمدنا بطريقة جديدة للنظر للأمور الفلسفية. الفلسفة لم تعد تفهم كما كان يفهما أفلاطون أو ديكارت أو هيوم. أي فلسفة واحدة صحيحة، تجُب ما قبلها من فلسفات. معنى الفلسفة يتضح فقط في إطار تطورها التاريخي. الفلسفة هي، بصريح العبارة، تاريخ الفلسفة.

في كتابه تجسد الروح، يرى هيجل أن الوقت قد حان لتقديم فلسفة جديدة، لا تتكلم فقط عن أشياء وخواصها كما فعل ديكارت، لكن تأخذ في اعتبارها "وعي الإنسان" الذي يساهم في خلق هذه الأشياء. الحقيقة لا تقع في الأشياء نفسها، ولكن في درجة معرفتنا لهذه الأشياء.

الحقيقة، هي أيضا شئ حي، دائم التغير. الحقيقة، هي روح الإنسان. تطورت جدليا عبر القرون، عن طريق كل فروع الفلسفة عبر التاريخ.

الفلسفة الجديدة، بدت واضحة الآن. تأخذ كل التغيرات والمعتقدات الدينية والفلسفات عبر التاريخ، وتضعها فى جسد واحد حي عضوي. أي في نظام جدلي واحد تتصارع فيه الأضداد للارتقاء بالفكر الإنساني.

بالنسبة لتطور الوعي عند الإنسان، يقول هيجل، إن النفس في البداية، كانت مرتبطة بالأشياء عن طريق الرغبة. أو كما نقول نحن بالبلدي، "الواحد نفسه في الحاجة دي".



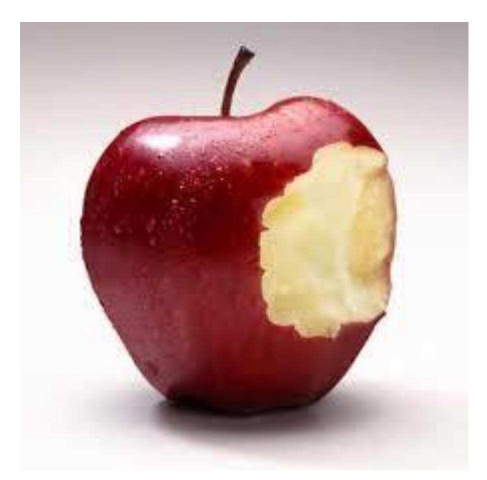
نجد متعة في تربية الحيوانات

النفس ترغب في الأشياء التي تجد فيها متعة، لأنها تحقق حاجة الجسد. تجد أيضا متعة في التحضير ومناولة واستخدام هذه الأشياء. نحن نجد متعة في تحضير الوجبات، وتربية الحيوانات...إلخ. ثم نقوم بذبحها وأكلها وإفنائها.

عندما نمضغ الطعام، نحن ندمره. وعندما نأخذ قضمة من تفاحة، نحن نشوهها. ونجد متعة أيضا في تمزيق الورق وتهشيم الزجاج،...إلخ. وفي غلبة الآخرين، مثل الحروب والألعاب الرياضية. لأن هذا يعطينا الإحساس بالسيطرة والغلبة.

نحن كائنات تحب السيطرة. تاريخنا يثبت ذلك. يرى هيجل أن هذه السيطرة، هي دليل على "مبدأ النفي"، والذي يسميه هيجل في بعض الأحيان "مبدأ الموت".

مبدأ النفي نجده في كل الفكر الإنساني. وهو الذي يولد التعارض. التعارض لكل فرضية، أو "النقيضة" لكل "طريحة". مبدأ النفي هذا، كما يقول هيجل، موجود في خصائص النفس بالنسبة للرغبة في الأشياء. وبالنسبة للرغبة في تحطيمها بصورة أو بأخري.


لدينا الرغبة في تحطيم أو أكل الأشياء

مبدأ النفي أو الموت تجاه الأشياء، لا يجد صعوبة عندما يكون الشئ تفاحة أو قطعة لحم. لكن، كيف نفسر مبدأ النفي، إذا كان الشئ إنسانا آخر؟

يقول هيجل، أن الرغبة لا تزال موجودة في السيطرة علي الآخر. عن طريق الاحتواء، والنفي، والقتل، والتعذيب، وغسل المخ، والاعتقال، والكبت،...إلخ. لكن، النفس الأخري لديها نفس الرغبة، وتبغي قتل النفس الأولي التي لا تستطيع السيطرة عليها. كل منا يريد في قرارة نفسه قتل الآخر، للسيطرة عليه.


الرغبة في السيطرة على الآخرين

تدخل النفس الأولى والثانية فيما أما أسماه هيجل ب"الصراع حتي الموت". في هذا الصراع، يخاطر كل منهما بحياته لقتل غريمه. لكن التغلب على الخصم، لا يأتي بكل الرضا. كل الرضا يأتي من جعل الخصم يعترف أنه قد هزم بواسطتي.


حرص رجال الدين على امتلاك أرواح الناس وعقولها

ما تبغيه النفس،كما يقول هيجل، ليس السيطرة على أجسام الآخرين فقط، ولكن السيطرة على نفوسهم وعقولهم أيضا. الهدف هو أن تعرف النفوس الأخرى أنني أنا المسيطر عليها والمتحكم فيها. إننا نري هنا حرص رجال الدين على امتلاك أرواح الناس وعقولها، وحرص الحكومات المستبدة، على السيطرة على أجساد شعوبها.

لكن هناك نقطة هامة. أنا أريد النفس الأخرى أن تظل موجودة، حتي تعي وجودي وتعلم "أنني ابن جلا وطلاع الثنايا، متى أضع العمامة تعرفوني". أنا أحتاج لكي أعي وجودي، وجود نفس أخرى تعرفني.

وجهة نظر هيجل هنا أننا لا نستطيع إدراك أنفسنا، إلا عن طريق نفس أخرى. تعمل كمرآة لوجودنا. هنا نجد هيجل على عكس ديكارت تماما. الذي يقول بأن النفس توجد بمفردها. "أنا أفكر، إذن أنا موجود".


لأ أستطيع أن أتعرف على نفسي في عزلة

هيجل يقول، أنا لا أستطيع أن أتعرف على نفسي في عزلة. في السجن الانفرادي. أنا أتعرف على نفسي لأنني أراك تنظر وتبحلق في، وتستجيب لى كنفس. الوعي بوجودي، يستلزم وجود نفس أخرى.

إذا قمت أنا بقتل النفس الأخرى، في عملية "النضال حتى الموت"، سوف أخسر شيئين.

أولا: إذا قتل الآخر، لن أحصل على الرضا المصاحب لبقائه حي ومعرفته بأنني قد نجحت في السيطرة عليه.

ثانيا: عند موت الآخر، لن تكون هناك نفس أخرى تتحقق من وجودي كنفس. أي أنه في هذه الحالة، لن توجد مرآه، أري فيها نفسي.

المرحلة الثالثة لتطور الروح، التي أسماها هيجل تجسد الروح، هي مرحلة "السيد والعبد". في المرحلة السابقة، مرحلة "الصراع حتي الموت"، يدرك المنتصر أنه من الأفضل له إبقاء غريمه على قيد الحياة، واستغلاله وتحويله إلى عبد له.

يقول هيجل أن مرحلة "السيد والعبد"، نجدها في المجتمعات البدائية. ونجدها أيضا أثناء الحروب. عندما ينتصر إنسان على إنسان آخر.

لكن هذه العلاقة مليئة بالتعارض والقصور. عندما يقوم شخص باستعباد الآخر، وتحويله إلى مجرد آلة تعمل فقط لخدمته. يصبح السيد، في نفس الوقت، في حاجة للعبد.

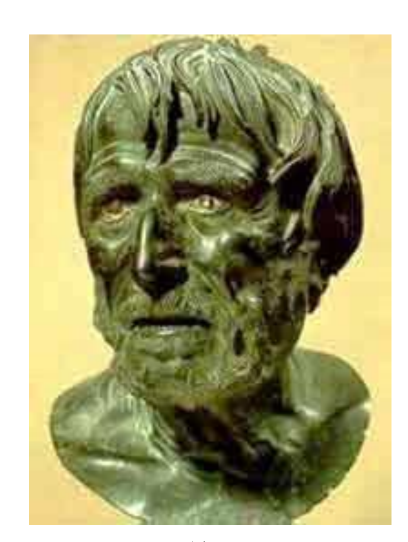
مع مرور الوقت، ومع استمرار العبد في خدمة سيده، يجد العبد نفسه في العمل الذي يقوم به، ويكتشف أنه ليس عبدا مئة في المئة، بل هو كائن مستقل كوعي. له عقل وإرادة لها قوتها الخاصة.

الجزء الخاص بعلاقة السيد بالعبد، التي جاءت في كتاب هيجل "تجسد الروح" المكون من 800 صفحة، تعتبر أهم الأجزاء. ومن هذا الجزء، بدأت فلسفة هيجل الجدلية.

بعد مرحلة "السيد والعبد" بما فيها من تناقضات وصراعات، تنتقل روح الإنسان إلى مرحلة رابعة. تسمى المرحلة الرواقية. وهي فلسفة كانت منتشرة في بلاد الإغريق والرومان، في سالف العصر والأوان.

الإنسان عند الرواقيين، لا يجب أن يكف عن طلب العلم والحكمة طيلة حياته، حتي يصل إلى حالة التنوير والعلاء المنشودة. عليه أن يحرر نفسه من متطلبات الحياة وخصوصا ما له علاقة بالعواطف مثل الحب والكره والحقد والرجاء وخلافه.

الرواقي رجل حكيم، متقشف. قام بمجاهدة النفس وتخليصها من كل أسباب الشقاء والبؤس. الرواقي ليس له اهتمام بأي شئ يجلب الألم أو الخوف أو حتي الأمل والفرح. ومن الفلاسفة الرواقيين، سينكا وإبيكتيتوس وماركوس أورليوس، الامبراطور الروماني في القرن الثاني الميلادي.


سينكا

ماذا يعني هيجل بالوعي الرواقي؟ يعني بأنني يمكنني أن أكون مستقلا وحرا. سواء كنت عبدا أو امبراطورا أو رئيس جمهورية. عن طريق فهم القوانين التي تحكم هذا الكون، والقوانين التي تحكم سلوك الإنسان. عندما أكون قريبا من الطبيعة، تصبح القوانين التي تحكم الطبيعة، هي نفسها التي تحكم الإنسان.

يجنح الناس إلى الرواقية، في الأوقات العصيبة التي ينتشر فيها الفساد والاستبداد والخوف من العبودية والزحام والزبالة وتزوير الانتخابات، مصحوبا بحب معرفة الحقيقة. حينئذ، تصبح الرواقية الملاذ الأخير . حيث الهدوء والسلام والاستقلال بعيدا عن هذه الأمواج المتلاطمة من البؤس، وبعيدا عن العالم المضطرب.

لكن حتى الرواقية لها قصورها، الذي يأتي معه النقيض وبذور فنائها. الرواقي يخاف العبودية مع أنه سيد قراره والمتحكم في أفكاره. إنه لا يزال عبدا لقوانين الطبيعة والقوانين التي تحكم الإنسان. هو أيضا مثل العبد، يعيش في عزلة طالبا الزهد والتقشف. الرواقي ليست لديه الحرية للتمتع بالحياة. إنه يتراجع ويتقوقع على نفسه ويعيش في عالم خيالي، يعتقد فيه أنه حر.

المرحلة الخامسة لروح الإنسان، تتخطى مرحلة الرواقية إلى مرحلة الشك. الرواقي يعتزل العالم وينسحب منه إلى مكان هادئ مسالم. لكن الشك، يجعل الإنسان رافضا لكل شئ تماما. الشك كقوة مدمرة تُستخدم لنفي والتشكيك في كل المعتقدات والتجارب الخاصة والقوانين الوضعية.

ماهي حدود الشك؟ الشك يهاجم ويشكك في وجود النفس أيضا. يقود الشك إلى نفسين لا نفس واحدة. نفس مسيطرة تعمل مثل "السيد"، ترفض كل شئ وتشك في كل شئ. ونفس مثل العبد، خاضعة ذليلة.

هذا التعارض بين النفس المسيطرة "السيد"، والنفس الخانعة "العبد"، يقود إلى مرحلة سادسة من تطور الروح. هي مرحلة الوعي الغير سعيد. وهي مرحلة التدين في العصور الوسطى. المتدين في العصور الوسطى، له نفس منقسمة إلى نصفين. بينهما صراع لا ينتهي.

صراع بين نفس حقيقية تتشوق للوصول إلى الله، لكنها لا تستطيع الوصول إليه. ونفس مزيفة تطلب متع الدنيا ونعيمها. الوعي الديني غير سعيد، لأنه يعرف أنه منقسم إلى نفسين لا نفس واحدة. تتصارعان كسيد وعبد.

تأتي المرحلة الأخيرة التي أسماها هيجل مرحلة "تجسد الروح". الوعي الديني بما في داخله من تناقض وتصارع، يقود إلى الحجة العقلية والفلسفة. الأفكار الدينية يجب أن تتحول من مجرد إيمان بحت، إلى أفكار يستوعبها العقل، تتوافق مع النظريات الفلسفية والعلمية.

النفس يجب أن تعلم أن الحقيقة العليا ليست شيئا مجسدا تعيه الحواس. الحقيقة العليا، هي مجرد عقل شامل. تظهر نفسها عن طريق صراع جدلي داخل عقولنا المحدودة، خلال تاريخنا الإنساني. النفس يجب أن تدرك أيضا، أن الإنسان الحر، لا يجب أن يكون عبدا لأحد.

السيادة هي مطلب الإنسان. لكن هناك نوعا واحدا من السيادة يصلح للإنسان الحر. السيادة على جوانب الحقيقة التي تصلنا خلال حوادث التاريخ. حينئذ، لن يصبح هناك علاقة سيد وعبد. وتتحرر روح الإنسان وتصبح وعي متكامل مع الحقيقة العليا بالرغم من قصورها بالنسبة للمكان والزمان.

سنناقش الآن أهم أجزاء فلسفة هيجل وأكثرها شهرة وثراء، فلسفة التاريخ. فهل التاريخ له فلسفة؟ وهل التاريخ بصفة عامة، له معنى ودلالة؟ وهل هناك نمطا يمكن أن نستخرجه من أحداث التاريخ؟

للإجابة على هذه الأسئلة، علينا أن نستعرض أحداث التاريخ ككل. لا يشغلنا هنا تراكم وحفظ المعلومات والوثائق التي تصف لنا حقيقة ما حدث هنا أو هناك، الآن أو بالأمس. الذي يجب أن يهمنا هنا، هو اختراق هذه المعلومات للبحث عما إذا كانت تعني شيئا خافيا بين طياتها، ومعرفة ما إذا كان هذا الشئ له دلالة أو معنى دفين.

هل يمكن للأحداث المختلفة والمتفرقة والمعزولة عن بعضها، أن يكون لها دلالة معينة ومعاني خفية لا نراها بالعين؟ نعم. وسوف أوضح ذلك بمثال من علم الإحصاء.

ونحن أطفال، كنا نلعب لعبة "ملك أو كتابة". وهي أن نأخذ عملة معدنية على أحد وجهيها صورة الملك، والوجه الآخر كتابة. ثم نلقيها في الهواء وننظر عندما تستقر على الأرض، أي وجه ظهر لنا.

إذا قمنا بإلقاء العملة مرة واحدة، فلا يمكن التنبؤ بظهور وجه معين بطريقة مؤكدة. أما إذا قمنا بإلقائها عشر مرات مثلا، فقد يظهر أحد الوجوه ست مرات والوجه الآخر أربع مرات، أو 7 و 3. في هذه الحالة، ستكون نسبة ظهور الصورة 60% أو 70%. وهي نسبة، لا يمكن التنبؤ بها بالضبط مسبقا.

لكن لو قمنا برمي العملة في الهواء ملايين المرات، وتسجيل عدد مرات ظهور الصورة. فسوف نجدها تقترب جدا من نسبة 50%. كلما زاد عدد المرات عن ذلك، كلما اقتربت نسبة ظهور الصورة من نسبة ال 50%.

هذه حقيقة ثابته من حقائق الحياة، لا نلاحظها في الحوادث الفردية، ولكن عندما ننظر إلى الحوادث مجتمعة. هذا يعني، أنه عندما نقرأ ما بين سطور أحداث التاريخ، تبدأ الحقائق الخفية في الظهور.

أيضا حقيقة أن "السلطة مفسدة، والسلطة المطلقة فساد مطلق"، كما قال اللورد البريطاني أكتون في نهاية القرن التاسع عشر. إذا تتبعنا سطور التاريخ، سوف تتضح لنا هذه الحقيقة، حتي لو شذ حاكم أو اثنان عنها في عصر من العصور.

فلسفة التاريخ عند هيجل، تنبع من فلسفته المعروفة باسم "المثالية المطلقة". التي تقول بأن الحقيقي عقلاني، يمكن معرفته عن طريق الصراع الجدلي بين الأضداد. فكرة "المثالية المطلقة" يجب تطبيقها في علم التاريخ، وفي كل العلوم.

هذا ما يعنيه هيجل بفلسفة التاريخ. المفاهيم العقلانية التي نستخرجها من التاريخ، لا تتعارض مع حقائقه، ولكنها تجعلنا أكثر فهما لهذه الحقائق.

من "المثالية المطلقة"، جاء هيجل بفلسفة تاريخ العالم. فلسفة التاريخ، ليست الفلسفة الوحيدة التي تفسر حركة التاريخ. نجد مثلا، القديس أوغسطين له "فلسفة التاريخ المسيحي"، وكوندورسيه الفرنسي له "فلسفة التاريخ" في عصر الأنوار. كارل ماركس له "المادية التاريخية". وهذه أهم أربع فلسفات تاريخية على مدى العصور.


الدكتور حسين فوزي

بالنسبة لنا، كتاب "سندباد مصري" للدكتور حسين فوزي، يعتبر من أمتع كتب التاريخ. وهو أكثر من كتاب تاريخ عن حياة الشعب المصري. يمثل في رأيي ما يتحدث عنه هيجل بالنسبة للتاريخ المصري.

فلسفة هيجل التاريخية هي المشهد الذي تظهر فيه الحقيقة المطلقة واضحة جلية للوعي الإنساني. فهم التاريخ فلسفيا، هو صياغة للحقيقة بطريقة عقلانية، لجعلها واضحة جلية للعقل البشري. تفسر لنا جدليا، الهدف من هذه الحياة. وحكمة الله في سير الأحداث بهذا الشكل. وكما يقول هيجل، أحداث التاريخ لها هدف من ورائها. غرض إلهي عقلاني نبيل.


ظلم الطبقات الفقير أدى إلى ثورة 52

لكننا نتساءل هنا، كيف يقول هيجل هذا الكلام الغير مفهوم؟ وهل التاريخ بأحداثه الخطيرة، يعتبر شئ عقلاني نبيل الغرض، وهو ملئ بالشر والظلم والقتل والحروب وسفك الدماء؟ كيف نفسر وجود الظلم والغبن الذي وقع على الطبقات الفقيرة إبان الثورة الفرنسية أو الثورة المصرية مما دفعهم إلى الثورة؟


روبيسبير

وما تبريرنا لعهد الرعب وظهور دالتون وروبسبير ومارا بعد الثورة الفرنسية؟ كيف نبرر مرض هيجل نفسه بالكوليرا وموته المبكر قبل الأوان، إذا كانت الأمور تسير على مايرام وفقا لمخطط إلهي حكيم؟

لم ينكر هيجل وجود الشر عبر التاريخ. هو الذي جاء بتعبير "رعب التاريخ". وكان يقول بأن التاريخ مذبح مقدس، تقيد فيه الضحايا من البشر وتقتل بدم بارد كقرابين؟


التاريخ مذبح مقدس

إذن، ما هو الغرض من هذه التضحيات البشرية. ما يزيد على المليون عراقي، تتفحم بالقنابل العنقودية وتقدم كقرابين. شعب بأكمله تسرق أرضه ويشرد في بقاع الأرض. حاكم يستولي على ثروة بلاده ويحكم شعبه بالحديد والنار، وينقله إلى العصور الوسطى. أين دور الله؟ وكيف سمح للشيطان أن يعبث بالتاريخ.

يقول هيجل أنه لو تتبعنا حركة التاريخ العالمي، سنجد أن التاريخ كائن حي له روح. هذه الروح هي حرية الإنسان ووعيه بهذه الحرية. التاريخ يسير في اتجاه المزيد من الحرية للإنسان. نظام الجواري والعبيد قد اختفى أو كاد. تحررت معظم الشعوب من الاستعمار والتبعية أو كادت. لم يعد هناك محاكم تفتيش في أوروبا (لاتزال موجودة في بلادنا)،...إلخ.

لكن، كيف يحدث هذا؟ وكيف يقود الشر إلى الخير؟ يجيب هيجل، بأن هذا يحدث لسببين. السبب الأول هو الفهم العقلاني للحرية، التي تحاول الحقيقة العليا إظهارها. السبب الثاني هو الرغبة والهوى لإشباع رغبات الإنسان الملحة. الإنسان يتحرك مدفوعا برغباته وغرائزه. الرغبة والشهوة والشبق، أقرب إلى قلب الإنسان من القوانين والأخلاق التي تحاول كبح جماحه. نحن هنا نتذكر هيوم عندما قال بأن العقل عبد للشهوة.

إذا وضعت هدفا، أو قمت بتعديل الدستور، فهذا العمل يجب أن يخدم مصلحتي أنا وأولادي أولا. لا شئ يحدث لوجه الله والحق. كل شئ يحدث وفقا لرغباتنا، الظاهرة أو الدفينة في العقل الباطن.

هذه الرغبات المعقدة، سواء كانت تعديل الدستور لكى يضمن توريث السلطة، أو إصدار قانون جائر يمنع التظاهر للتعبير عن الظلم، أو التبرع للجياع في بلاد بعيدة لم نزرها من قبل. هذه الرغبات، يجب على الحقيقة العليا التعامل معها، حتى يمكن أن تظهر أهدافها العليا النبيلة. الحقيقة العليا، أو الله، أو الحق المطلق، تستخدم إرادة الإنسان وجشعه كوسيلة لإظهار أهدافها النبيلة.

كيف تفعل الحقيقة العليا ذلك؟ يقول هيجل، عن طريق "مكر العقل الكلي". عن طريق استخدام وسائل العنف واللين والمهارة والمكر،...إلخ. بهدف إحضار الحرية كحقيقة عقلانية إلى عقل الإنسان. "مكر العقل الكلي" تستخدم جشع الإنسان ورغباته الملحة لتحقيق أهداف الحقيقة العليا في تطور الإنسان الخلقي.

عصرالأنوار الأوروبي الذي تحقق على أيدي فلاسفة التنوير، يعتبر تطبيقا لتلك الفلسفة الجديدة للتاريخ. عندما كان العقل الكلي الأوروبي سائراً نحو التحرر الكامل والتقدم في اتجاه تقدم الإنسان، كان لابد لمنطق التاريخ الجدلي، من أن يعمل على إشعال نار الاصطدام بين رجال الكنيسة في أوروبا وبين التيارات الفكرية التنويرية الجديدة.

كان لذلك ثمنه الباهظ الذي تمثل في الاضطهاد الديني للمفكرين والأدباء والفلاسفة الأوروبيين. الذي جاء مخالفا لمحاولات الكنيسة للحفاظ على موقعها المتميز، والقائم على حقها الوحيد في الامساك بزمام الخلاص الروحي والتفسير الوحيد للدين.

لم يكن يدور بخلد أولئك المنفذين من أباطرة الكنيسة وقساوسها، وهم يقيمون محاكم التفتيش ويحرقون العلماء ويسحلون الفلاسفة، أنهم يؤدون دوراً رسمه لهم التاريخ بواسطة العقل الكلي المسيطر مسبقاً.

هذا الصراع، بلغ مرحلته الحاسمة، عندما أدى إلى انتهاء دور الكنيسة الأوروبية، في هيمنتها على الأفراد والحياة. وهنا يكون العقل الأوروبي قد تحرر نهائياً من قبضتها،

وتحولت الكنيسة إلى مؤسسة دينية، تحكمها لوائح وأنظمة المؤسسات الأخرى في المجتمع. وعقبالنا يا رب، عندما نتخلص من تحكم رجال الدين والدعاه الجدد في شعوبنا.

الحقيقة العليا لا تظهر نفسها في الأفراد، أنا وأنت. لكن تظهر نفسها في كل الناس مجتمعة، في الأمم ككل. مثل رمية نرد واحدة أو قطعة نقود واحدة، لا تستطيع أن تتنبأ بظهور الصورة. لكن ملايين الرميات، تستطيع التنبؤ بهذه الحقيقة.

"روح الشعوب"، هو تعبير كان يستخدمه هيجل. يعني شيئا قريبا من تعبير "الحضارة". يشمل اللغة والدين والفنون والموسيقى والشعر والعمارة والأخلاق والفلسفة والعلوم والقانون. روح أي شعب، نجدها مجسدة في كل هذه العوامل مجتمعة.

عوامل الحضارة، تنتشر بين أفراد الشعب. توحدهم في جسد حي واحد. لا يكفي أن نقول نحن شعب عظيم بالوراثة. إذا لم تكن لدينا أرقى هذه العناصر الحضارية وأعظمها. أعظم العلوم، أرقى الأخلاق، أجمل الفنون، وأعذب الموسيقى،... إلخ.

عناصر روح الشعوب، لا تعمل أو تفهم بمفردها. لكنها تعمل مجتمعة، تشكل كائن حي عضوي. الإنسان المصري القديم، لا يمكن أن نفهم طبيعته وعظمته، إلا من خلال فنونه وديانته وآدابه وما خلفه لنا من معابد وآثار عظيمة.

الدولة في مفهوم هيجل، هي أيضا كائن عضوي. تشمل الحكومة والمؤسسات والثقافة. الدولة تمثل العضو في التاريخ العالمي. ويكون هدف "مكر العقل الكلي"، هو استخدام، لا الأفراد مثلي ومثلك، ولكن الدول. لكي تعطي الإنسانية كلها وعيها بالحرية.

هذه الدول العظيمة، لا الأفراد، هي التي يظهر فيها الوعي بالحرية. وكل دولة، لها دور محدد، من واجبها القيام به نحو هدف الحرية النبيل على مسرح التاريخ العالمي.

جدلية هيجل، هي التي سمحت بتبرير وجود الشر في هذا العالم. الشر موجود لدفع التقدم إلى الأمام. حركة التاريخ تسير إلى الأحسن. لكنها لا تسير في خطوط مستقيمة. مثل أسعار الأوراق المالية في البورصة. تتراوح بين صعود وهبوط. مرات الصعود أكثر وأطول. اتجاه أسعار البورصة في المدي الطويل في صعود مستمر.


حركة التاريخ إلى الأحسن، ولكن في خطوط متعرجة

كذلك حركة التاريخ. هي أيضا بين صعود وهبوط جدلي. لكنها في الأمد البعيد، في صعود مستمر. فلم تعد لدينا جواري أو عبيد. لقد تحررت معظم الشعوب من الاستعمار المسلح، إلا الشعب الفلسطيني. وبدأت الديموقراطية في الانتشار بين الشعوب، إلا شعوبنا.

سوف تختفي الديكتاتورية وحكم الاستبداد من بلادنا قريبا. وسوف تختفي إسرائيل كدولة عنصرية، ويعيش الفلسطينيون واليهود آمنين في دولتهم وبين أقرانهم من البشر كباقي الشعوب. هذا ما يقوله لنا التاريخ. متى؟ التاريخ لديه الوقت الكافي، لتحقيق كل أهدافه.

كيف نقارن فلسفة هيجل بفلسفة الأنوار. بالنسبة لهيجل، التاريخ يعتمد على المجتمعات والدول، لا الأفراد. التاريخ يهتم بروح الشعوب، بكل ما لها من حضارة، ولا يهتم فقط بالعلوم والتكنولوجيا.

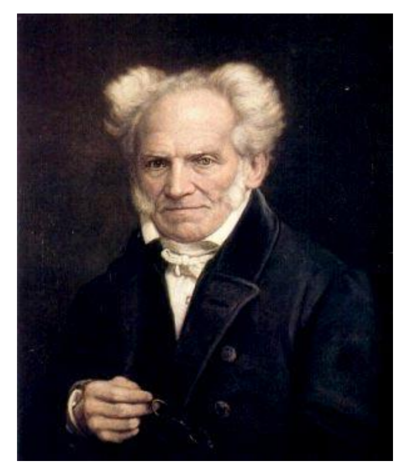
التاريخ ليس مسرحا للسعادة، لكنه حركة نحو الحرية بالنسبة للشعوب. يستخدم الخير، والشر إن لزم الأمر. يستخدم شهوة الفرد وطمعه كوسيلة لتحقيق أغراض التاريخ النبيلة.

قراءة هيجل، تمدنا بالكثير من الحكمة. فلسفته أعطت العالم الكثير من المفاهيم. روح الشعوب، حضارة الشعوب، حيوية المجتمعات، جدلية الأفكار. نظرياته بينت العلاقة بين الفرد والمجتمع. معظم أعمال هيجل ونظرياته، نجدها الآن في علوم الاجتماع، والعلوم السياسية، والتاريخ والتحليل النفسي.

تأثير هيجل، ليس فقط في العلوم الإنسانية، لكن أيضا في الفلسفة نفسها. وكما يقول الفليسوف الفرنسي "موريس ميرلو"، كل الأفكار الفلسفية العظيمة في القرن التاسع عشر، وكل فلاسفة التنوير، وماركس، ونيتشه، والوجوديين، والمحللين النفسانيين، كل هؤلاء بدأوا بفلسفة هيجل.

12

شوبنهاور فيلسوف التشاؤم


شوبنهاور

ولد شوبنهاور في دانزج عام 1788م، جزء من بولندا حاليا. من أسرة ثرية تعمل بالتجارة. كانت تعده أسرته للعمل بالتجارة، لكنه لم يكن شغوفا بالأعمال التجارية، وفضل الذهاب للجامعة. مات والده منتحرا على الأرجح عام 1805م، وتوفيت جدته وهي مصابة بالجنون.

ورث شوبنهاور عن أبيه طباعه، وعن أمه ذكاءها. فقد كانت كاتبة قصة مشهورة في ذلك الوقت. كان دائم النزاع مع والدته بسبب تصرفاتها المتحررة بعد وفاة زوجها، والد شوبنهاور. بعد مشاجرة مع أمه، خاصمها ولم يرها لمدة أربعة وعشرين عاما. حرمانه من عطف الأم ربما كان السبب في كرهه للمرأة ونظرته التشاؤمية للحياة.

في عام 1820م، بدأ شوبنهاور في تدريس الفلسفة في جامعة برلين.كان يحرص على أن تقع محاضراته في الوقت الذي يلقي فيه الفيلسوف العظيم هيجل محاضراته في نفس الجامعة. لقد كان شوبنهاور معارضا شرسا لفلسفة هيجل. عندما وجد أن عدد الطلبة التي سجلت في مادته لا يزيد عن الخمسة، ترك شوبنهاور الجامعة والتدريس معا، ولم يعد لهما بقية حياته.

في عام 1831م، انتشر وباء الكوليرا في برلين. فر شوبنهاور بحياته لكي يستقر بصفة نهائية في فرانكفورت عام 1833م. عاش يعمل وحيدا فريدا بدون زوجة أو ولد. كان أول الفلاسفة الغربيين الذين أعلنوا إلحادهم على الملأ. تأثر بالفلسفة الشرقية وخصوصا فلسفة بوذا.

عندما ألف كتابه "العالم كإرادة وفكرة"، أرسله للناشر الذي علق عليه بقوله: "إن هذا الكتاب ليس مجرد سرد لأفكار وآراء قديمة، لكنه بناء شامخ متماسك من الآراء الأصيلة، والبيان الواضح، ولا يخلو من الجمال. على الرغم من عنف أسلوبه، إلا أنه كتاب سيكون في المستقبل مصدرا وموردا لمئات الكتب".

مع ذلك، كتاب شوبنهاور هذا لم يلق رواجاً أو اهتماما. لقد كان العالم فقيراً ومتعباً، ولا حاجة به لقراءة كتب عن فقره وتعبه. بعد ستة عشر عاماً من طبع الكتاب، أبلغ شوبنهاور أن بعض نُسَخِه بيعت بالجملة ورقاً تالفاً ليستخدم في لف البضائع.

كان الفيلسوف كانط يفرق بين العالم كما نراه نحن ونحسه، وبين العالم الحقيقي. العالم كما نحسه، أسماه كانط "العالم الظاهري" (phenomenal world). أما العالم الحقيقي فأسماه "العالم كما هو" (noumenal world). أي العالم المستقل عن تأثير العقل.

لكي نوضح الفرق، نفترض أن هناك صياد سمك وجد أن الأسماك التي تقع في شبكته لا يقل عرضها أو سمكها عن خمسة سنتيمترات. هنا يفترض الصياد أن البحر ليست به أسماك صغيرة. هل هذه معلومات صحيحة؟



صيد السمك بالشبكة

لا، هذه المعلومات غير صحيحة، إذا كان قطر فتحات الشبكة خمسة سنتيمترات. المشكلة هنا ليست في البحر، إنما في الشبكة. الشبكة تمثل مخ الإنسان بما به من خلايا عصبية وكهرباء وكيمياء. شبكة المخ هذه تحاول اصطياد المعلومات من العالم الخارجي، الذي يمثله البحر في قصة الصياد.

بالطبع عملية اصطياد المعلومات ليست بريئة وخالية من تأثير الزمان والمكان، التي يفرضها العقل لكي يرتب بها هذه المعلومات. بالنسبة لكانط، المعلومات الحقيقية موجودة، لكننا لا نعرفها بالضبط.

شوبنهاور يتفق مع كانط في تقسيم العالم إلى ظاهري وحقيقي. لكن شوبنهاور يختلف مع كانط في أن العالم الحقيقي، يمكن معرفة شيئا منه. أي أننا يمكننا معرفة جزءا من الحقيقة.

يقول شوبنهاور، إننا يمكننا تصور الأشياء المتماسكة مثل "كوب" أو "كلب" أو "شجرة". ندرك هذه الأشياء بموقعها في الزمان والمكان. لكن نظارة الزمان والمكان هي شبكة الصياد في المثال السابق. وإذا ألغينا عاملي الزمان والمكان، ألغينا معهما



ندرك الكوب بموقعه في الزمان والمكان

خصوصية هذه الأشياء.

ثم يضيف شوبنهاور، إن العالم الحقيقي ليست به أيضا علل سببية كما نعرفها. لأن العلل السببية من خواص العالم الظاهري فقط. العالم الحقيقي، البحر في قصة الصياد، ليس شيئا خارجيا عن تجاربنا ومعلوماتنا. إنما هو داخل العالم الظاهري الذي نعرفه، لكن يختفي بين طيات نسيجه.

كما أنني أستطيع مراقبة جسدي من الخارج، أستطيع أيضا الإحساس بما يدور داخله. وقد أرى رؤيا تتحقق. وقد أتذكر صديقا، فإذا به يطلبني في التليفون بعد دقائق. هذه الأشياء لا تعتمد على الحواس الخمس. لكنها تعطينا فكرة عن وجود هذا العالم الحقيقي الذي لا نستطيع إدراكه بالحواس.

إحساسنا بالعالم الحقيقي يعتمد على الشخص نفسه، على الإرادة. أي أن معرفتنا بالعالم الظاهري تعتمد على الحواس، ومعرفتنا بالعالم الحقيقي تعتمد على ما أسماه شوبنهاور بالإرادة (will).

لدينا الآن عالمان. عالم الحواس (ندركه بالحواس)، وعالم الإرادة (ندركه بالإحساس الداخلي). عالم الإرادة، هو البحر الواسع في قصة الصياد والشبكة. هو الضوء الذي لا تراه العين، والصوت الذي لا تسمعه الأذن. هو بمثابة طاقة عمياء غير موجهة. وما العالم الظاهري



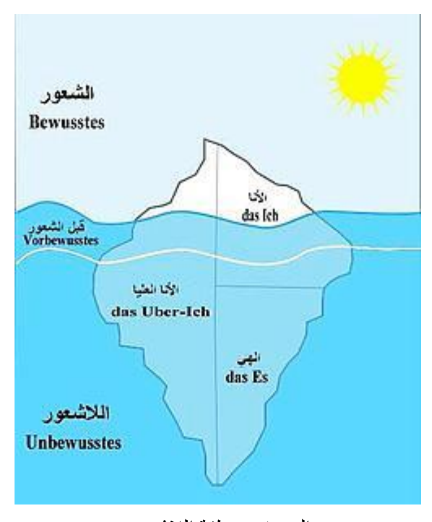
عالم الإرادة هو البحر الواسع في قصة الصياد

إلا مظهر فقط من مظاهر عالم الإرادة.

عالم الإرادة هذا، كطاقة عمياء، هو عالم رهيب. عندما ننظر حولنا، لا نرى سوى البؤس والشقاء وصراع الإنسان والحيوان والنبات من أجل البقاء.

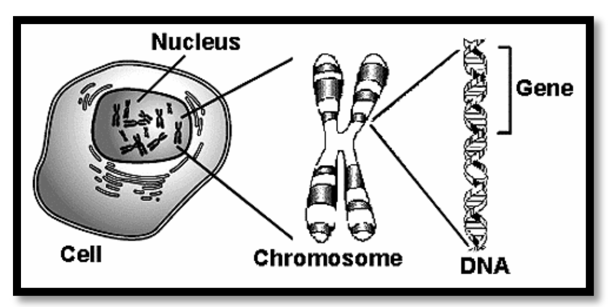
ما الذي يجعل رجلا مثل هشام طلعت يضحي بمستقبله الاجتماعي والسياسي والاقتصادي في سبيل قصة غرامية فاشلة؟ ما الذي يجعل رجل السياسة يكذب وينافق ويرتشي ويقتل وهو في غنى عن كل هذا؟

يخبرنا شوبنهاور أن هذا بسبب، عالم الإرادة. فهو القوى الخفية التي تسبب كل الشرور. هذه القوى تطلب المزيد. من هنا جاءت فكرة "الهي" (ID) عند سيجماند فرويد. "الهي" عند فرويد تعادل "الإرادة" عند شوبنهاور. وقد كتب فرويد يوما يقول: "نحن بدون قصد، نسبح في ميناء فلسفة شوبنهاور".



الهي في منطقة اللاشعور

يخبرنا البريطاني ريتشارد دوكنز في كتابه الهام "الجين الأناني" عام 1976م، بأن الهدف من الحياة بالنسبة لكل الكائنات هو شئ واحد فقط: الحفاظ على الجينات وانتقالها من جيل إلى جيل. الأحياء تولد وتموت، لكن الجينات ثابتة لا تموت. تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق الجنس. وهي أفكار لا تبعد كثيرا عن فكرة "الإرادة" عند شوبنهاور.



الجين ينقل الصفات الوراثية بين الأجيال

"الإرادة" عند شوبنهاور هي قوى عمياء طاغية ماكرة. قد تخفي الغرض الحقيقي من أعمالها. بمعنى آخر، العقل البشري مهيأ لكي يخدع نفسه، ويخدع نظرته للعالم.

إذا نظرنا إلى ما يحدث في هذا العالم، نجد أن الحياة لا تعبأ بسعادة الإنسان وراحته. الهدف هو الإنجاب والانتقال إلى جيل جديد فقط. سلاحف جنوب المحيط الهادي كبيرة الحجم، تموت بالمئات عندما تصطدم بالصخور أثناء العواصف في محاولاتها للخروج للشاطئ لكي تضع



السلاحف تتعرض للخطر في سبيل الإنجاب

بيضها.

نوع من الفراشات، تخرج من الشرنقة، وجهازها التناسلي مكتمل النمو، وكذلك جهازها الهضمي. تقوم بالتناسل ووضع البيض. لكن الطبيعة نسيت أن تعطيها فم تأكل به. وسرعان ما تموت جوعا. فهل هناك قسوة أكثر من ذلك؟

الإنسان بعد سن الثامنة عشر، يبدأ في العد التنازلي. بعد فترة الشباب، أي فترة الحيوية والتناسل، لا فائده منه وليذهب إلى الجحيم كما يقول شوبنهاور، فيهرم ويموت.


أخبار صحف الصباح

بعد ذلك، هل يمكن أن يكون الإنسان متفائلا؟ نظرة واحدة إلى صحف الصباح، أو سماع نشرات الأخبار، بما فيها من أخبار الحروب وداعش وأخواتها، وحوادث القتل بالجملة والقطاعي، والكوارث الطبيعية التي يقتل فيها مئات الألوف، والأمراض والأوبئة والجوع، إلخ. هل يمكن أن يتفاءل الإنسان وسط هذا الكم الهائل من البؤس والشقاء؟ لذلك يسمى شوبنهاور فيلسوف التشاؤم.

يرى شوبنهاور أن الحلول التي جاءت بها الأديان، مثل البوذية والمسيحية مثلا، هي حلول خيالية لا تزال تخدم "الإرادة". لكن شوبنهاور يخبرنا بأن لا نيأس، لأنه هناك حل. صحيح كل الحضارات عبارة عن عملية تهذيب للجنس والعنف، إلا أنها لا تزال أسيرة "الإرادة".


العلاج في الموسيقى

الطريقة الوحيدة للتخلص من عبودية "الإرادة" عند شوبنهاور هي الموسيقى. لكن الموسيقى أنواع. بالطبع لم يقصد شوبنهاور الموسيقى الشبابية. من نوع "بوس الواوا" و "الطشت قال لي". كل أنواع الموسيقى التصويرية أو العاطفية أو أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب لا تصلح لهذا الغرض. حتي السمفونية السادسة لبيتهوفن، التي تصور الريف والأبقار في المراعى، لا تصلح.

فقط الموسيقى بدون كلمات وبدون تصور، أي الموسيقى التأملية التي تشبه الموسيقى الباروكية، هي التي تصلح للهرب من سلطة "الإرادة". موسيقى باخ وفيفالدي وغيرهما من الحقبة الباروكية. هذه الموسيقى تجعلك تهرب من هذا العالم إلى النقاء والصفاء والنيرفانا. هدف يجاهد في تحقيقة أفلاطون وبوذا والصوفيون.

فلسفة شوبنهاور كان لها تأثير عميق على الحركة الثقافية في أوروبا وخاصة في ألمانيا. نيتشة وسيجماند فرويد وتوماس مان، لا يمكن فهم أعمالهم إلا عن طريق شوبنهاور. لكن نيتشة وجد الموسيقى الباروكية لا تزال تداعب الشعور. من ثم، هي لا تصلح. لأنها تصبح تحت تأثير "الإرادة". فما رأيك في موسيقى فاجنر؟

أمضى شوبنهاور البقية الباقية من حياته في فرانكفورت. أبى أن يسخر قلمه للكسب، وكان يقتدي بسقراط الذي كان يرفض أجرا من تلاميذه. عاش الثلاثين سنة الأخيرة من حياته بلا صديق سوى كلبه "أتمان".



شوبنهاور وأتمان، أوفى صديق

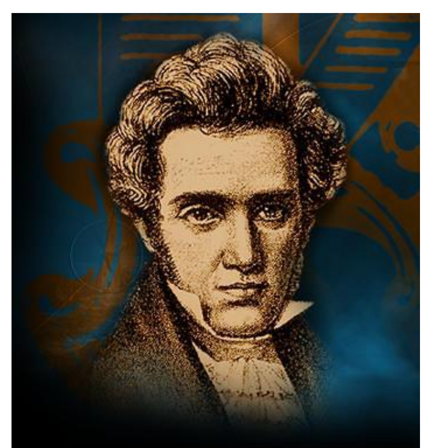
تجاهلته الجامعات وتجاهلت كتبه. قال عنه نيتشه: "لا شئ أساء للجامعة والعلماء أكثر من مخالفة شوبنهاور لهم". أقبل المثقفون من محامين وأطباء وتجار على قراءة كتبه. لأنهم وجدوا فيه فيلسوفا يقدم لهم دراسة وافية عن ظواهر الحياة الحقيقية، لا الميتافيزيقا.

بعد إنتشار حالة اليأس في أوروبا عام 1815م، بسبب آثار الحرب وانتشار الفقر والكفاح من أجل البقاء والدعوة للنظم الاشتراكية. كل هذا ساعد شوبنهاور ورفعه إلى ذروة المجد والشهرة.

عندما بلغ الثانية والسبعين من العمر، وفي يوم من أيام عام 1860م، كان يجلس وحده يتناول طعام الافطار، وكان يبدو في وافر الصحة والعافية، وجدته ربة الدار جالسا ميتا. هذه قصة حياة شوبنهاور وفلسفته. أحد عظماء الفكر في عالمنا الحديث.

13

كيركجارد أبو الوجودية


كيركجارد

كانت طريقة الفيلسوف شوبنهاور في التعامل مع الفليسوف هيجل، الذي انتشرت فلسفته في كل أنحاء أوروبا بحلول عام 1830م، هو نعته بألفاظ غير لائقة في البداية، ثم تجاهله وتجاهل أفكاره. لكن باقي الفلاسفة المعاصرين الذين تبعوا خطوات شوبنهاور، كان عليهم التعامل مع أفكار هيجل مباشرة. من هؤلاء الفلاسفة، سورين كيركجارد (1813-1855م).

أهمية كيركارد بالنسبة لنا هنا، هو أنه يعتبر أبو "الفلسفة الوجودية". بالرغم من أنه يرى نفسه رجل دين فقط لا غير، ولا ينتمي إلى زمرة الفلاسفة. في الواقع، هو لم يكن معارضا للفلسفة، بقدر ما كان معارضا لأفكار هيجل. وقبل التحدث عن فلسفة كيركجارد، سنذكر شيئا عن سيرته.

ولد كيركجارد عام 1813م في كوبنهاجن عاصمة الدينمارك. الطفل السابع والأخير لأبوين تقدمت بهما السن. كان الأب ميسور الحال في السادسة والخمسين من العمر، والأم في الرابعة والأربعين.

كان موت والده عام 1838م، علامة فارقة في حياته. فقد كان الابن يرجح صحبة الأب، الذي كان يكشف له عن مسيحية مليئة بالقلق. وكانت حياة سورين كيرجارد حتى وفاة والده، سطحية مضطربة. إلا أنه بعد ذلك، بدأ يعشق المسرح ويقرأ كثيرا لمشاهير الشعراء. تأثر بالإبداع الفلسفي ل "فخته" و "شيلنج" و "هيجل".

أحب ريجينا ابنة مستشار المحكمة. لكنه تخلي عنها وفسخ خطوبته بعد عشر سنوات، عندما وجدها ستكون عائقا في طريق رسالته الفكرية والفلسفية. ألف العديد من

الكتب، تبين رؤيته ومعالجته للحياة، ساد فيها الجانب الوجداني والذاتي. مات في سن مبكرة بعد شهر من العذاب عام 1855م.

كتب كيركجارد يقول:
"كلما تحسست الوجود، لم أجد شيئا. ما هذا الشئ المسمى بالكون؟ من الذي أوجدني في هذا العالم، والآن يتركني وحيدا؟ من أنا؟ كيف أتيت إلى هنا؟ ولماذا لم يسألني أحد؟"

يرى كيركجارد أن عدم معقولية الحياة تملأ نفس الإنسان بالقلق واليأس، والإحساس بالعجز والاكتئاب. قبل أن يموت كيركجارد بعام واحد، كتب يقول:
"استمع إلى صراخ الأم وهي تضع طفلها. انظر إلى صراع الرجل مع



عدم معقولية الحياة

الموت، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ثم أخبرني: هل من يبدأ هكذا، وينتهي كذلك، يكون قد خلق للسعادة؟"

الإنسان لم يخلق للراحة والسعادة، كما يخبرنا كيركجارد. بحث الإنسان عن المتعة والسعادة، ما هو إلا هروب من القلق والاكتئاب، الناتج عن الاحساس بالضياع.

لكن، ليس هناك هروب من القلق والاكتئاب، لأنهما الحقيقة المرة. إننا نعاني من القلق، حتي مع عدم وجود شئ يستدعي القلق. لأن القلق، هو الخوف من الموت، الخوف من اللاشئ، الخوف من العدم.

لكن، هل هناك علاج للقلق والاكتئاب في فلسفة كيركجارد؟ في عام 1843م، كتب عن حياة رجل حاول الهرب من القلق والاكتئاب، عن طريق الاستسلام لحياة الواجب والمسؤولية. لقد نجح هذا الرجل في حياته العامة. كون الأصدقاء، وتزوج وأنجب الأطفال. لكن سرعان ما عاوده القلق والاكتئاب على أشدهما.

الرجل، كما يقول كيركجارد، قد نجح في حياته العامة. لكنه غريب بالنسبة لنفسه. لأنه لا يعلم أن الخلاص من اليأس، لا يكون إلا عن طريق الانغماس بعمق في اليأس نفسه. الانغماس في العدم.

طريق الخلاص من اليأس، هو ترك كل شئ والزهد فيه. الزهد في الشهرة والمال والجاه والرضى والراحة. الزهد حتى في الاعتقاد في التفكير المنطقي وفي العلوم وفي الفلسفة.

عندما تفقد كل هذه الأشياء، تكون في قمة المأساة. في هذه الحالة، تكون مستعدا للإيمان بالله. وهو هنا يتفق مع الفلسفة البوذية والفكر الصوفي.



الأيمان طريق الخلاص من اليأس

فلسفة كيركجارد تقول، إن الإيمان المطلق بالله، هو الشئ الوحيد الذي يمكننا من التغلب على عدم معقولية الحياة. يمكننا من السيطرة على القلق واليأس والوحدة في هذا العالم الغريب.

لقد لام كيركجارد هيجل، واتهمه بأنه قام بتجريد الفكر والثقافة من الشعور الإنساني. لأن هيجل قام بتعديل قواعد المنطق المتعارف عليها، والتي وضعها أرسطو من قبل. منطق أرسطو يعتمد على ثلاث مبادئ:

مبدأ الهوية (A=A)
مبدأ عدم التعارض، الشئ وضده لا يجتمعان
مبدأ استبعاد المنتصف، إما الشئ أو ضده

جدلية هيجل تعصف بهذه المبادئ. هيجل يقول إن الشئ يحتوي على نقيضه. من ثم يسقط مبدأ الهوية ومبدأ عدم التعارض ومبدأ استبعاد المنتصف. لأن هذه المبادئ مبنية على خلو الشئ من نقيضه.

هذا الكلام لم يعجب كيركجارد. فهو يسخر من منطق هيجل في أن الشئ يحتوي على نقيضه. وكتب يقول:

"إذا تزوجت، فأنت نادم. وإذا لم تتزوج، فأنت نادم أيضا. في كلا الحالتين أنت نادم. إذا شنقت نفسك، فأنت نادم. وإذا لم تشنق نفسك، فأنت نادم أيضا. في كلا الحالتين، أنت نادم لا محالة. هذا، سيداتي وسادتي، مجمل الأفكار الفلسفية."

بالطبع، ليس هذا مجمل الأفكار الفلسفية. لكنه مجمل أفكار هيجل فقط. التي تقول، إن التعارض يوجد داخل الأشياء. مما ينتج عنه لا مبالاة وتدهور في الأخلاق. هذا بسبب اختراق مبدأ استبعاد المنتصف. الذي يقول: إما الشئ أو نقيضه ولا شئ بينهما.

إلغاء هذا المبدأ، يعني إلغاء قرارنا بالاختيار بين "إما" وبين "أو". اختيارنا بين "إما" و "أو"، هو الذي يمنحنا الحرية. بدون هذا الخيار، لن يكون لدينا حرية. إذا كان كل شئ يحمل نقيضه وبذور فنائه، إذن أين أنا من كل هذا. وهل يكون لي في هذه الحالة أى خيار؟

يختلف كيركجارد أيضا مع مقولة هيجل بأن "الحقيقي عقلاني، والعقلاني حقيقي". أي في مساواته للوجود بالفكر. لكن كيركجارد يقول، بأن الأفكار ليست هي الوجود. من المستحيل أن نعي الوجود كفكر.

لماذا لا يساوي كيركجارد الوجود بالفكر، وما العيب في ذلك؟ لأن الأفكار عند كيركجارد، عبارة عن نوع من التجريد. الكلمات عبارة عن رموز. تحمل تصورات ومفاهيم معينة.

جملة مثل: "الكلب بني اللون يطيع صاحبه"، هي بالنسبة لكيركجارد عملية تجريد. أي نوع من الكلاب هذا، وأي درجة من درجات البني؟


جملة الكلب بني اللون، نوع من التجريد

اللغة تأخذ من التجارب، وتخفي التفاصيل والفروق. لكي تجعل الأفكار والتخاطب بين الناس ممكنا. الأفكار، هي في الواقع، صناعة غير دقيقة. عملية تقريب ناتجة من اللغة. لذا،

تبعدنا الأفكار عن حقيقة الوجود أو حقيقة الأشياء. أما الأشياء الحقيقية فهي ليست مجردة.


اللغة مثل الزجاج الردئ ننظر من خلاله

فلسفة كيركجارد، تأخذنا إلى طبيعة الوجود الحقيقي الذي تشوهه اللغة. اللغة مثل الزجاج الردئ الذي ننظر من خلاله إلى الوجود الحقيقي.

لكن كيركجارد، لا يهمه الوجود بصفة عامة. اهتمام كيركجارد فقط بوجود الإنسان. لقد كان ديكارت على حق عندما قال: "أنا أفكر، إذن أنا موجود". لكنه كان مخطئا، هو وهيجل من بعده، عندما ساويا النفس بالفكر. كيركجارد يقول: لكي "تفكر" شئ، ولكي "توجد" شئ آخر.

يمكنني أن أفكر وأقول أشياء كثيرة عن نفسي. مثلا: أنا مدرس، أنا رجل، أنا أحب. لكن لا يمكنني أن أفكر وجودي. أنا يمكنني أن أعيش هذا الوجود، لكن لا أستطيع أن أفكر هذا الوجود. كيف نستطيع أن نفكر الوجود نفسه؟

وجودي يعادل رغبتي وقراراتي وأفعالي. لكن الرغبة ليست فكرا. نعم، الوجود ليس أفكارا. فهل يعني هذا أن الوجود لا أستطيع شرحه بالأفكار؟

يقول كيركجارد: أما هذه فنعم. الوجود يمكن شرحه بالأفكار. أي نوع من الأفكار هذه؟ نوع من الأفكار الفلسفية تسمى "الفكر الوجودي".

لشرح هذه العبارة، قام كيركجارد بالتفرقة بين الفكر الموضوعي (Objective)، والفكر الشخصي (Subjective). الفكر الموضوعي، يخص حقائق موضوعية علمية ورياضية وتاريخية.

الحقائق الموضوعية، وجودها مستقل عن وجود الشخص منا. إذا وجدت أو ثبت عدم صحتها، فلن يؤثر هذا على وجود الشخص. لذلك، لم يكن كيركجارد مهتما بمثل هذه الحقائق.


لا يسمح برؤية المرأة عند الوهابيين

الأفكار الشخصية، لا تعتمد على الحقائق الموضوعية. الأفكار الشخصية، مثل القيم والأخلاق والإدعاءات الدينية، تعتمد على الشخص ودرجة تقييمه لها. مثلا: الشرف في منطقة الشرق الأوسط، موضوع كبير وهام. إننا لا نسمح حتي برؤية المرأة. ونضعها داخل النقاب. هذا هو أسمى آيات الشرف والعفة بالنسبة للمرأة عند الوهابيين.


الإسكيمو يقدم زوجته للضيف كنوع من الكرم

لكن بالنسبة للرجل الإسكيمو، عندما يحل عليه ضيف غريب، يجعل زوجته ترافقه الفراش، كنوع من كرم الضيافة. هذا ما يعنية كيركجارد بأن القيم والأخلاق مواضيع شخصية، تعتمد على الأشخاص أنفسهم.

إذا قلت لي أن العمل الغير أخلاقي يسبب بؤسا وآلاما مبرحة للآخرين. وإذا قمت أنا بإثبات العكس. فلا توجد حقائق موضوعية يمكن أن نحتكم إليها، لمعرفة الحقيقة. كل منا يقول أن دينه هو الصحيح. ولا توجد حقائق موضوعية لإثبات صحة ذلك أو عكسه.

لكن حاجتي للأفكار الشخصية ضرورية. لا من وجهة نظر معرفة الحقيقة. ولكن لأن هذه الأفكار الشخصية تساعدني على مغالبة اليأس والاستمرار في الحياة. هذه الأفكار، ضرورية لإحساسنا بوجودنا.

هناك نوع آخر من الحقائق الشخصية، غير القيم الخلقية والدينية. هذه الحقائق الشخصية، يمكن تناولها فقط بطريقة غير مباشرة، كما يقول كيركجارد. يمكننا التلميح إليها، أو التقليل من شأنها، أو الدفاع عنها أو تجاهلها. لكن لا يمكن فهمها بدون أمثلة. وهي حقيقة الموت.

حقيقة موت الشخص، تعتبر حقيقة شخصية. لأنها تعتمد على وجود الشخص. وهي ليست مستقله عنه، بخلاف الحقائق الموضوعية. اكتشاف الشخص أنه سوف يموت لا محالة، هي حقيقة شخصية. تقود إلى حقيقة وجود الشخص. وهي أيضا حقيقة شخصية.

وجود الشخص، عندما نقارنه بالخلود والوجود المطلق، نجد أنه وجود تافه، يقترب من العدم، وليس له معنى. لذلك نتعجب لمن يشغلون أنفسهم بالتراهات والسفاسف من الأمور.

اكتشاف وجود الشخص لنفسه، يساعدنا على تنظيم وترتيب أولوياتنا وقيمنا، وعلاقة الأفراد بالمجتمع، ودور اللغة في حياتنا. اكتشاف وجود الشخص، يظهر هذا الوجود إلى النفس.

النفس عند كيركجارد، هي حقيقة شخصية. تتكون عن طريق التزام الشخص منا بالحقائق والقيم الشخصية. مثل الأخلاق والأديان...إلخ.

النفس الحقيقية عند كيركجارد، هي النفس التي تختار نفسها. عن طريق ممارسة أنشطة، توضح وتكون قيم خاصة بالشخص. مع تحمل مسؤولية هذه القيم كاملا.

رأي كيركجارد أن من واجبه، ليس بناء فلسفة معرفة (أبستيمولوجيا) جديدة، أو بناء نظام ميتافيزيقي حديث. لكن خلق إنسان جديد من البشر. قادر على اقتناص حريته، ورسم خريطة مستقبله بنفسه.

شارك كيركجارد في هذا الرأي، اثنان من الفلاسفة. هما كارل ماركس وفريدريك نيتشة. لكن كيركجارد، يسمي إنسانه الجديد "فارس الإيمان".

يستوعب هذا الفارس، كل العبث والوحدة وعدم معقولية الحياة والوجود الشخصي الذي يقترب من العدم. ويجد في نفسه القدرة على توحيد عالمه وربطه ببعضه عن طريق الإرادة التي يسميها كيركجارد بالإيمان.

فارس الإيمان، هو إنسان كيركجارد الجديد، الذي يجد الوحدة مع الله. لكن هذا الإنسان الجديد، هو شرح متعسف لقصة النبي ابراهيم في العهد القديم.

عندما رأى النبي ابراهيم فى المنام أنه يذبح ابنه اسماعيل، أو إسحق كما جاء فى العهد القديم. أخذ النبي ابراهيم ابنه، بدون إخبار زوجته، وسار به ثلاثة أيام. عاقدا العزم والنية على تنفيذ الأمر الإلهي.


النبي ابراهيم يهم بذبح ابنه

عندما وصل إلى مكان المذبح، أخرج سكينه الحاد بنصله اللامع، وهم بتنفيذ الأمر الإلهي. حينئذ، ظهر ملاك الرب ليوقف عملية الذبح هذه. ويفدي الطفل بكبش عظيم. يعود النبي ابراهيم سعيدا لأهله مع ولده، سالما حاملا لحم الضحية على كتفه. بعد نجاحه فى الامتحان ورضاء الرب عليه.

يعتقد الفيلسوف كانط من قبل، أن النبي ابراهيم كان مخطئا في امتثاله لصوت الهاتف، طالبا منه ذبح ابنه. لأن هذا عمل غير أخلاقي شنيع من وجهة نظر كانط.

لكن الفيلسوف سورين كيركجارد، تحت اسم مستعار "جوهانز سيلينتو"، مؤلف كتاب "الخوف والارتجاف"، يحلل قصة النبي ابراهيم هذه. ويستنتج منها، أن النبي ابراهيم يمثل الايمان الحقيقي. الايمان الذي لا يمتثل إلى القوانين الأخلاقية. ولكن يمتثل إلى سلطة أعلى. إلى الله الذي هو مصدر كل القوانين الأخلاقية.

ثم يتساءل كيركجارد، من أعطى النبى ابراهيم القدرة على رفع يده وبها السكين لكي يذبح فلذة كبده. كيف قويت إرادته وروحه على ذلك. لماذا لم يغم عليه أو يصب بالدوار، أو بضعف البصر، حتى لا يستطيع رؤية ابنه أمامه؟ من أدراه أن هذا أمر إلهي؟

أليس من الممكن أن يكون الشيطان هو صاحب الفكرة، وأراد أن يورط النبي ابراهيم فى الأمر؟ أو يكون الأمر مجرد اختبار، لمعرفة مدى حفاظ ابراهيم على قوانين الرب،

التى تمنع القتل لأى سبب، حتى لو كان الأمر قادما من مجرد رؤيا فى منام أو هاتف من بعيد؟

الإيمان بالله، هو الذي جعل النبي ابراهيم يفعل ما فعله. الإيمان قادر على تحويل عملية القتل إلى فعل مقدس لإرضاء الرب. عمل النبي ابراهيم، هو عمل عبثي. لقد كان النبي ابراهيم عظيما. هذه العظمة تأتي من قوته العاجزة، وحكمته الحمقاء، وقداسته المجنونه.

لقد كان لدى النبي ابراهيم إيمانا، أقوي من القوانين الأخلاقية التي تحكم مجتمعه. لقد كان لديه إيمانا بأن الله سوف يرجع إليه ولده. لذلك، فهو فارس الإيمان عند كيركجارد. لأنه أصبح مصدر السلطات، والمسؤول مسؤولية كاملة عن أفعاله.

الإنسان يختار وجوده. الحقيقة هي موضوع شخصي يعتمد على وجود الشخص. هذه هي بداية الفكر الوجودي في القرن العشرين. الذي يضع وجود الفرد في مركز الفكر الفلسفي.

وجهة نظر كيركجارد هذه، كان لها تأثير كبير على المدارس الفكرية والفلاسفة فيما بعد. جان بول سارتر، مارتن هيدجر، كارل جاسبيرز، البير كامو، جبريل مارسيل وغيرهم. الفلسفة ليست فسلفة الطبيعة والكون والمادة، لكنها ببساطة فلسفة الإنسان.

يجب أن لا ننسى أن كيركجارد مفكر ديني. لذلك، ليس من المستغرب دفاعه عن الإيمان، وعن وجود الله بحجج رصينة. البراهين التقليدية على وجود الله، وكذلك انتقادات الملحدين للفكر الديني تصبح ضعيفة ضحلة، إذا ما قورنت بحجج كيركجارد. يرى كيركجارد أن الإيمان يقوي روح الإنسان ولا يضعفه أو يغرر به.

لكن الانتقادات التي توجه إلى كيركجارد بخصوص نظرية فارس الإيمان كثيرة. يقول نقاد كيركجارد أنه يعطي الناس رخصة لقتل الأبرياء باسم الرب وما يؤمنوا به من معتقدات. حتى لو كان ما فعله النبي ابراهيم بالرغم من حبه لابنه، وليس كفعل المتطرفين، وقتلهم لضاحياهم بسبب الكره والحقد على من يخالفهم في العقيدة.

لكن ماذا يقول كيركجارد بالنسبة للمؤمن المخبول، الذي يرى في المنام أنه يذبح ابنه، فيسارع بتنفيذ الأمر؟ هل هو أيضا فارس إيمان كما يقول كيركجارد؟

ماذا يكون حكم القاضى فى وقتنا الراهن على رجل متهم فى الشروع فى قتل ابنه، إذا كان دفاعه الوحيد هو: "لقد أمرني الرب بفعل ذلك"؟

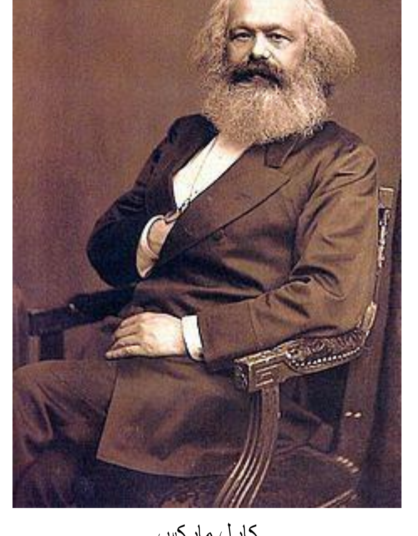


ابن سام سفاح بروكلين

وماذا يقول كيركجارد، بالنسبة ل "ابن سام" سفاح بروكلين بالولايات المتحدة فى السبعينيات." الذي كان يردد: "كانت الأصوات تأتيني من الرب بقتل هؤلاء"؟

14

كارل ماركس


كارل ماركس

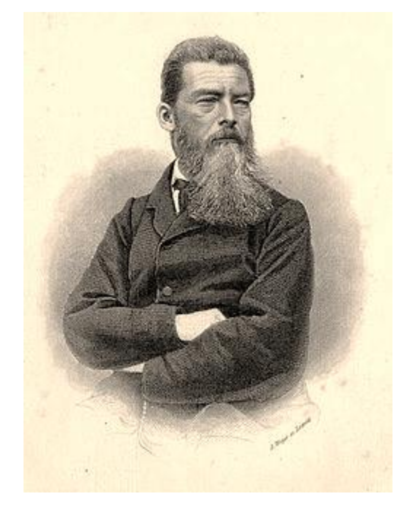
لم يكن سورين كيركجارد، أبو الوجودية، هو الوحيد الذي تأثر بعمق بأفكار هيجل. عندما التحق كارل ماركس (1818 – 1883م) وهو شاب، بجامعة برلين لدراسة الفلسفة عام 1830م، كان هيجل قد مر على وفاته بمرض الكوليرا خمس سنوات. لكن أفكار هيجل كانت في ذلك الوقت تملأ المكان. لكي تدرس الفلسفة في ذلك الوقت، يعني هذا أنك يجب أن تدرس فلسفة هيجل.

لكن الفلاسفة أتباع هيجل لم يكونوا في وفاق مع بعضهم البعض. في الواقع كان هناك نوعان من الفلاسفة الهيجليين: يساريون ويمينيون. الفلاسفة اليمينيون كانوا محافظين مهتمين بالدين والأخلاق.

الفلاسفة اليساريون، كانوا أصغر سنا يسمون "الهيجليون الفتيان". كانوا أيضا، أكثر راديكالية. الراديكالية كلمة تعني الأصولية، وترمز حاليا إلى أقصى اليسار الذي يدعو إلى العدالة الاجتماعية والمساواة الكاملة بين البشر. كانوا مهتمين بالجانب الاجتماعي والسياسي في فلسفة هيجل.

العجيب أن هؤلاء الفلاسفة الهيجليون الفتيان كانوا يعتقدون أن هيجل، راجل كما نقول نحن بالبلدي: "فاهم بس موش عارف يعبر". الهيجلية التي وصلتنا هي فلسفة

معكوسة. أهمية هيجل هنا، ليست فيما يقوله بطريقة مباشرة، لكن في المعنى الخفي الكامن داخل طيات نظريته. مثل عملية تفسير الأحلام. الحلم ما هو إلا رمز يحتاج إلى تفسير، كما يقول فرويد. وقد يكون التفسير عكس ما يظهر في الحلم بالضبط.



فيورباخ

كارل ماركس كان يساري من أتباع الهيجليين الفتيان. كان لودفيج فيورباخ (1804 – 1872م)، هو زعيم اليساريين وإمامهم. كتاب فيورباخ عن نقد الأديان، عبارة عن عكس لأفكار هيجل على خط مستقيم. هيجل يقول أن الله هو الذي خلق الإنسان. لكن فيورباخ يقول، إن الإنسان هو الذي خلق مفهوم الإله.

يعتقد فيورباخ أن هناك قيم عامة يتمناها كل إنسان. كل الحضارات، منذ فجر التاريخ، نجد فيها الإنسان يتشوق للحق، والجمال، والعدالة، والقوة، والنقاء، إلخ. يبدو أن طبيعة الإنسان التشوق لمثل هذه القيم.

لكن مع مر العصور، هذه القيم التي يطلبها الإنسان، أصبحت غريبة عنه. هذه القيم أصبحت تخص الإله وحده، الذي يطلب من الإنسان أن يضحي بكل شئ لكي يتمجد في الملكوت الأعلى.

يعتقد فيورباخ أنه طالما الإنسان في حالة اغتراب مع هذه القيم، لن يكتمل نموه كوجود. الإنسان، كما يقول فيورباخ، إله في حد ذاته. لكي يحقق الإنسان ذاته كإله، يجب أن ينفض عن كاهلة، كل ماله علاقة بمفهوم الدين. طبعا كلام خطير جدا، لا يبعث البهجة في صدور رجال الدين في بلادنا.



العائلة المقدسة

يقول فيورباخ، وهو هنا يأخذ الدين المسيحي كمثال، إن على الإنسان أن يمحو صورة العائلة المقدسة من فكره كلية لكي يعيش في سلام وسعادة ووئام مع عائلته على الأرض. لأنه طالما نحن نحمل في رؤوسنا صورة هذه العائلة المقدسة، ستكون الحياة بالنسبة لنا، مجرد فترة اختبار وشقاء وعذاب.



الامتثال للبؤس في الدول الصناعية

العمال سوف تحضر قداس الأحد للبكاء وللاعتراف بخطاياها. تمتثل للبؤس كقدر مكتوب، ثم تذهب إلى الخمارة لكي تنسى أجورها الضئيلة.

كطالب فلسفة صغير السن، تأثر ماركس كثيرا بأفكار فيورباخ. كان يقول: "لن تستطيع أن تمارس الفلسفة بحق، دون المرور على الجدول الناري". الجدول الناري أو الغدير الملتهب، هي ترجمة معنى اسم فيورباخ من الألمانية. لكن بعد فترة وجيزة، أصبح ماركس مترددا بالنسبة لأفكار فيورباخ. من هنا تبدأ فلسفة ماركس. أي منذ بداية نقده لأستاذه فيورباخ.

كان فيورباخ يفتخر بأنه استطاع الهرب من مثالية هيجل التي تقول بأن العقل هو مصدر المعرفة. يدعي أن فلسفته هي فلسفة مادية. لكن ماركس ينتقد فيورباخ، ويصف فلسفته بأنها مجرد مثالية مشفرة. فيورباخ، في نظر ماركس، فيلسوف مثالي مثل هيجل، لكنه يعتقد أنه فيلسوف مادي.

في نظر كارل ماركس، لا يكفي محو صورة العائلة المقدسة، لكي تعيش العائلة الأرضية في سلام ووئام. لكن يلزم تغيير تركيبة العائلة الأرضية الأبوية الذكورية، التي تعكس التركيبة الأبوية الذكورية للمجتمع، لكي تختفي فكرة العائلة المقدسة من حياتنا. ثم قال ماركس قولته المشهورة: "ليس من واجب الفيلسوف أن يفسر العالم بطرق مختلفة. الهدف هو تغيير هذا العالم".

لسنا في حاجة لإلغاء الدين، كما يقول ماركس، إنه ببساطة سوف يذوب ويختفي من نفسه. لأن الدين ليس هو سبب اغتراب الإنسان عن قيمه. إنما هو مظهر من مظاهر الاغتراب.

المساجد لم تعد تتسع لصلاة الفجر في تركيا

مقولة ماركس "الدين أفيون الشعوب"، دائما تفهم بالمعنى الخطأ.

ما يعنيه ماركس هو أن الدين بالنسبة للإنسان، مجرد تأوهات مظلوم وزفرات مقهور في هذا العالم الذي لا قلب له. الدين عبارة عن روح من لا روح له. الدين أفيون الشعوب، تعني أن الدين هو الدواء والمخدر الذي يخفف آلامهم.

كان ماركس، مثل سابقيه هيجل وفيورباخ، مهتما بتحليل سبب اغتراب الإنسان. مفهوم الاغتراب، هو مفهوم فلسفي متعدد المصادر. يعني الخروج من الذات أو فقدانها والاغتراب عنها.

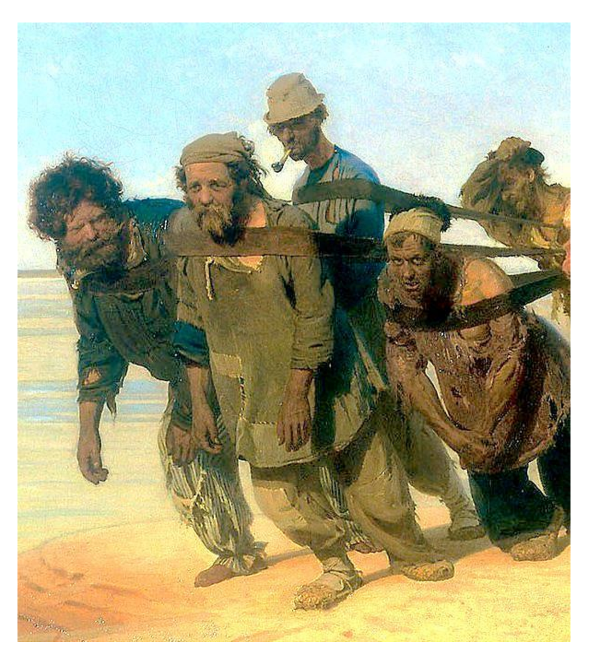
في بعض المجتمعات، يغترب الإنسان عن ذاته. أي أنه لا يجدها في نشاطاته وانتاجاته المادية والروحية. لتصبح أشياء غريبة عنه كأنها كائنات مستقلة. العامل في واد، ومايقوم به من عمل في واد آخر.

يعتقد ماركس أن من طبيعة الإنسان العمل والإنتاج. الإنسان عند ماركس، ليس الإنسان العارف (homo sapiens)، لكن الإنسان الصانع. لأن ما نعرفه يعتمد على ما نصنعه.



طبيعة الإنسان العمل والإنتاج

نحن نصنع منتجاتنا، ومنتجاتنا تصنعنا وتشكل عقولنا. إذا كان ما ننتجه عديم الفائدة، نصبح نحن أيضا عديمي الفائدة. إذا كانت برامج قنواتنا الفضائية وصحافتنا مضيعة للوقت، تصبح حياتنا هي أيضا مضيعة للوقت لا قيمة لها.


اغتراب الإنسان عما يقوم به من عمل

لسوء الحظ، عملية الإنتاج تتأثر بعوامل تاريخية ليس في مقدورنا التحكم فيها. مثلا، إذا كانت العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تضع حاجزا بين الإنسان وما ينتجه، يكون الناتج اغتراب عن العمل. هذا يحدث عندما يقوم الإنسان بعمل ما، لا يريده هو، لكن لإشباع رغبة شخص آخر. ويزداد الأمر سوءا عندما يعمل الإنسان لتحقيق مصالح مؤسسات لا تبغي سوى الربح.

الأدهى من ذلك، عندما يؤدي إنتاج العامل إلي المزيد من الاغتراب. كما هو الحال في إنتاج السجائر التي تعود إلى العامل بأمراض القلب وسرطان الرئة. الرأسمالية، كما يقول ماركس، هي المسؤولة في جميع الأحوال عن اغتراب الإنسان عن العمل الذي يقوم به.

اغتراب العمل يعود ثانية إلي العامل، فيجعله مغتربا عن باقي الجنس البشري. الهدف من شيوعية كارل ماركس، هي خلق مجتمع يختفي فيه الاغتراب حتى تعود للإنسان إنسانيته.

لكي نقوم بتحويل مثالية هيجل إلى فلسفة مادية، قام ماركس بتأثيث فلسفة فريدة لا مثيل لها في التاريخ. لقد ناقشنا في الأبواب السابقة فلسفات مادية، مثل فلسفة ديموقريطس وهوبز. لكن كلا منهما اعتمد في تعريفه للمادية على الفيزياء. المادية عندهم عبارة عن كتلة في حركة مستديمة.

لكن ماركس اختار، كأساس لماديته، عناصر اقتصادية. لم يهتم بالحقيقة كلها، ولكن حصر اهتمامه في حقيقة الإنسان. لكي يتكون أي مجتمع، يلزمنا: عناصر إنتاج طبيعية، ووسائل إنتاج (عمل)، ووسائل توزيع.

ثم نبني فوق هذا المستوى، مستو آخر من العلاقات الاجتماعية: سياسية وقانونية. ثم يأتي بعد ذلك، مستوى آخر ثقافي أو حضاري، يتمثل في: الفنون والدين والأخلاق والشعر والفلسفة، إلخ.

في قمة البناء الاجتماعي، تجد الثقافة والحضارة التي أسماها ماركس الأيديولوجية. كان يقول في البداية أنها مجرد انعكاس لأساسيات المجتمع الاقتصادية. ثم عدل قوله هذا معترفا أن التأثير ليس بالضرورة في اتجاه واحد، ولكن ممكن أن يقع في كلا الإتجاهين. بمعنى أن الأيدلوجية هي أيضا لها تأثيرها على أساسيات المجتمع الاقتصادية.

ابحث عمن يمتلك عناصر الإنتاج ووسائل الإنتاج ووسائل التوزيع، لكي تكتشف من هو وراء إصدار هذه القوانين وهذه السياسات، ومن هم وراء الفنون والعلوم والأخلاق والدين في أي مجتمع. من ينفخ في المزمار هو الذي يحدد نوع الموسيقى. الأفكار السائدة، هي أفكار الطبقة الحاكمة.



من ينفخ في المزمار يحدد نوع الموسيقى

رجال الأعمال في بلادنا لا تحكم فقط، ولكن تشكل عقولنا وأخلاقياتنا وثقافتنا، وتحدد مستقبلنا ومستقبل أولادنا. من هنا تأتي خطورة أحمد عز وهشام طلعت مصطفى، وغيرهم، عندما يكونون هم الطبقة الحاكمة في بلد مثل مصر.

امتلاك عناصر الإنتاج المادية في المجتمع تخلق نظام طبقات. طبقة الذين يملكون، وطبقة المحكومين بالطبقة الأولى، أي طبقة الذين لا يملكون. ولأن مصالح هاتين الطبقتين متعارضتان، نجدهما دائما في صراع. في أول سطر في البيان الشيوعي، كتب ماركس: "تاريخ المجتمعات، حتى اليوم، ما هو إلا تاريخ صراع طبقات".

صراع الطبقات هذا، بدأ قبل التاريخ، عندما اخترع الإنسان أدوات الصيد. ثم وصل هذا الصراع إلى أقصاه في العصر الحديث. عندما ظهر في صورة صراع بين الطبقة المالكة الرأسمالية (الطبقة البرجوازية)، وطبقة العمال (طبقة البرولويتاريا). وقد أمضى كارل ماركس معظم حياته في دراسة التركيب الداخلي



صراع الطبقة المالكة مع طبقة العمال

للرأسمالية. بما فيها من تناقضات تذكرنا بجدلية هيجل.

الرأسمالية تركز على المنافسة، والمنافسة تقود إلى الاحتكار. الرأسمالية تحتاج دائما إلى: مواد خام وعمالة رخيصة وأسواق لمنتجاتها. هذا يقود إلى حروب إمبريالية طاحنة بين الدول الرأسمالية. كما أنها تحاول علاج البطالة، بضخ الأموال في السوق. هذا يخلق تضخم (ارتفاع أسعار السلع). ثم تحاول علاج التضخم بتسريح العمال وإحالتهم للمعاش المبكر.

يعتقد ماركس أن التناقضات الداخلية للرأسمالية، سوف تؤدي في النهاية إلى إنهيار النظام الرأسمالي، وثورة الطبقة العاملة. التي تؤدي، كما يقول، إلى "دكتاتورية البروليتاريا". وهي ديكتاتورية مؤقتة لازمة للمحافظة على مكاسب العمال. عندما ينتهي دور دكتاتورية البروليتاريا، تتنازل عن السلطة.

طبعا هذا تفاؤل أكثر من اللازم. اللورد آكتون في نهاية القرن التاسع عشر كان أكثر تشاؤما عندما قال: "السلطة مفسدة. والسلطة المطلقة فساد مطلق".


لورد آكتون

تنازل البروليتاريا عن السلطة، إن تم ذلك، سوف ينتج عنه مجتمع ليست به طبقات. وبالتالي يختفي الصراع الداخلي وينتهي التاريخ كما نعرفه المبني على الجدلية.

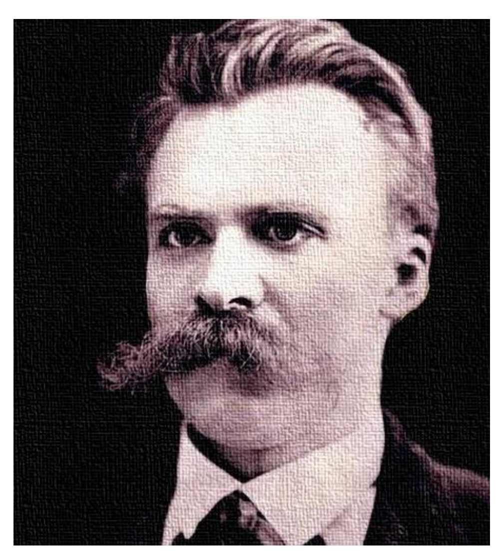
في هذا المجتمع، سوف تختفي الملكية الخاصة، والتخصص في العمل، ونصبح جميعا فنانين وفلاسفة في مجتمع شيوعي. نقوم بالتريض في الصباح، وصيد السمك بعد الظهر، ونقرأ وننقد الشعر مع وجبة العشاء. دون أن نكون صيادين ونقاد محترفين.

مجتمع يذهب فيه الناس للمسرح، يقرأون الكتب، ويمارسون الحب، ويقومون بسماع الموسيقى، وبممارسة الرسم والغناء والرياضة البدنية. إنسان جديد كما كان يسميه كيركجارد.


مجتمع يذهب فيه الناس للمسرح ويسمعون الموسيقى

15

نيتشة والرجل السوبرمان


نيتشة

فريدريك نيتشة (1844-1900م)، هو أحد ثلاثة فلاسفة تأثروا بفلسفة كانط. الآخران هما كيركجارد وماركس. لم يناد نيتشة بفلسفة جديدة لنقد العقل المحض، كما فعل كانط، لكنه طالب بنوع جديد من البشر، الإنسان الأعلى (Superman).

والده قس بروتستانتي، كان مربيا للعديد من أبناء الأسرة الملكية. عاش الابن فريدريك حياة مدرسية عادية. عاصر في شبابه الوحدة الألمانية وزعيمها بسمارك. توفى والده وهو في سن الخامسة عشر. تأثر بالفيلسوف الألماني شوبنهاور. عشق الموسيقى الكلاسيكية وخصوصا موسيقى بيزيه وفاجنر.

درس نيتشة اللغات القديمة والفلسفة الإغريقية القديمة وتأثر بفلسفة أبيقور. خدم في الجيش الألماني، وسقط أثناء الخدمة عن صهوة جواده، مما تسبب في إعفائه من باقي مدة الخدمة بالجيش.

كان طالبا نابغة. عين مدرسا للأدب اليوناني القديم في جامعة بازيل في ألمانيا وهو في سن الرابعة والعشرين. ورث منذ طفولته مرضا مزمنا جعله يتعاطى الكلورال كمخدر لتخفيف آلامه. أصيب بالجنون قبل وفاته. طاف كل أوربا وحيدا فريدا.

بدأ بكتاب مولد المأساة الذي يتحدث فيه عن الأساطير الإغريقية وارتباط الحضارة بالموسيقى. كان يرى تعاليم المسيحية المسالمة انحطاطا، وأن الأخلاق الحقيقية، تنحصر في النمط الإغريقي الذي يمجد القوة والفن. كان يستخف بالرقة والنعومة وطيبة القلب التي رآها من صفات المسيحية.

كان نيتشة شاعرا وعالم لغويات متميزا وناقدا وكاتب نصوص بارعة العذوبة. كتب عن الأخلاق وعن موضوعات فلسفية معاصرة مثل: النفعية والمادية والمثالية والرومانسية الألمانية والحداثة وغيرها. يعتبر أحد رواد الفلسفة الوجودية وما بعد الحداثة. معظم أعماله عن الإنسان الحديث، في عالم مضطرب غاب فيه الإله. اختلف في تفسير أعماله النقاد.

كان يرفض الأفلاطونية والمسيحية الميتافيزيقية. ابتعد عن أفكار كلا من كانط وهيجل والفكر الديني. كان يعتبر القيم السائدة والأخلاق المتوارثة، ما هي إلا قيم وأخلاق خطرة.

قدم تصورا مهما عن تشكيل الوعي والضمير عند الإنسان، بالإضافة إلى إشكالية الموت. كان يرفض التمييز العنصري، لكنه رفض أيضا المساواة بشكلها الاشتراكي الليبرالي.

كان نيتشة مفكرا انطوائيا. يفضل السير في دروب جبال الألب وحيدا على أن يكون في مدرجات الجامعات والمؤسسات الأكاديمية، التي هجرها وهو في منتصف

الثلاثينات من العمر. أمضى معظم وقته، يحاول التخلص من تأثير أحداث الطفولة التي مر بها. مثل تعاليم مارتن لوثر الدينية، القومية الألمانية، وكذلك تأثير أمه وجدوده وخالاته وأخته عليه.

نجح نيتشه في بعض هذه الجهود، وأخفق في الباقي. كانت النتيجة، هي هذا السيل الوافر من المؤلفات الفلسفية الغريبة، التي لم نشاهد مثلها من قبل. تحت عناوين مثل: تاريخ المأساة، وراء الخير والشر، انتساب الأخلاق، هكذا تكلم زرادشت، سيرة ذاتية تحت عنوان "هو ذا الرجل"، إلخ.

عندما أصيب نيتشة بمرض شديد وشارف على الموت، طلب من أخته أن لا تدعوا قسيسا ليقول التراهات على قبره. وقال لها: "أريد أن أموت وثنيا شريفا". لكنه شفي وذهب إلى جبال الألب لكي يتعافى. هناك كتب أشهر كتبه: "هكذا تكلم زرادشت". حيث مزج فيه الفلسفة بالشعر، ونقد فيه مبادئ الأخلاق التقليدية، مناديا بفلسفة أخلاقية جديدة.

يبدأ الكتاب بقصة النبي الفارسي زرادشت، الذي نزل يدعو الناس إلى الإنسان الأعلى، السوبرمان. هو إنسان يعتبر أرقى في التفكير والأخلاق وأشجع من الإنسان الحالي. يلتقي زرادشت بكهل يتعبد ويدعو الرب، فيتعجب زرادشت ويقول:"أيعقل أن هذا الرجل العجوز لا يعلم أن الرب قد مات وأن جميع الآلهة ماتت أيضا".


زرادشت

يواجه زرادشت صعوبة كبيرة في البداية في إقناع الناس بدعوته، إذ كانوا ينصرفون عنه للتمتع بمراقبة بهلوان يمشي على الحبل. لكن الرجل يسقط من ارتفاع شاهق، فيأخذه زرادشت بين ذراعيه ويخبره بأنه يفضله على الجميع ويحبه، لأنه عاش حياته برجولة وشرف، معرضا نفسه للخطر.

نظرية نيتشة في المعرفة (epistemology)، نظرية أصولية ترجع إلى عصر السوفسطائيين. نظرية نيتشة تسمى المنظورية (perspectivism). اشتقها من دراسته لفقه اللغة.

الدارس لفقه اللغة واللغات القديمة، يعرف أن الكتب المقدسة مثل الإنجيل والتوراة والمشنا والزبور والفيدا والأبنشاد، وكتب مثل الإلياذة والأوديسة، وألف ليلة وليلة، وغيرها، ليست ترجمات لوثائق واضحة ثابتة تعتبر وثائق أصلية حقيقية. إنما هي مجرد تجميع لكلمات وحروف باهتة وغير كاملة، متعارضة في معظم الحالات،



مخطوطات العهد القديم

مكتوبة على أجزاء من رقاع جلدية وشظايا فخارية أو ورقية متآكلة.

يعتقد نيتشة أن هذه الأسفار القديمة ليست أصولا أصلية. كل منها كتبت بناء عن قرارات أخذها الجامع لهذه النصوص من تلك الشظايا والمترجم لها. هذه القرارت لا يمكن أن تكون مستقلة عن المترجم وثقافته ومعتقداته وحالته المزاجية.

لكنها، لا بد أن تكون متأثرة بعدة عوامل مختلفة. مثلا، المنتج النهائي كما يتخيله ويريده المترجم، كذلك تفسيره الشخصي لمعنى الكلمات، علاقة الأجزاء بعضها ببعض، ما يعرفه الكاتب أو المترجم مسبقا عن الموضوع، ما يدور حوله من سياسة وأقاويل، وما يعتنقه من عادات، إلخ.

ما يحدث في عالم الكلمات، يحدث أيضا بالنسبة لعالمي الواقع والمعرفة. كما أن الأسفار القديمة ليس لكل منها أصل واحد صحيح يمكن النقل منه بثقة مطلقة، كذلك المعرفة ليست لها معطيات ثابتة حقيقية.

مفاهيم مثل: "المثل" أو "الجوهر" أو "الهيولي" أو "الله" غير موجودة في حد ذاتها. إنما الموجود فقط هو شظايا متفرقة من المعطيات، تخيلات وتفاسير في حالة فوضى أو في حالة فيض متصل، نقوم نحن بتشكيلها وترتيبها حسب إرادتنا.

هذا يعني أنه لا توجد معرفة حقيقية حسب المفهوم الأفلاطوني (المٌثل). كل المعارف من اختراعنا، لأنها أسيرة اللغة. اللغة أكاذيب، وكل المعارف أيضا أكاذيب. والأكاذيب خداع للنفس. الناس التي تخدع نفسها تفعل ذلك وتسميه معرفة.

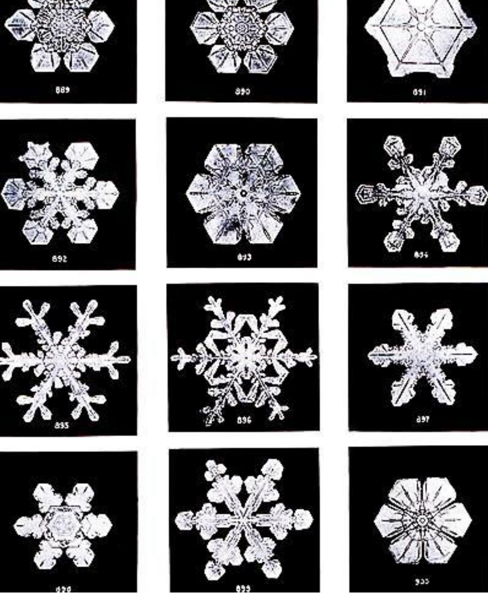
يقول نيتشة، إذا كان لابد من الكذب، على الأقل يجب أن يكون كذبا خلاقا. لكي يكون الكذب خلاقا، يلزمنا ما أسماها شوبنهاور "إرادة القوة". التي أسماها نيتشة ب "دافع الحرية". إن غرائزنا البيولوجية وأفكارنا ولغاتنا، هي العوامل التي تجعلنا نخدع أنفسنا. هي التي تشكل ما نسميه "إرادة القوة" أو "دافع الحرية".

اللغة التقليدية عند نيتشة تبنى على الكذب. فمثلا، ليست هناك ورقتي شجر يشبهان بعضهما في كل شئ. بالرغم من ذلك نسمي كل ما ينبت من الأغصان أوراق شجر. سواء كانت الشجرة، شجرة تين أو تفاح أو موز.



تختلف أوراق الشجر في الشكل

بلورة الثلج شكلها سداسي. ولا توجد بلورتان متشابهتان في الشكل. بصمة الإصبع في الإنسان تختلف من شخص لآخر. ولا توجد بصمتان متشابهتان. اللغة هنا عبارة عن أداة لتشويه الحقيقة، وطرق تقريبية لفهمها.


بلورات الثلج السداسية

اللغة ينتج عنها أكاذيب تستعبدنا في حياتنا. لكن كون اللغة تكذب، هذا يجعلها أداة قادرة على الابتكار والخلق. تتمثل في الشعر والبلاغة والمحسنات البديعية من طباق وجناس وسجع، إلخ. وقد قيل أن أعذب الشعر أكذبه. وكان الرازي يقول: "كل شاعر ترك الكذب، والتزم الصدق؛ نزل شعره ولم يكن جيداً".

انظر إلى أبيات عنترة وقل لي بالله عليك، أليس هذا كذب جميل:

- ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمي
- فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم



عنتر بن شداد

إذا لم يكن أمامنا سوى الأكاذيب التي تتمثل في الشرح والتفسير والترجمة لشظايا المعارف الغير واضحة، التي تصلنا متفرقة أو في سيل متصل، فماذا نفعل؟ يقول نيتشة، الكذب الذي يعلي شأن الإنسان هو الذي يجب أن نأخذ به. باقى أنواع الكذب مصيرها الفناء.

لذلك يقول نيتشه، إن إرادة القوة يجب أن تكون مليئة بالضحك والرقص والسرور، علينا أن نلوم أفلاطون والمسيحية. لأنهما في سبيل طلب الحياة الأخرى، قاما بالتضحية بالحاضر والواقع كما نعرفه. أي أنهما رفضا الاعتراف بالواقع كشظايا متفرقة، يجب علينا تشكيلها حسب إرادة القوة.

اعتقد نيتشة أن الحل الديني لعدم معقولية الحياة، الذي جاء في أعمال كيركجار أبو الوجودية، بالنسبة للإنسان الحديث، هو حل غير مقبول بالمرة. غير مقبول لأنه يفترض ضعف الإنسان وعجزه، ويصوره كائن جبان مرعوب خانع لا حول له ولا قوة.

الحل الديني يؤدي إلى تغريب الإنسان عن ذاته، ويفقده الثقة في نفسه كلية، ويجعله يضع ثقته المطلقة في "الرب"، راجيا أن يرضى عنه، متوسلا إليه لكي يحل مشاكله.

الحل الديني عند كيركجار، كما يراه نيتشة، غير ممكن الآن، لأن الرب قد مات. مقولة "موت الرب"، هي أشهر مقولة جاءت في كل أعمال نيتشة الفلسفية.



نيتشه يعلن موت إيماننا بالرب

في كتابه "العلم الجذل"، يخبرنا عن قصة المجنون الذي يسير في رائعة النهار حاملا مصباحا، يذهب به إلى السوق للبحث عن الرب. ثم يقف ليعلن على الملأ: "مات الرب، لقد قتلناه أنا وأنت ".

الرب الذي أماته نيتشة، ليس هو الرب الأبدي خالق كل شئ. إنما نيتشه كان يعني، موت إيماننا المطلق بالرب. ألا يعني هذا أننا نكون قد فقدنا بموت الرب، الأساس الذي بنينا عليه مفاهيمنا للحق والعدل والأخلاق؟ الم يعتمد ديكارت على وجود الرب كضمان لصحة أفكاره وحمايتها من عبث الشيطان؟ الرب عند ديكارت هو أساس كل الحقائق والمعرفة.

هنا يعترف نيتشة ويقول، إنه حقا بموت الرب، نكون قد فقدنا الأسس التي نبني عليها المعرفة الحقة والقيم. لكن، هذا سوف يجعلنا نفقد الاعتماد المطلق علي الرب أيضا.

أي علينا أن "نفطم" أنفسنا، كما تفطم الأطفال عن ثديي الأم أو البزازة، لكي يزول الاعتماد والتوكل الكلي على الرب في كل الأمور. الإنسان يجب عليه الآن أن يجد الشجاعة لكي يعتمد على نفسه في حل مشاكله. لأنه ليس هناك قوى أخري سوف تقوم بمساعدته في محنته هذه.



يجب أن نفطم عن الاعتماد على الرب

واجب الحضارة الآن هو خلق إنسان جديد، إنسان أعلى (Superman). إنسان صلب قوي شجاع ذكي، مستقل أخلاقيا عن القيم الدينية القديمة التي تستعبد الجنس البشري بدون رحمة أو هوادة.



الإنسان السوبرمان

القيم الوحيدة التي يلتزم بها الإنسان الأعلى، السوبرمان، هي القيم التي تعلي من شأن الإنسان والحياة معا. قيم جديدة تجعل الإنسان قوي خلاق سعيد حر، قادر على تشكيل مستقبله بنفسه.

يخبرنا كيركجارد بأنه، لكي نتخلص من آلامنا ومتاعبنا، علينا أن نغرق في اليأس والشجن، حتي يمكننا الاستسلام والإيمان المطلق بالرب. لكن نيتشه يطلب منا أن لا نعتمد على أحد سوى أنفسنا لكي نكون أقوياء سعداء. أي لكي نكون سوبرمان.

الاستسلام والخنوع واليأس والخوف من عذاب الآخرة، لن يحل مشاكل الإنسان، وإنما يلغي عقله، ويشل تفكيره ويدمره نفسيا ومعنويا. الفلسفة بالنسبة لنيتشة، ليست رياضة ذهنية فقط، إنما هي أداة. قادرة على خلق إنسان أفضل جديد.

أصيب نيتشة في نهاية حياته بالجنون. ثم أودع مصحة عقلية، لكن أمه العجوز فضلت أن يعيش معها باقي عمره إلى أن توفى عام 1900م. يعد فريدريك نيتشة من أهم فلاسفة أوروبا على الإطلاق. حيث أثرت أفكاره في العديد من التيارات الفكرية المعاصرة.

16

جان بول سارتر


سارتر

كان سارتر يكره طفولته وكل شئ ينتمي إليها، على عكس كل الناس. قال ذلك في مذكراته بعنوان "الكلمات". كتبها عندما كان في الخمسين من عمره، والتي تصف طفولته حتي سن الثانية عشر. شئ غريب بالنسبة لزعيم الفلسفة الوجودية الفرنسية وإمامها الأكبر.

مذكرات سارتر كانت عبارة عن هجوم مرير على والديه وجديه والمجتمع البرجوازي الذي ولد فيه، من منظور وجودي وماركسي بحت. لم نسمع عن كاتب آخر قام بمثل هذا الهجوم على أقرب الناس لديه. فكيف كانت طفولة بطل قصتنا هذه، التي يصفها بأنها بائسة؟

ولد سارتر في باريس عام 1905م، العام الذي نشر فيه أينشتين نظرية النسبية الخاصة، التي تساوى الطاقة بالكتلة في معادلته الشهيرة (E=MC2). والد سارتر كان ضابطا بالبحرية الفرنسية. أصيب بأمراض القولون عندما كان يخدم في أندونيسيا، وتوفي عندما كان عمر جان 15 شهرا. تاركا الأم، آن ماري، بدون مال أو وظيفة. فلم تجد مندوحة عن الرجوع بابنها، لكي تعيش في كنف والديها، شارلز ولويسة شويتزر في باريس.

بعد تقاعد الجد، كان عليه العمل في التدريس حتى يستطيع الإنفاق على ابنته وطفلها. أم سارتر كان عليها العمل كمدبرة منزل لوالديها، تحت إشرافهم وسلطاتهم الأبوية. كتب سارتر يقول: " لم تكن والدته ترفض المصروف اليومي، إنما كان الجدان يتناسيا إعطاءها أي مصروف جيب."

كان جان الصغير، ببراءة الأطفال، يعد والدته أنه عندما يكبر، سوف يتزوجها وينقذها من الحرمان الذي تكابده. المهم هنا أن سارتر الطفل، كان يلاحظ أسلوب معاملة الجدين لوالدته. الذي يدل على برجوازية وهيبوقراطية واستغلال وأنانية مغلفة بمظاهر كاذبة خادعة.

كان الجد طويل القامة وسيما ملتحيا، له سلطة أبوية طاغية في بيته، مثل سلطة السيد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ الخالدة.

أبقى الجد حفيده جان بول سارتر في المنزل حتى بلغ سن العاشرة. كان يحضر له المدرسين لتعليمه بالمنزل، بدلا من إرساله للمدارس الحكومية التي دون المستوى، واختلاطه بالتلاميذ الأقل ذكاء. علامة أخرى تدل على الأنانية والبرجوازية والهيبوقراطية.

لهذا بقى جان خمس سنوات في المنزل قبل أن يلتحق بالمدرسة، يتلقى تعليما رديئا من مدرسين غير منتظمين، ومحروما من مصاحبة أطفال في مثل سنه. لقد كان شبه المسجون في شقة جده.

حتى حالته الصحية كانت مهملة. إهمال جديه في ملاحظة وعلاج ورم في عينه اليمنى، تسبب في فقده النظر بهذه العين، وأعطاه هذا الشكل المختلف المشهور به.

مثال آخر من الهيبوقراطية التي تتظاهر بالاهتمام بالآخرين والعطف عليهم، لكنها في الواقع تخفى اللامبلاه والأنانية.

لكن، رب ضارة نافعة. سجن الطفل جان في شقة جده بالدور السادس في أحد أحياء باريس، جعله يعيش في عالم الكتب التي كانت في مكتبة جده. من هذه الكتب، كانت الأم تقرأ له القصص والحكايات. "الكلمات والصور في هذه الكتب، هي عالمي الذي كنت أود أن أعيشه وأتفاعل معه"، كما يقول سارتر.

كان يعرف القراءة منذ سن الثالثة، وبتشجيع من جدته، كان يعتقد أنه طفل موهوب. ثم أخذ الخطوة التالية، وبدأ يؤلف الكتب بنفسه وهو طفل. لكن الجد شارلز، عندما شعر بأن الحفيد سوف يصبح كاتبا، أجلس الحفيد جان في حجره وخاطبه مخاطبة رجل لرجل، قائلا بما يفيد، إن الكتابة مهنة لا تغني ولا تشبع من جوع. في هذه اللحظة الحاسمة، قرر سارتر أن يصبح كاتبا، ويأخذ الكتابة مهنته الوحيدة.

لكن سارتر كان يحتقر الأدب التقليدي، والمعلومات التي تعلمها من جده وكتبه، التي لا ترى الأدب سوى وسيلة للتأدب والخلاص وتطهير النفس. في مذكراته "الكلمات"، يقول سارتر بأن هذه ليست هي وظيفة الأدب. إنه لا يرى الأدب سوى مرآة نرى فيها أنفسنا.

آخر مراحل تعليم سارتر، كانت تشمل أفضل المدارس والجامعات الفرنسية. منها مدرسة المعلمين العليا، وكانت تقبل أوائل خريجي الجامعات. بعد التخرج، رسب سارتر في امتحان إختيار مدرسين للفلسفة. لكنه في المحاولة الثانية، نجح وكان ترتيبه الأول.

جاءت سيمون بيوفوار الثانيه في ترتيب الناجحين. كان سارتر وسيمون قد تقابلا لتوهما قبل الإمتحان في ربيع سنة 1929م. وظلا حبيبين وصديقين وزميلين في الفلسفة والسياسة ، منذ ذلك الحين ولمدة تزيد على الخمسين سنة. حتى وفاة سارتر، كانا يرفضان فكرة الزواج ويعتبرانها فكرة برجوازية.

سيمون بيوفوار أثرت العلوم السياسية والفلسفة الوجودية الفرنسية بكتاباتها. التي شملت القصص القصيرة والروايات ودراسات عن المرأة (الجنس الثاني)، وعن الشيخوخة، والعديد من المقالات الفلسفية. معظم ما نعرفه عن أفكار سارتر، نجد آثاره في سيرتها الذاتية التي نشرت في أربع مجلدات.



سيمون بيوفوار وسارتر

بدأ كلاهما، سارتر وسيمون بيوفوار، تدريس الفلسفة في الجامعة. سارتر في كلية لي هافر، وسيمون في مارسيليه. في عامي 1933م و1934م، ترك سارتر التدريس الذي يعتبره سجنا له ولتلاميذه. وحصل على منحة دراسية من المعهد الفرنسي ببرلين. لم يكن سارتر أو سيمون لهما دراية أو اهتمام بالسياسة في ذلك الوقت. كلاهما كانا يكرهان العالم البرجوازي، وقررا العمل على تحطيمه. لكن عن طريق الأدب والكتابة، لا عن طريق السياسة.

أثناء هذه الفترة، عندما كانت ألمانيا ترزح تحت حكم النازية، تعرف سارتر على الجديد من القضايا الفلسفية المعاصرة، الوجودية والفينومينولوجيا. هذه الأفكار الجديدة، مع الفلسفة الغربية التقليدية، هي مصادر المعرفة التي أمدت جان بول سارتر بما يلزمه، لكي يقوم بأعماله الفلسفية والأدبية.

كان سارتر يفكر جديا في بناء فلسفة جادة، تصلح كدليل وهاد للحياة في هذا العالم المعاصر الملئ بالقلاقل والاضطرابات. عن طريق النظر والتأمل في هذا العالم، ومكان الإنسان فيه، وماذا يتطلب لكي نكون بني آدمين.

فإلى مَنْ، مِنَ الفلاسفة القدامى، يولي سارتر وجهه، ومن منهم يدير له ظهره؟ ابتعد سارتر عن كل الفلاسفة التجريبيين، لوك وهيوم وغيرهم. لأن التجريبيين يقصرون المعرفة على الحواس. المعرفة عندهم، هي ما أراه وأسمعه وأشمه وألمسه.

من هم الفلاسفة الذين نهل منهم سارتر، واشتق أفكاره الغنية عن الفلسفة الوجودية. اتجه أولا إلى ديكارت. أعظم الفلاسفة الفرنسيين المحدثين. تأثير ديكارت على سارتر واضح وجلي. كوجيتو ديكارت الشهير "أنا أفكر، إذن أنا موجود". الفلسفة تبدأ من التأكيد المطلق على الوعي بالنفس. أنا ككائن مفكر، موجود.

ثاني منهل نهل منه سارتر، هو فلسفة الفينومينولوجيا لإدمون هيوسيرل (1859-1938م) و مارتن هيدجر (1889-1976م). كلمة فينومينولوجيا، مشتقة من كلمة يونانية تعني الظواهر. أي أن هذه الفلسفة تدرس ضواهر الأشياء. لقد درس سارتر هذه الفلسفة الجديدة بتعمق عندما كان في المعهد الفرنسي ببرلين.

إدمون هيوسيرل، كان مثل ديكارت، أستاذ الرياضيات والفيزياء بجامعة فريبورج بألمانيا من عام 1916م إلى عام 1929م. لقد حاول هيوسيرل جعل الفلسفة شئ مؤكد مثل العلوم الرياضية. (برتراند رسل وألفريد وايتهد فيما بعد، حاولا جعل العلوم الرياضية شيئا مؤكدا ولكنهما، بعد 20 عاما من الجهد المتواصل، فشلا فشلا ذريعا. رجاء مراجعة باب علم الرياضيات ورحلة البحث عن الحقيقة.

هيوسيرل وديكارت، كلاهما بدأ من "أنا أفكر". لكنهما انفصلا بعد ذلك. ديكارت قال "إذن أنا موجود"، أما هيوسيرل، فقال"إذن الوعي موجود". الوعي بالطبع بشئ ما. كان اهتمام هيوسيرل بهذا الشئ الخارجي الذي يمكن أن أعيه. ويركز على معرفتنا له.


هيدجر

مارتن هيدجر، الفيلسوف الوجودي الألماني العظيم، كان تلميذا لهيوسيرل ومساعدا له، وخليفته في تدريس الفلسفة في جامعة فريبورج. لكنه يختلف عن هيوسيرل في أن هيدجر يركز على وجود الإنسان نفسه.

وجد سارتر أيضا، أفكارا عديدة في فلسفة هيجل وماركس وكيركجارد ونيتشة وداروين. الصراع حتى الموت، والعلاقة بين السيد والعبد، والوعي الغير سعيد، وموت الرب، والاغتراب، كلها مفاهيم غير غريبة علينا. جاءت في أعمال هؤلاء الفلاسفة السابقين.

هذه المواد الفلسفية والعلمية مع خبرته الأكاديمية، ساعدت سارتر على بناء صرح الفلسفة الوجودية الفرنسية. قام بتدعيمها بالقصص القصيرة والروايات والمسرحيات والمقالات السياسية. الآن نذهب إلى وجودية سارتر لنرى ماذا تقول.

تعلم سارتر من هيوسيرل، أن الوعي مرجعي (referential)، دائما يشير إلى شئ ما خارج نفسه. ثم قسم الوعي إلى قسمين: منعكس (reflected)، وغير منعكس (unreflected).

الوعي الغير منعكس، هو الوعي المباشر قبل أن يشوبه تفكير أو إنعكاسات فلسفية. عندما أقرأ رواية مثلا، يكون بطل الرواية هو موضوع الوعي الغير منعكس. وعندما

أجري خلف الأوتوبيس للحاق به، يكون الأوتوبيس موضوع الوعي الغير منعكس. الوعي هنا لا يشمل "الأنا" أو النفس. أي لا يشمل الفاعل، وإنما فقط المفعول به.

أما الوعي المنعكس (reflected consciousness)، فهو الوعي الذي ينعكس على نفسه. أي الوعي الذي يعي الوعي. وهنا، كما يقول سارتر، يمكننا اكتشاف النفس أو "الأنا" (Ego). وهي منطقة عفوية تأتي فيها الأفكار وتذهب حسب مزاجها وإرادتها هي، لا إرادتنا نحن.

هذه العفوية، هي نوع من الحرية المهزوزة حسب تعبير سارتر. التأمل فيها، يقودنا إلى القلق. في الواقع، نحن نجاهد لكي نسيطر على هذه الأفكار العفوية. وعندما نفشل، نصاب بالأمراض العصابية والنفسية. كلام كبير يحتاج إلى شرح.

أخبرنا سارتر بالمرأة التي سبت زوجها ولعنته، لأنه تركها وحدها لكي يذهب إلى عمله. ما الخطأ في ذلك؟ لأنها كانت تخاف، إن تركها زوجها وحدها، أن تذهب إلى النافذة وتقف أمامها عارية مثل المومسات. إنها تعرف أنها حرة لكي تفعل ذلك.

يعتقد سارتر أن هذا يحدث لنا أيضا. كم مرة ذهبنا إلى برج الجزيرة وفكرنا في القفز من أعلاه؟ أو القفز أمام الأوتوبيس أو القطار وهو مسرع.



المرأة كانت تخاف من الوقوف أمام النافذة عارية

في رواية الغثيان لسارتر، جلس روكنتين بطل القصة في الحديقة أمام جزع شجرة كبير تطفو جذورها على سطح الأرض في شكل عقد كبيرة تمتد كأنها أذرع أخطبوط. فجأة، اختفت كل الأفكار في ذهنه. ولم ير الشجرة كشجرة. إنما رأى جذعها أمامه كعقد سوداء مثل العجين، شاهدها كشئ متوحش وكتلة مرعبة من الوجود.


جذور تطفو كأنها أذرع أخطبوط

الوجود ليس فقط غير ضروري، لكنه أيضا عبث وسخف وكلام فارغ. لذلك، وجود الإنسان سخف في هذا العالم السخيف. العملية عبارة عن عبث في عبث. بالرغم من ذلك، الإنسان موجود. الإنسان وجد نفسه في هذا العالم الذي لا معنى له بدون أن يأخذ رأيه أحد. لكن، ما هي العلاقة بين الإنسان وهذا العالم؟

عندما نبحث هذا السؤال، نجد فقط وجود وعدم. عندما أبحث عن صديق لي في المقهى ولا أجده، هذا عدم في صورة حقيقة. عدم وجود الصديق حدث حقيقي، وقع أمامي.

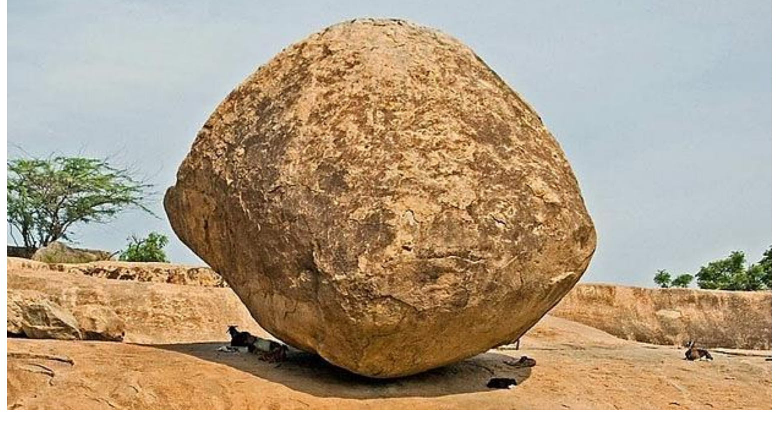

عدم وجود الصديق في المقهى شئ حقيقي

نفس الشئ، ماضي الإنسان غير موجود، عبارة عن عدم. أنا في الحاضر، غير أنا في الماضي. وأنا في الحاضر، أختلف عن أنا الذي سيكون في المستقبل. أنا كوجود، خلفي عدم وأمامي عدم. أنا وجود بين عدمين.

القلق يأتي من خوفي ألا أجد نفسي في المستقبل. هذا القلق سببه، اكتشافي أنني كنفس، غير مستقرة وغير ثابتة مع الزمن. النفس هنا، شئ يجب تكوينه وترميمه من لحظة إلى أخرى، أي طول الوقت.

ليس المطلوب فقط بناء النفس، ولكن بناء العالم أيضا. كيف أبني العالم؟ عن طريق منحه قيم. في هذه الحالة، تصبح حريتي هي مقدرتي على الاختيار بين هذه القيم الموضوعة. حسب رأي سارتر، قيمة الحياة هي بقدر ما أعطيها من قيم.

لكن اختياري بين هذه القيم، غير مبني على وصايا عشر أو تعاليم دينية أو عادات وتعاليم موروثة. إنما هو اختيار حر. أي مجموعة قيم نختارها بمحض إرادتنا، تكون مثل غيرها من المجموعات الأخرى. هذا يؤدي إلى المزيد من القلق. هنا القلق، قلق اختيار.



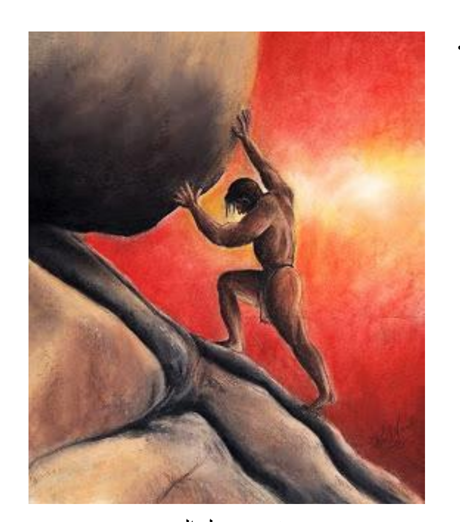
معنى وجود هذه الصخرة

إذا وجدت كتلة كبيرة من الصخر تسد الطريق وتمنع المرور. هذه حقيقة لا أستطيع تغييرها. لكن لدي الحرية لكي أفسر معنى وجودها. ربما تعني أنها مجرد عائق عليّ أن أتخطاه. أو تعني أنني فشلت في مواصلة السير في هذا الطريق. أو يمكن أن أنظر إليها كلوحة فنية تندمج مع الوسط المحيط بها. أو مجرد عينة صخرية تصلح للأغراض العلمية. تفسيرنا للواقع، هو الذي يخلق عالمنا الذي نعيش فيه.

بدلا من مواجهة مسؤولياتنا الناتجة عن حرياتنا في تفسير عالمنا الذي نعيش فيه، يهرب الناس من الحرية والمسؤولية، ويكتفون بلوم الآخرين أو بلوم القدر. إننا أحرار طالما لنا خيارات.

هل فلسفة سارتر، فلسفة تشاؤمية تعكس المأذق الذي يجد فيه الإنسان نفسه في هذا العالم؟ ينفي سارتر هذا بشدة. ويدعي أن فلسفته جعلت كل منا بطلا في حد ذاته.

بالرغم من مواجهة الإنسان للموت وسخف هذا الوجود. نجده أيضا قد اختار أن يخلق قيمه وعالمه. قيمة بعد قيمة، وعالم بعد عالم. يحملها على أكتافه، مثل سيسيفوس بطل الأساطير الإغريقية، بدون شكوى، إلى حافة الوجود. ثم يتركها تسقط، لكي يكرر هذا العمل أبد الآبدبن.



سيسيفوس يحمل الصخرة

جاء على لسان ماثيو، أستاذ الفلسفة في رواية "عصر العقلانية" لسارتر ما يبين فلسفته باختصار: "لقد كان حرا، حرا من كل شئ. حر لكي يتصرف كحيوان، أو كآلة...في استطاعته أن يفعل ما يريد. لا أحد من حقه أن ينصحه...إنه وحيد وحر، في سكون موحش، بدون عذر. محكوم عليه بالاختيار، محكوم عليه بالحرية إلى الأبد."



الإنسان مكتوب عليه بحرية الاختيار

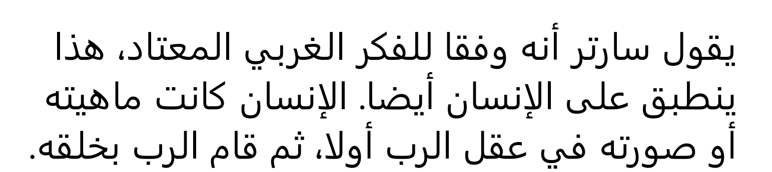
في كتاب سارتر "الوجودية مذهب إنساني" جاء ما يلي: "إن الوجودية فلسفة متفائلة، إنها فلسفة تضع الإنسان في مواجهة ذاته. حرا يختار لنفسه مايشاء. وهذا أمر مزعج، لا يعجب الكثير من الناس."

نظرة الناس للوجودية قد تتعقد، لأننا نجد فلسفتين لا فلسفة واحدة. هناك الوجوديون المسيحيون وعلى رأسهم "جابريل مارسيل" و"يسبرز"، والاثنان كاثوليكيان مخلصان لكاثوليكيتهما. وهناك الوجوديون الملحدون، على رأسهم "هيدجر" وسارتر والوجوديون الفرنسيون.

لكن الوجوديين عموما سواء المسيحيين أو الملحدين، يؤمنون جميعا بأن الوجود، سابق على الماهية. أو أن الذاتية تبدأ أولا قبل الخصائص. فما معني هذا الكلام؟

المعروف منذ بداية الفلسفة اليونانية أن الماهية تسبق الوجود. الماهية هي ما نحصل عليه عندما نقوم بتعريف الشئ. وهي في لغة أفلاطون "المثل" بمعنى الصفة. الصفة أو الصورة أو الوظيفة أو الخصائص...إلخ، كلها أشياء تأتي أولا قبل أن يوجد الشئ.

السكينة مثلا، قد صاغها حرفي طبقا لفكرة لديه عن السكاكين. طبقا لخبرة سابقة في صنع السكاكين. إذن ماهية السكين، أي مجموع صفاتها وشكلها وتركيبها، كلها سبقت وجودها.


يقول سارتر أنه وفقا للفكر الغربي المعتاد، هذا ينطبق على الإنسان أيضا. الإنسان كانت ماهيته أو صورته في عقل الرب أولا، ثم قام الرب بخلقه.



السكين صنعت طبقا لفكرة

ونحن عندما نفكر في الرب كخالق، نفكر فيه كخالق أعظم. إرادة الرب تسير جنبا إلى جنب مع عملية الخلق.

النظريات الإلحادية في القرن الثامن عشر، قضت على فكرة الرب فلسفيا. لكنها أبقت على فكرة، الماهية تسبق الوجود. وظلت هذه الفكرة موجودة عند ديدرو وفولتير وكانط. الإنسان له طبيعة بشرية هي ما يصاغ عليها الإنسان. وهي التي تجعلنا نشترك في نفس الصفات.

أما الوجودية الملحدة والتي يمثلها سارتر، فتعلن في وضوح وجلاء تامين، أن الرب لم يكن موجودا عندما خلق الإنسان. الإنسان وجد قبل أن تتضح معالمه وتتبين صفاته. هذا ما يقوله شارل داروين بالنسبة للإنسان وبالنسبة لكل المخلوقات. هذه المعالم ليست لها صورة مسبقة، إنما وجدت بالصدفة. لذلك كما يقول هيدجر، واقع الإنسان هو الذي يحدد ماهيته. أي أن الوجود سابق على الماهية.



واقع الإنسان هو الذي يحدد ماهيته

ماذا نعني بأن الوجود سابق على الماهية؟ هذا يعني أن الإنسان يوجد أولا، ثم يتعرف إلى نفسه، ويحتك بالعالم الخارجي. فتكون له صفاته، ويختار لنفسه أشياء هي التي تحدده وتحدد قيمه.

إذا لم يكن للإنسان في بداية حياته صفات محددة، فذلك لأنه قد بدأ من الصفر مثل السبورة الفارغة أو برواز الصورة الفارغ. هو لن يكون شيئا إلا بعد ذلك. لن يكون سوى ما قدره لنفسه. الإنسان مشروع يمتلك حياة ذاتية لها كرامة. الإنسان ليس جلمود صخر أو شئ مثل الطحالب.

الإنسان مسئول عن نفسه. ومسئول عن كل الناس، كما يقول سارتر. الإنسان حر، لكنه لا يستطيع أن يتجاوز ذاتيته الإنسانية. عندما يختار الإنسان لنفسه، يختار لكل الناس. وعندما أقوم بتزوير الإنتخابات، أطلب من كل الناس أن تفعل نفس الشئ، بذلك،



الإنسان مسئول عن نفسه وعن كل الناس

نعيش في عالم مزور كله غش وخداع.

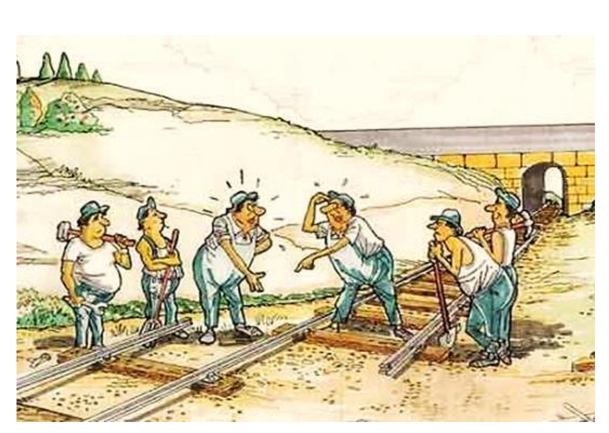
عملية إختيار الإنسان لنفسه، تؤثر في كل الناس من ناحية، وتساهم في خلق الإنسان كما نتصوره وكما نظن أنه يجب أن يكون. كأنما نقول لكل الناس، اختاروا كما اخترنا. إذا قررت التدين والخضوع إلى قضاء الله وقدره، فاختيارك هذا هو دعوة لكل البشرية أن تفعل نفس الشئ.

القلق الذي يكابده الوجوديون، هو قلق المسئولية. المسئولية تجاه الآخرين. لا يمثل حاجزا يفصلهم عن العمل، وإنما جزء من العمل وشرط لقيامه. الإلحاد عند الوجوديين الملحدين، لا يترتب عليه هدم للقيم. القيم الخلقية باقية ولازمة للفكر الوجودي الملحد.



قلق الوجودية هو قلق المسؤولية

الوجودية كما يقول سارتر، ليست فلسفة تأمل وسكون. لأنها تحدد الإنسان طبقا لما يفعل. وليست فلسفة متشائمة، لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه. بذلك تكون أكثر الفلسفات تفاؤلا. هي تدفع الإنسان للعمل، وترى أنه لا خلاص ولا أمل إلا في العمل. العمل هو سبب استمرار الحياة. الوجودية عند

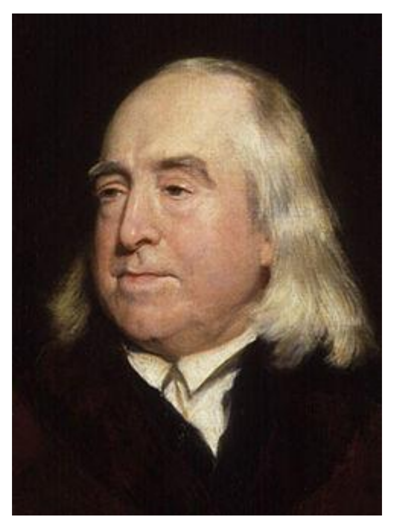


لا خلاص ولا أمل إلا في العمل

سارتر، هي فلسفة أخلاق وعمل والتزام.

17

الفلسفة النفعية


بينثام

مذهب المنفعة (Utilitarianism) يقول باختصار، إن الأساس الذي يجب أن تبنى عليه القوانين والأخلاق، هو إسعاد أكبر عدد من الناس. أحد مؤسسي هذا المذهب هو الإنجليزي جيريمي بينثام (1748 – 1832م).

ولد بينثام في لندن، من عائلة ثرية. تعلم في مدرسة وستمنستر وكليتي كوين وأكسفورد. درس القانون، لكنه لم يمارسه. تفرغ للكتابة عن فلسفة الأخلاق والسياسة.

يعتبر بينثام، من كبار الفلاسفة العمليين المطالبين بالإصلاح القانوني والاجتماعي. كان له تأثير كبير في إصلاح النظام القضائي البريطاني. أعطاه قادة الثورة الفرنسية الجنسية الفخرية عام 1792م. تعتبر أفكاره متطرفة بعض الشئ، بمقاييس عصره.

جاء بينثام بطريقة لحساب السعادة (The calculus of Felicity). تتلخص في أن السعادة يمكن قياسها تبعا للبنود الآتية:

1- الشدة (مقدار السعادة)
2- المدة (كم من الوقت ستبقى السعادة)
3- اليقين (هل أنت متأكد)

4- القرب (متى)
5- الغزارة (كم مرة)
6- النقاء (هل السعادة مصحوبة بألم)
7- المدى (كم من الناس ستسعد)


مراجعة مادة الكيمياء

وفقا لبنثام، يمكنك تحليل أي سلوك وفقا لهذه البنود. على سبيل المثال، عليك أن تجلس على مكتبك لكي تراجع مادة الكيمياء استعدادا لامتحان الغد. ثم تفاجأ اليوم بقدوم أصدقائك لكي يذهبوا معك للبلاج، طبعا للعب والعوم

وقضاء وقت ممتع.



قضاء وقت ممتع على البلاج

سنقوم الآن بحساب السعادة الناتجة من السلوكين حسب طريقة بينثام. حساب الذهاب للبلاج يكون قوي في صالح البنود: 1، 3، 4، 6. لكنه ضعيف في بنود 2، 5. أما الجلوس في البيت للاستذكار، يكون قوي في بنود 2، 5، 7. ولكن ضعيف في باقي البنود. بالطبع الشعور بالذنب المصاحب للذهاب للبلاج سوف يؤخذ في الحسبان أيضا.

بالنسبة لبند بنثام السابع، والذي يحسب عدد الناس التي تتأثر بالسعادة. هذا البند هو الذي يجعل الفلسفة النفعية فلسفة اجتماعية. هي ليست مجرد فلسفة أنانية، تعتني بسعادة الفرد بمعزل عن الآخرين.

بجانب الناحية الاجتماعية للفلسفة النفعية، لها أيضا جانب ديموقراطي. الأصوات الانتخابية متساوية الأهمية على المستوى الفردى. كل صوت، له نفس أهمية أي صوت آخر. لماذا؟ لأن العبرة بما يضيفه هذا الصوت من سعادة. الهدف هنا هو سعادة أكبر عدد من الأفراد، لا المنفعة العامة، التي قد تقضي بقصر الأصوات الانتخابية على حملة الشهادات الجامعية على سبيل المثال.

مشاهدة كرة القدم، بالنسبة لبنثام ، لها أهمية أكبر من قراءة الشعر أو مشاهدة لوحة فنية، إذا كانت مشاهدة المباراة تضيف بهجة وسعادة للفرد، أكثر من البهجة والسعادة التي يضيفها الشعر أو الفن.


الوصايا العشر

يجب علينا أن نحكم على الأمور الأخلاقية بالنتائج. أي بمقدار ما تسعد من البشر. في هذه الحالة، يكون من واجبنا زيادة السعادة والسرور والتقليل من الحزن والشجن. الأخلاق هنا لا تأتينا من فوق الجبل على ألواح كتبها الرب بنفسه، كما هو الحال بالنسبة للوصايا العشر.

بالطبع المذهب النفعي لا يعني النظرة الضيقة التي تقول: أنا وبعدي الطوفان. أي الأنانية وسعادة الفرد بغض النظر عما يحدث للآخرين. لكن يعني أكبر سعادة لأكبر عدد من البشر. هذا، كما يقول بينثام، هو الأساس الذي يجب أن نبني علية قوانينا ومبادئنا الأخلاقية.

كيف نطبق مبدأ بينثام في حالة جان فالجان في قصة البؤساء لفكتور هيجو؟ عندما اضطر جان لسرقة رغيف خبز لكي يطعم اخته وأطفالها. للإجابة على هذا السؤال، تعالى نحسبها بطريقة بينثام.


البؤساء لفكتور هيجو

صحيح سرقة رغيف خبز سوف تسعد جان واخته واطفالها في الأمد القصير، لكنها سوف تحزن صاحب الفرن وعائلته. عدم سعادة صاحب الفرن وعائلته، يجب أن تؤخذ في الحسبان. ويجب أن نحسب مدة السعادة وحدتها، ومدة الحزن وحدته أيضا.

عندما ظهر مبدأ المنفعة أيام بينثام، وجد الناس أن له عدة خصائص متطرفة صادمة. منها أنه يتجاهل الرب، بالنسبة لتعريف موضوعي الصح والخطأ. كان معروفا ولا يزال أن الأخلاق تنحصر في اتباع قوانين وتعليمات الرب. تأتي إلينا من عل على لوح من الحجر. ما علينا سوى السمع والطاعة. من يتبعها يضمن السعادة في العالم الآخر.

لكن النفعيون يرفضون هذه النظرة الدينية للأخلاق. كل ما يهمهم، هو تحقيق السعادة لأكبر قدر من الناس على سطح هذا الكوكب وفي هذه الحياة الدنيا، لا حياة الآخرة. هذا شئ يغضب بالطبع رجال الدين.

الفلسفة النفعية قادت بينثام ومن تبعه من الفلاسفة النفعيين إلى محاولة إصلاح النظم القانونية والاجتماعية. معظم القوانين والعادات في وقت بينثام، كانت قوانين وعادات ظالمة. سببت الكثير من البؤس والعذاب للناس. لذلك شعر النفعيون أنه من الضروري كواجب أخلاقي، رفع هذا الظلم والعذاب عن الناس.

بينثام من أوائل المفكرين الذين نادوا بحقوق الحيوانات. لم يطالب بينثام بالرفق بالحيوان فقط، لكن بحقوقهم الطبيعية أيضا. إذا كانت الأخلاق تعرف بمقدار ما تحدثه من سرور وبهجة، وما تخففه من ألم وعذاب. إذن، الحيوانات لها حق أيضا في مشاركتنا هذه القيم الخلقية. لأنها تشعر بالسرور والألم مثلنا



المطالبة بحقوق الحيوانات الطبيعية

تماما.

الكثير من الفلاسفة كانوا يعتبرون أن الحيوانات ليس لها حقوق، لأنها ليس لها تفكير عقلاني مثل الإنسان. منهم ديكارت وكانط. لكن بينثام يخالفهم الرأي ويقول، العبرة بالشعور لا بالتفكير. وكتب يقول: "ليس السؤال هنا، هل تستطيع التفكير والكلام. بقدر ما هو، هل تشعر بالسعادة وتعاني من الألم والعذاب؟"

يقول بينثام، إذا كان مصدر الأخلاق هو التفكير العقلاني لا الشعوري، إذن يجب أن يستثنى منها الأطفال والمعوقين. لكننا نعطي الأطفال والمعوقين النصيب الأكبر من الاهتمام والعطف ونشملهم بأخلاقياتنا. فلماذا لا نعامل الحيوانات بالمثل؟

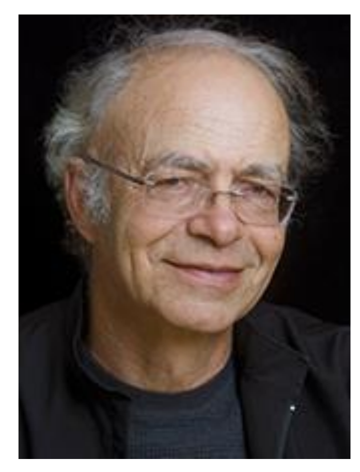
كل عام خمسة بليون حيوان يذبح في الولايات المتحدة وحدها. تقتل هذه الحيوانات لإشباع نهم المواطن الأمريكي من اللحوم. الغالبية لا ترى غضاضة أو مانع أخلاقي في معاملة هذه الحيوانات بهذه الطريقة. لكن هل هذا صحيح من الناحية الأخلاقية؟

نحن نعلم أن الحيوانات تتألم. أليس كذلك؟ هي أيضا تشعر بالسعادة إلى درجة ما. أنظر إلى الكلب وهو باسط ذراعيه أمام المدفأة، يهز ذيله طربا ونشوة. لماذا نعامل نحن الحيوانات بهذه القسوة، ولا نعاملها مثل معاملة بعضنا لبعض.



لماذا نعامل الحيوانات بقسوة

في كتابه "تحرير الحيوانات" المنشور عام 1975م، أثار الفيلسوف المعاصر بيتر سينجر المولود عام 1946م، وهو أيضا من الفلاسفة النفعيين، هذا السؤال. ووصل إلى النتيجة الصادمة للكثيرين منا، وهي: "إن معاملتنا للحيوانات عمل غير أخلاقي". الكثيرون منا مذنبون بتهمة التفرقة بين الإنسان والحيوان في المعاملة.



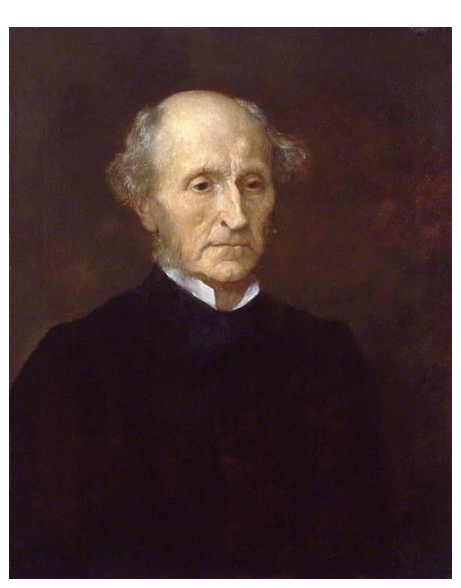
بيتر سينجر

نحن متهمون بالتعصب النوعي (speciesism) ضد الحيوانات. مثل تعصب اليهود ضد باقي الأديان وضد الفلسطينيين، وتعصب الجنس الأبيض ضد السود، وتعصب الرجل ضد المرأة.

إننا نمنع الأطفال من التصويت في الانتخابات بسبب عدم نضجهم العلقي. هذه حالة مؤقتة تزول عندما يبلغون سن الرشد. لكننا لا نمنع أحدا، رجل أو إمرأة من ممارسة حقه الانتخابي سواء كان هذا الشخص، على وعي سياسي أو لا. حتى لو كانت تنقصه

المعلومات الكافية لاختيار المرشح الأصلح من بين المرشحين. لأن التصويت حق من حقوقهم. وإذا منعناهم بأي حجة، نكون عنصريين.

فيلسوف آخر من النفعيين هو جون ستيوارت ميل (1806 – 1873م). إنجليزي ولد في لندن. كان والده مفكر نفعي من أتباع بينثام. قام الأب بتعليم وتربية ابنه وفقا لمبدأ النفعية. تعلم الأبجدية اليونانية وهو في سن الثالثة. وعندما بلغ سن الرابعة عشر، كان قد قرأ معظم الأدب اليوناني واللاتيني القديم. وعندما كبر، تقلد مثل والده رئاسة شركة الهند الشرقية.


جون ستيوارت ميل

عندما بلغ ميل سن الواحدة والعشرين، أصيب باكتئاب حاد. يرجع سببه لطريقة تعليمه الصارمة في الصغر التي انتهجها والده نحوه. وجد ميل راحة في شعر ويليام ووردزورث، وبعد سنة تقريبا عوفي تماما من مرضه النفسي.

في عام 1851م، تزوج من هاريت تيلور، التي كانت مفكرة من الطراز الأول، لها تأثير كبير على زوجها جون إستيوارت ميل. لكنها توفت لسوء الحظ بعد زواجها من جون بسبع سنوات.

كان "ميل" عضوا مستقلا بالبرلمان البريطاني لمدة دورة واحدة عام 1865م. كان سياسيا بارعا في أيامه، له تأثير عظيم في الفكر السياسي. أول من نادى بحق المرأة

في الانتخاب. أحسن كتاباته كانت عن الحرية والفلسفة النفعية. له كتابات أخرى عن المنطق وفلسفة العلوم والميتافيزيقا والمعرفة.


إنسان غير راض، أفضل من حنزير قانع

من أقواله: "من الأفضل أن تكون إنسانا غير راض، على أن تكون خنزيرا راضيا. من الأجدى أن تكون سقراط غير قانع، على أن تكون غبيا قانعا. إذا اختلف الخنزير مع الغبي في الرأي، فلأن كلاهما واثق تماما من القليل الذي يعرفه، ولا يريد أن يعرف شيئا آخر ".


حرية الرأي حق للجميع

أيضا من أقواله في حرية الرأي: "إذا كان للبشرية كلها رأى واحد، فيما عدا شخص آخر له رأى مخالف، فعذر البشرية فى إخراس هذا الصوت الوحيد، هو نفس عذر هذا الشخص فى إخراس البشرية كلها عندما يتولى سلطة"

جون ستيوارت ميل، فيلسوف نفعي من مدرسة بنثام. يقول إنه كل ما يعنينا من الناحية الأخلاقية، هو نتائج أفعالنا وسلوكنا ودرجة تأثيرها على سعادتنا. هذا عكس ما يقوله الفيلسوف كانط. أي نتائج أفعالنا ليس لها علاقة بالأخلاق.

لكي نعرف الصح من الخطأ، لا نحتاج إلى عون إلهي ومدد من قوى خارقة للطبيعة. كل ما نحتاجه، هو التركيز على طبيعة أفعالنا في هذا العالم ومعرفة نتائج هذه الأفعال وتأثيرها على باقي الناس.

صفة أخرى جذابة للمذهب النفعي، هي النزاهة والموضوعية. سعادة الأفراد متساوية. لا تعتمد على من أنت أو تقرب لمين. "إنت عارف بتكلم مين؟". لذلك النفعيون ينادون بالمساواة المطلقة بين البشر، أيضا ينادون بالمساواة بين البشر والحيوانات في الحقوق. لأن الحيوانات تشعر بالسعادة والألم أيضا.

مبدأ النفعية عند "ميل" يختلف عن مبدأ النفعية عند بينثام بعض الشئ. ميل يصنف السعادة والمتعة إلى نوعين: عليا وسفلى. بينتام يقول إن السعادة لها كمية ومدة وشدة،... البنود السبعة. لكنه لا يفرق بين نوعيتها. بينثام لا يفرق بين السعادة الناجمة عن مشاهدة ماتش كرة قدم، والسعادة الناجمة عن سماع السمفونية الخامسة لبيتهوفن. لكن ميل يعتقد أن المتعة العقلية يجب أن يكون لها وزن أكبر من المتعة الحسية.

يقول ميل، حقيقة الكثير منا يفضلون مشاهدة كرة القدم على مشاهدة مسرحية لشيكسبير، لكن هؤلاء الناس ليسوا أكفاء للحكم على نوعية السعادة. لأنهم لم تتح لهم متعة تذوق مسرح شيكسبير أو سماع موسيقى بيتهوفن.

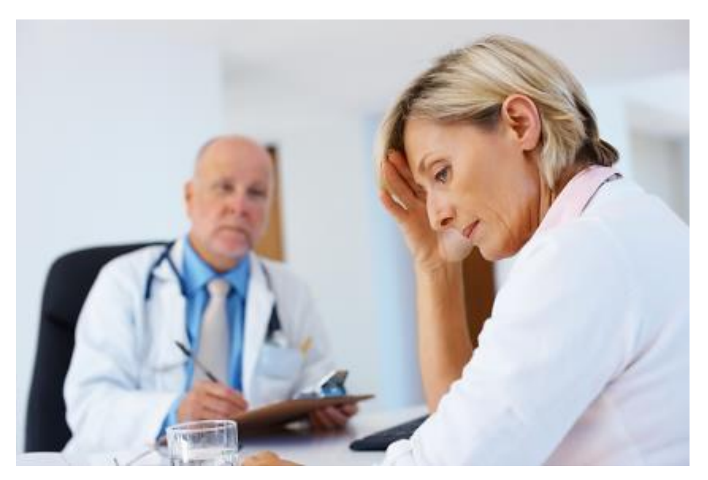


كم هي متعة سماع الموسيقى

لكن، هل حقيقة من تتح له الفرصة لتذوق موسيقى بيتهوفن سوف يفضلها على مشاهدة ماتش كرة قدم بين النادي الأهلي والنادي الإسماعيلي مثلا؟

الآن سوف نستعرض بعض الأمثلة التي تتعارض مع مبدأ النفعية:

المثال الأول، نفترض أنك طبيب أمامك ستة من المرضى. الأول مصاب بمرض خفيف سهل شفاؤه. الخمسة الباقون مصابون بفشل أعضاء، ومعرضون للموت المحقق، إذا لم يجدوا أعضاء بديلة بأسرع ما يمكن.



خيارات الطبيب

كطبيب، أمامك خياران: أن تعالج المريض الأول وتترك المرضى الخمسة الآخرين للموت المحقق. أو التضحية بالمريض الأول، وأخذ أعضائه الداخلية لإنقاذ المرضى الخمسة الآخرين.

بحساب النفعيين، علينا أن نضحي بالمريض الأول لإنقاذ المرضى الخمسة. لأن هذا سوف ينتج عنه خمسة أفراد سعداء، وواحد فقط بائس. بعكس الاختيار الآخر، واحد سعيد وخمسة بؤساء. مع هذا، قتل إنسان برئ لإنقاذ خمسة أرواح، يعتبر من الناحية الأخلاقية شئ مريع غير مقبول.

المثال الثاني، هناك احتقان بين المسيحيين الأقباط والمسلمين. قام أحد المجانين المسلمين بوضع عبوة ناسفة أمام كنيسة القديسين. بعد الانفجار، لم تستطع الشرطة معرفة الفاعل. لكي لا يحدث انفجار بين المسيحيين والمسلمين تكون



التضحية ببرئ لزوم السلام الاجتماعي

عواقبة وخيمة. لذلك، قررت الشرطة الإمساك بإنسان عبيط برئ وتلفيق التهمة له والتضحية به، لامتصاص غضب المسحيين وتهدئة الأوضاع. بحسابات النفعيين، هذا عمل سليم لأنه سوف يجنب الوطن أخطارا وخيمة. لكن، من الناحية الأخلاقية، التضحية ببرئ يعتبر شئ مريع وخاطئ.

لكي يجيب النفعيون على مثل هذه الأسئلة، كان عليهم التفرقة بين النفعية كفعل، والنفعية كقانون وقاعدة. الفعل النفعي ينتج عنه سعادة للأفراد يمكن قياسها. لكن القانون النفعي، ينتج عنه سعادة أشمل وأعم.

القانون النفعي هنا يقول أنه لا يجب قتل أو تعذيب برئ. تطبيق مثل هذا القانون، سوف يزيد سعادة الناس عامة، لا المرضى الخمسة المحتاجون لقطع غيار. لذلك علينا تطبيق هذه القوانين دائما. هذا هو الفرق بين بينثام وميل. بينثام تبني المنفعة الفعلية، وميل تبنى المنفعة القانونية.

18

الفلسفة البراجماتية

سنقوم الآن بعبور المحيط الأطلسي، تاركين أوروبا القديمة ومتوجهين إلى العالم الجديد، الولايات المتحدة. لكي نزور الفلاسفة البراجماتيين. فهم يشكلون أول مدرسة فلسفية أمريكية، تعتبر حلقة وصل بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

الفلسفة البراجماتية، أو الذرائعية، قد أصبحت طابعاً مميزاً للسياسة والاقتصاد الأمريكي. لأنها تجعل الفائدة العملية معياراً للتقدم، بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي. وقد وجدت في النظام الرأسمالي الحر الذي يقوم على المنافسة الفردية الشرسة، خير تربة للنمو الازدهار.

لقد حار الفكر الغربي، في بحثه عن الحقيقة، بين: الجسد والروح، ما هو عقلي وما هو تجريبي، وبين الديني واللاديني. حسما لهذه المنازعات الفكرية، جاء البراجماتيون بطريقة جديدة بسيطة في التفكير تقول:

انسوا الكلام الفارغ ده. الفكرة، ببساطة، تكون صحيحة أو باطلة حسب ما تحققه من نفع للإنسان في حياته العملية. معنى الفكرة يتحدد عن طريق جدواها، وصحة الفكرة تتحدد بمدى قابليتها للتنفيذ. الفكر النظري البعيد عن الواقع، لا خير فيه. الفكر في طبيعته غائي متعصب.


بيرس

أول من أدخل لفظ البراجماتية في الفلسفة هو الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس، 1839-1914م. حصل على درجة "الدكتوراة " في الطب من جامعة هارفارد سنة 1870م. عين أستاذاً للفسيولوجيا والتشريح بها، ثم أستاذاً لعلم النفس فبرز فيه.

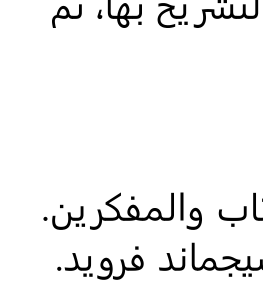
يقول بيرس إن هناك علاقة قوية بين الاعتقاد وبين ما يترتب عليه من نتائج. لكي نفرق بين معتقد وآخر، يجب أن نقارن بين نتائج المعتقد الأول ونتائج المعتقد الثاني.

كيف نقوم ثورة عبد الناصر؟ بالنتائج. وكيف نقوم انفتاح السادات؟ أيضا بالنتائج. وكيف نقوم حكم مبارك، وسنة حكم الإخوان؟ بالنتائج برضه. بيرس هنا يتبع خطى الفلاسفة التجريبيين ، بالأخص بيركيلي الذي يقول: "فكرتنا عن أي موضوع، هي فكرتنا عن نتائجه".

بيرس هوأول من أدخل لفظ البراجماتية في الفلسفة في مقال له عام 1878م بعنوان: كيف نجعل أفكارنا واضحة. يعترف بيرس أنه قد توصل إلى لفظ البراجماتية بعد دراسته للفيلسوف الألماني كانط. لكن المقال، رغم أهميته، لم يلتفت إليه أحد وقت نشره. إلى أن قام بشرحه الفيلسوف ويليام جيمس (1842 – 1910م)، بعد 25 سنة من نشره. ثم قام جيمس بأخذ الأفكار الرئيسية في مقال بيرس وبنى عليها صرح الفلسفة البراجماتية.

كان بيرس يعني بالبراجماتية، جعل الأفكار واضحة علمية. لكن جيمس رأى في البراجماتية أبعد من ذلك. رأى فيها، فلسفة قادرة على إجابة الأسئلة الميتافيزيقية

والمعضلات الدينية. البراجماتية بالنسبة لجيمس، نظرية في معنى الكلام، ونظرية في البحث عن الحقيقة.


وليام جيمس

وليام جيمس، هو من أشهر الفلاسفة البراجماتيين. ولد في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة عام 1842م، من أصل سويدي. والده هنري جيمس الكبير. حصل على درجة الدكتوراة في الطب من جامعة هارفارد سنة 1870م، وعين أستاذاً للفسيولوجيا والتشريح بها، ثم أستاذاً لعلم النفس فبرز فيه.

رجل مجتمع له معارف كثيرة من الكتاب والمفكرين. مثل مارك توين و إتش جي ويلز و سيجماند فرويد.

أخوه الأصغر هو الكاتب الموهوب هنري جيمس الصغير.

يقول جيمس، إن البراجماتية تعني الهواء الطلق، والممكن ضد المطلق والموثوق بصحته. هذا يعني أنها ضد غلق باب الاجتهاد بالضبة والمفتاح. عندما سؤل عن معنى البراجماتية، وهل يستطيع أن يعمل بها ثقبا في جدار؟ أجاب، كلا، هي مجرد طريقة أو منهج فقط. جيمس، بالنسبة للفلسفة البراجماتية، له نظريتان: نظرية المعنى ونظرية الصدق.

بالنسبة لنظرية المعنى، أي جملة يكون لها معنى إذا كان الإيمان بها له تأثير في حياتنا العملية. فمثلا، إذا كنت تؤمن، أثناء انقطاع التيار الكهربي في منتصف الليل، بأنه توجد وسط الغرفة منضدة. لكي تذهب من جانب في الغرفة إلى الجانب الآخر، يجب أن تأخذ في الاعتبار وجود


منضدة وسط الغرفة

المنضدة. هذا المسار سوف يختلف عما إذا كنت لا تؤمن بوجود المنضدة.

مثال آخر أكثر تعقيدا. انظر إلى هذه الجملة: "كوكب المشتري له أربعة أقمار". سواء كنت تعتقد في صحة هذه الجملة أو عدم صحتها، لن يكون لهذا الاعتقاد تأثير كبير على حياتك، اللهم إلا إذا كنت تعمل في مجال الفلك. أو تقود مركبة فضائية وتبحث عن مكان تهبط فيه بالقرب من كوكب المشتري.

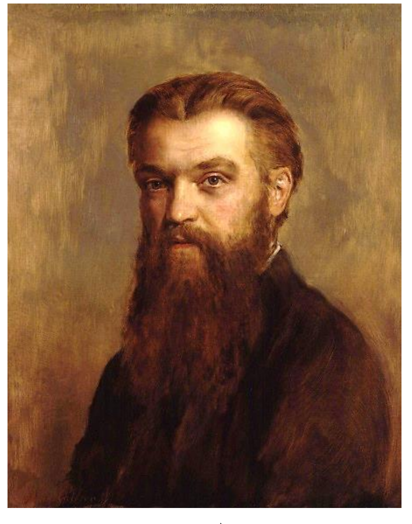

الاعتقاد بأن كوكب المشتري له أربعة أقمار

أيضا جملة مثل: "القندلفت ينمو في بلاد البللم". الإيمان بصحة هذه الجملة أو عدم الإيمان بها لن يؤثر في حياتنا مطلقا. النتيجة واحدة في كلتا الحالتين. إذن، هذه الجملة غير صحيحة من وجهة نظر الفلسفة البراجماتية. حتى لو كان هناك نبات لا نعرفه اسمه القندلفت، وبلاد لا نعرفها اسمها البللم.

بالنسبة لنظرية جيمس في الصدق، الجملة التي لها معنى يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة. هنا يقول جيمس: "الأفكار تصبح صحيحة طالما تساعدنا على استخدام خبراتنا وتجاربنا العملية. الفكرة الصحيحة هي تكون صالحة للتطبيق". إذا كان الاعتقاد بوجود منضدة وسط الغرفة يحميك من الاصطدام بها والسقوط على الأرض، فهذا الاعتقاد صحيح.

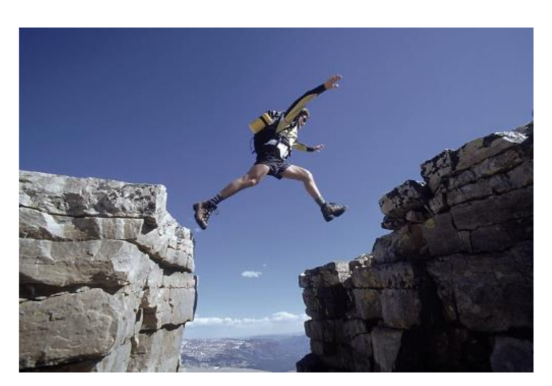
كثير من الناس يؤمنون بوجود إله. إيمانهم هذا غير مبني على حقائق مؤكدة. لكنهم يؤمنون على أي حال، بالرغم من عدم وجود أدلة قاطعة. إنهم مؤمنون وبس. لكن هذا النوع من الإيمان لا يبهر كل الناس.

في القرن التاسع عشر، قال الفيلسوف وعالم الرياضيات دبليو كيه كليفورد(1845-1879م): "إنه من الخطأ دائما، بالنسبة لأي واحد وفي كل مكان، أن يؤمن استنادا لأدلة غير كافية". من ثم، يصبح الإيمان بإله، حسب قول كليفورد، عمل غير أخلاقي. هذا ما كان يقوله هيوم في القرن الثامن عشر، وبيرتراند رسل في القرن العشرين.


كليفورد

لكن جيمس، في كتابه "إرادة الإيمان"، يرفض هذه المقولة. ويصر على أنه بالرغم من نقص الأدلة، لا يزال الإيمان شئ مفيد. ويسوق لنا قصة متسلق الجبل. لإقناعنا بوجهة نظره:

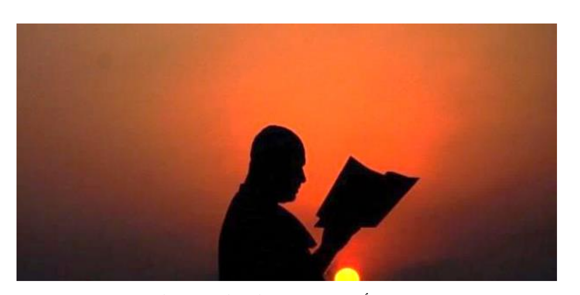
نفترض أن هناك رجلا يتسلق جبلا عاليا. ولكي يعود سالما إلى أهله، كان عليه في لحظة ما أن يقفز من فوق فتحة عميقة بين جبلي ثلج. لكن احتمال النجاح والوصول سالما إلى الجبل الآخر احتمال ضعيف. لكي ينجح في مسعاه، يجب عليه أولا أن يثق في نفسه ويؤمن بقدراته. التردد هنا غير سليم ويجعل المتسلق يفقد كل شئ وحياته أيضا.


التردد يجعل المتسلق يفقد حياته

بالرغم من عدم الوثوق بالنجاح الأكيد في هذه المهمة، إلا أنه من المفيد للمتسلق أن يؤمن بأنه قادر على القفذ والوصول سالما إلى الجانب الآخر. هنا يقرر جيمس أن كليفورد كان مخطئا. لأنه في بعض الحالات، يكون من الأفيد الاعتماد على عواطفنا وشعورنا وآمالنا ورغباتنا وحتى خوفنا، لكي يقودنا كل هذا إلى الإيمان. حتى مع عدم وجود أدلة قاطعة على صحته.

لكن متى نترك عواطفنا وشعورنا يحدد ما نؤمن به؟ يقول جيمس أنه توجد شروط ثلاثة لحاجتنا للإيمان. هي:

1- أن تكون أمام اختيار جاد.
2- أن تكون مجبرا على الاختيار، كما هو الحال بالنسبة لمتسلق الجبال في المثال السابق. الاختيار بين العشاء فول مدمس أو بذنجان مقلي، ليس اختيارا اجباريا.
3- أن يكون الاختيار له تبعات خطيرة على حياة الفرد


الإيمان بالأديان تنطبق عليه الشروط الثلاثة

الشروط الثلاثة متوفرة في حالة متسلق الجبال. يقول جيمس، إن الإيمان بالأديان أيضا تنطبق عليه الشروط الثلاثة. الاختيار بين الإيمان أو عدم الإيمان هو اختيار جاد وجبري، لأنه لا يوجد غير ذلك. إما إيمان أو عدم إيمان. ثالثا، له تأثير كبير على حياة الفرد. إذن، تتوفر له الشروط الثلاثة.

لكن ويليام جيمس يضيف بأن موضوع الإيمان مرهون بشروط. هذا يعني أن الأمور غير سايبة هكذا. حرية الإيمان مكفولة في الأمور التي لا تتعارض مع العقل والعلم. أي أن الإيمان يبدأ عندما ينتهي العلم. إذا كان معظمها في جانب وجود إله خالق لهذا الكون، فالإيمان هنا يكون شئ مطلوب. أما إذا كان العكس، فيكون الإيمان غير مطلوب في هذه الحالة.

معظم الفلاسفة ترفض حل الإيمان الديني الذي جاء به ويليام جيمس. آخرون يعتقدون أن جيمس لم يلمس السؤال الحقيقي: "هل الإله موجود؟"

نأتي الآن إلى أهم الفلاسفة البرجماتيين وأكثرهم تأثيرا، جون ديوي (1859 – 1952م). درس فلسفة هيجل المثالية، وكما نقول نحن بالبلدي، عششت في مخه. لكنه بعد دراسته لفلسفة ويليام جيمس ونظرية التطور لداروين، ابتعد ديوي عن الفلسفة الهيجيلية. كان هيجل يرى التقدم الإنساني يحدث من خلال حل التعارض المنطقي (الجدلية) بين الأفكار. لكن ديوي يرى أن التقدم الإنساني يحدث عن طريق حل التعارض بين الفرد من جهة، وبين المجتمع والبيئة من جهة أخرى.

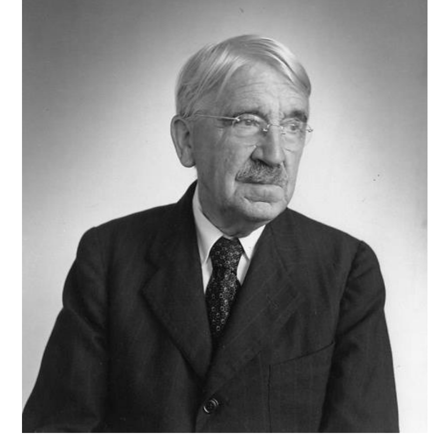
من داروين، تعلم ديوي أن الوعي والعقل والذكاء أشياء لا يمكن فصلها عن المجتمع والبيئة التي نعيش فيها. بل هي أشياء من إنتاج المجتمع والبيئة والطبيعة، وليست أشياء عليا مستقلة.

هذا كلام يناسب الفكر البراجماتي العملي. جيمس مثلا، حاول استخدام البراجماتية كعلاج نفساني لمشكلة الإيمان عند الأفراد. لكن ديوي كان مهتما بالقضايا الاجتماعية النفسية. قضايا الأخلاق والتعليم والسياسة.

يرى ديوي أن الإنسان لديه ميكانزم تعليمي لحل المشاكل التي تقابله في الحياة. هذا الميكانيزم نسميه عادة، وهو يسمو فوق الغرائز الطبيعية للإنسان. ديوي وفلسفته هما موضوع الباب التالي.

19

جون ديوي


جون ديوي

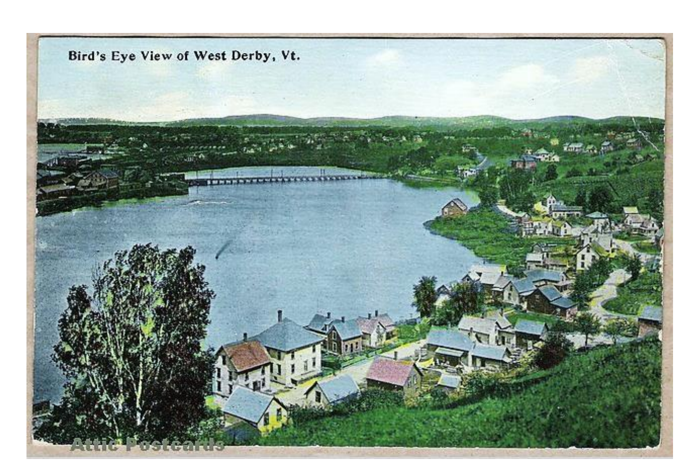
ولد الفيلسوف وعالم النفس وخبير التربية والتعليم جون ديوي(1859 – 1952م)، في مدينة برلنجتون في ولاية فيرمونت بالولايات المتحدة، في نفس العام الذي ظهرت فيه أعمال جون ستيوارت ميل وشارلز داروين وكارل ماركس.

أهمية جون ديوي التاريخية بالنسبة للفكر الإنساني،

تأتي من كونه قد قام بالتحرر من الأفكار السائدة في عصره، ولم يلتزم بالثقافة والتقاليد الراسخة لمن سبقوه. قام بنفسه باختبار القيم السائدة في عصره، لفحص صلاحيتها ولمعرفة مدى فائدتها في حل مشاكل المجتمع. سلاحه في هذا، هو المنطق والأسلوب العلمي.

تبع جون ديوي المذهب البراجماتي أو الواقعي (Pragmatism)، الذي يعتمد على النتائج والممارسة والتدريب، أسوة بتشارلز ساندرز بيرس، ووليام جيمس. الثلاثة أمريكيون. تأثر ديوي أيضا بالمذهب التجريبي (Empiricism)، الذي يقول بأن المعرفة تأتي فقط من الحواس، وبالمذهب النفعي (Utilitarianism)، الذي يقول بأن كل نظرية أو فكرة أو مفهوم، نقبلها أو نرفضها بناء على مدى فائدتها للمجتمع بصفة عامة.

قضى جون ديوي صباه في ولاية فيرمونت. حيث بساطة الريف ووداعته وهدوئه، وجمال الطبيعة وسحرها الخلاب. وسط مجتمع يعشق تراب الوطن ويحترم حرية الفرد وحقوقه الطبيعية في الحياة والمساواة وطلب السعادة.



وست دربي فيرمونت 1907م

خلفية ديوي الدينية كانت ذات نزعة ليبرالية. لذلك لم يعان كثيرا في تبني العقلانية منهجا، أو في رفض الخرافات والأساطير التي يتسم بها الفكر الديني.

بعد تخرجه من جامعة فيرمونت عام 1879م، قام بالعمل مدرسا بولاية بنسلفانيا لمدة عامين، وسنة أخرى بولاية فيرمونت. لكن حبه للفلسفة جعله يلتحق بجامعة جون هوبكنز للحصول على أجازة الدكتوراه في فلسفة عمانويل كانط عام 1884م.

ثم عمل رئيسا لقسم الفلسفة والتربية في جامعة شيكاغو. أنجب ستة أطفال من زوجته الأولى أليس تشيبمان، وزوجته الثانية كانت روبرتا جرانت.

تأثر جون ديوي بداروين، وكان يعي بعمق معنى التطور ومعنى الأسلوب العلمي في حل المشاكل. كان يرى أن الإنسان، ككائن حي، يتأثر بالمجتمع. من ثم، يمكن بناء وإعادة تشكيل الفرد عن طريق تطوير المجتمع الذي يعيش فيه. كان يعتبر الفلسفة سلطة تشريعية، مهمتها نقض القيم الحاضرة، واقتراح قيم جديدة، تلائم ما يحدث في المجتمع من متغيرات.

لذلك تأتي هنا أهمية العلوم الاجتماعية. لأنه عن طريقها يمكن فهم والتحكم في المجتمع وأفراده. مثل عناصر الطبيعية، التي يمكن فهمها والتحكم فيها عن طريق دراسة علم الفيزياء.

ليس هناك شئ اسمه الصواب المطلق أو الخطأ المطلق. كل شئ هنا نسبي. الخبرة هي السلطة العليا التي نعول عليها. الرقي بالمجتمع يأتي فقط عن طريق التعليم الجيد. التعليم هو الطريق التقدم والحضارة، وتنظيم الذكاء في المجتمع.

التفكير العلمي يبدأ بالفرض، لا بالنتيجة. والتفكير الديني يبدأ بالنتيجة، لا الفرض. الديموقراطية هي مستقبل البشرية. تساعد كل فرد لكي يساعد نفسه. مشاكل الدولة تحل بالتجارب العملية، لا الأفكار النظرية والتعميم.

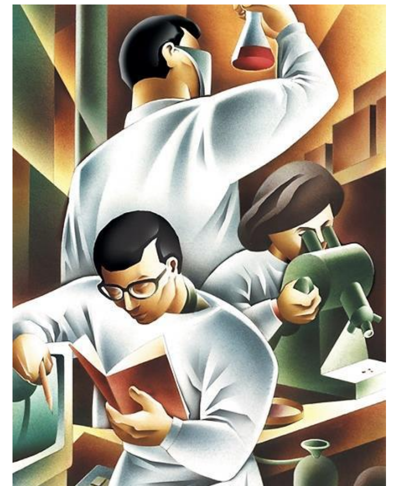
ثم عرج على هيجل لدراسة فلسفة التاريخ، وفلسفة وحدة الإنسان مع الطبيعة. تحت تأثير هيجل، بدأ يفقد الثقة في فكرة الازدواجية. الخير والشر، الروح والجسد، الإله والشيطان. وبدأ ينظر للإنسان على أنه وحدة متكاملة من الطاقات الإيجابية.



فقد الثقة في الازدواجية

عندما انتقل ديوي إلى ولايتي مينيسوتا وميشجان، اكتشف أن حياة الناس في الغرب، ليست ببساطة الحياة التي تعود عليها. مشاكل عديدة وصراع للبقاء يستعصي على الفهم أو التبرير. لذلك كان لا بد من عمل الدراسات الاجتماعية التي تعتمد على التجارب، لفهم سلوك المجتمع. النظريات بدون تجارب لا تسعفنا هنا.

طبق جون ديوي مبادي الفلسفة البراجماتية لوليام جيمس في التعليم من سنة 1894 إلى سنة 1904م. بداية بالمدرسة التجريبية بشيكاغو التي كان يديرها. وكان أسلوبه في التعليم، لا يعتمد على الحفظ، إنما على الفهم والوصول إلى الحقائق بالتجربة. لا في المواد العلمية فقط، ولكن في كل مجالات المعرفة والثقافة والأدب والفن.



الوصول إلى الحقائق بالتجربة

بلغت شهرة جون ديوي الآفاق. لا في الولايات المتحدة وحدها، ولكن في الغرب وروسيا وبلاد الشرق الأقصى أيضا. كتابه "مدرس ومجتمع" عام 1899م، يحكي الحكاية كلها ويبين تجربته في التعليم. أرجو أن يقرأه كل المشتغلين بالتعليم في بلادنا.

بسبب جهوده في التربية والتعليم، وإسهاماته في علم النفس التجريبي، عين بقسم الفلسفة بجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك عام 1904م، واستمر يشغل هذا المنصب حتى تقاعده سنة 1930م.



جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك

كانت تتوالى الدعوات له لكي يدير برامج التعليم في بلاد مثل اليابان والصين والمكسيك وروسيا وتركيا وحتى جنوب أفريقيا. في عام 1929م، تمت دعوته لإلقاء محاضرات في جامعة إيدينبرا.

اتسمت شخصيته بالبساطة وتواضع العلماء. يتبادل الحديث والمناقشة مع كل الناس وينزل إلى مستواهم لكي يوصل أفكاره لهم، سواء كان محدثه فلاح أو مدرس أو صاحب حانوت أو رئيس قسم في جامعة.

بالرغم من بساطته وتواضعه، لا يحيد عن الحق ولا يجامل ولا يتنازل عن أفكاره بالبحث عن حلول وسط لكي يرضي من يخالفوه، سواء كان هذا المخالف صحفيا أو سفيرا أو وزيرا. عندما يدافع عن مظلوم، ينقلب إلى أسد هصور لا يهاب أحدا في الحق والعدل.


عندما يدافع عن مظلوم، ينقلب إلى أسد هصور

له أكثر من 25 كتاب في التعليم والفلسفة وعلم النفس. ليبرالي الهوى والفكر، وديموقراطي النشأة والسلوك، يؤمن بأن الديموقراطية هي حالة اجتماعية لا تتحق إلا بالكفاح لتحقيقها طوال الوقت.

أكبر مشكلة واجهت الفكر الفلسفي في تاريخه، هي مشكلة معرفة أصول الفكر ومنابعه. هل المعلومة تأتينا ساعة تجلّي وصفاء عن طريق الاعتقاد، أم بالتفكير والاستنتاج، أي باستخدام العقل فقط؟ أم المعلومة تأتينا بالتجربة والمشاهدة؟

اختار جون ديوي التجربة والمشاهدة كمصدرين للمعرفة. طبقهما في مجالي الدين والأخلاق. فهو ليس لديه حقيقة مطلقة أو كمال مطلق. قبول المفكرين المحدثين للمطلق والميتافيزيقا بالنسبة للمعرفة والأخلاق، هي سبب فشلهم في حل مشاكلهم والوصول إلى أية نتيجة.

من الناحية الاقتصادية، التجربة والمشاهدة ضرورية لفهم عوامل الإنتاج والبناء وإصلاح التربة والتصنيع، إلخ. لكن بالنسبة للعقيدة والمطلق، يظل المطلق ثابتا لا يلين . يعض عليه الناس بالنواجذ طلبا للأمان. هذا، كما يقول ديوي، مظهر من مظاهر الضعف لا القوة.

تتنوع الأديان والمعتقدات مع تنوع البشر، وكل منا يعتقد أنه على صواب، والباقي على خطأ. لكن، ليس هناك ما يثب صحة أيا منها بالتأكيد. وإلا كان الكل قد آمن بها. لا يبقى لنا سوى الاختيار بناء على الإيمان والأمل في أن يكون اختيارنا هو الصواب. الله عند ديوي، هو وحدة كل القيم العليا التي تسمو بالإنسان وتعلو من شأنه.

السلطة الدينية، لا يجب أن تأتي عن طريق خرافات وتفاسير مسبقة لا تناسب عصرنا وحياتنا، إنما يجب أن تأتي من تجارب كل مجتمع في كل عصر، لكي تفي بحاجة المجتمع، وتساعد على حل مشاكله. الدين ليس فقط عبادات وطاعة أوامر وهروب

من المشاكل، بقدر ما هو تفاعل الإنسان مع مجتمعه ومع الطبيعة المحيطه به.



الدين ليس فقط عبادات وهروب من المشاكل

إذا ربط الإنسان فهمه للقيم، بسلوكه ونشاطه العملي، بدلا من أفكار مسبقة جامده، لن يجد صعوبة في تقبل النظريات العلمية الجديدة. ولن يكون هناك تعارض بين الفكر الديني والعلم.

لا يعارض جون ديوي التدين، ولكنه يرى الدين طريقة لتفاعل الفكر الإنساني مع تعاليم الرب ومع الطبيعة، لكي يسمو الإنسان على هذه الأرض. الدين عند ديوي نشاط وفعل ومشاركة في الحياة، وإيجاد حلول، لا مجرد إطاعة أوامر وطقوس وزي معين. كل الأديان طرق مختلفة للوصول للحقيقة المطلقة .

كان جون ديوي معارضا لنظم التعليم القديمة في المدارس والجامعات. الذي تأتي فيه المعلومة جاهزة ومعلبة. وكان من رأيه أن التعليم الحقيقي يأتي فقط عن طريق الممارسة والفعل، أي التجربة والخطأ. من هنا جاءت أهمية التعليم والتدريب أثناء الوظيفة.

جاء في كتاب جون ديوي "كيف نفكر وكيف نحل المشاكل"، خطوات حل أي مشكلة الآتي:

1. الشعور بالمشكلة
2. تعريف المشكلة وتحديدها
3. وضع الفرضيات واقتراح الحلول
4. التحقق بالتجربة، أي اختبار الفرضيات
5. الوصول إلى النظرية والتعميم.

ليس هدف التعليم، محو الأمية فقط. إنما التعليم هدف يبغيه الفرد طوال حياته. إجابة سؤال "لماذا" أهم من إجابة سؤال "كيف". التعليم ليس عبارة عن جمع وتكديس معلومات، ثم يتوقف بعدها الفرد عن التعليم قانعا بما يعرف. لكن التعليم فعل مستمر، من المهد



التعليم فعل مستمر من المهد إلى اللحد

إلى اللحد. في حالة استمرار.

وظيفة المدرسة هي إمداد الطالب بالأجهزة والكتب والنصيحة. الباقي يأتي خارج المدرسة. الهدف من التعليم هو اكتساب الخبرة والقدرة على حل المشاكل. التعليم من أجل التعليم لا يعني شيئا. التعليم، حسب تعريف ديوي، هو تنظيم الخبرات بطريقة تؤدي إلى زيادتها.

التعليم يجب أن يكون للجميع، صغار وكبار ، رجال ونساء. ويكون بكل الوسائل، مدارس وجامعات ومعاهد ومراكز أبحاث وإعلام، ورحلات كشافة وزيارات للمتاحف ومشاهدات للمسرح والأوبرا، إلخ.



التعليم بكل الوسائل، منها المسرح

التعليم بالنسبة للصغار، يكون بهدف إعداد الطفل لكي يستطيع الحياة وسط المجتمع. ليس الهدف حشو رأسه بمعلومات غير مهضومة وغير مفهومة. التعليم يكون بهدف إعداد الفرد لكي يعيش في المجتمع تحت أي ظروف. من ثم، يقاس النجاح في التعليم بما يحققه من تقدم في سلوك وشخصية الفرد، لا بمقدار ما يحفظه من معلومات.



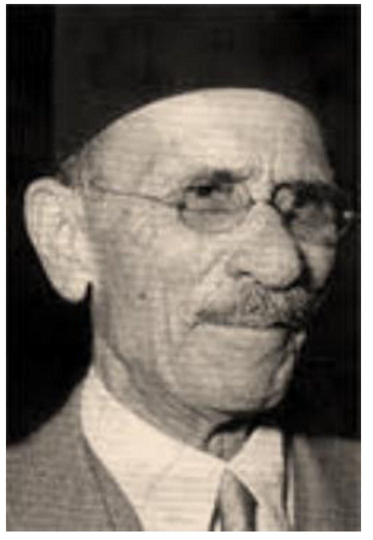
التعليم ليس حشو معلومات، إنما لإعداد الطفل للحياة وسط المجتمع

مواد الدراسة يجب أن تكون ملائمة للعصر. الطفل يجب أن يكون شغوفا ومحبا للتعليم. المواد الدراسية يجب أن تكون عملية، تنتقل إلى التلميذ بأسلوب تعاوني ومشاركة، لا عن طريق الضرب والأوامر.



التعليم معاونة ومشاركة، لا ضرب وأوامر

هدف جون ديوي، هو بناء مجتمع ديمقراطي. وإيجاد توازن بين قيم الفرد وقيم المجتمع عن طريق التربية والتعليم. كان يرى أنه هناك علاقة وثيقة بين التقدم العلمي والنظام الديمقراطي. الديموقراطية عند ديوي، ليست مجرد صناديق اقتراع، لكنها تأتي عن طريق تكوين رأي عام ناضج، ناتج من التواصل بين المواطنين والمفكرين والسياسيين.


أحمد لطفي السيد

تأثير ديوي على نظام التعليم بالولايات المتحدة كان عظيما. استفادت أمريكا من افكار جون ديوي في التربية والتعليم، وقامت بجذب العقول واستقطاب كل علماء الأرض. قالت عنه هيلدا نيتباي عام 1953م: "ديوي بالنسبة لعصرنا كأرسطو بالنسبة للعصور الوسطى." نحن نقول بدورنا أنه يشبه أحمد لطفي السيد لجيل ما قبل الثورة.

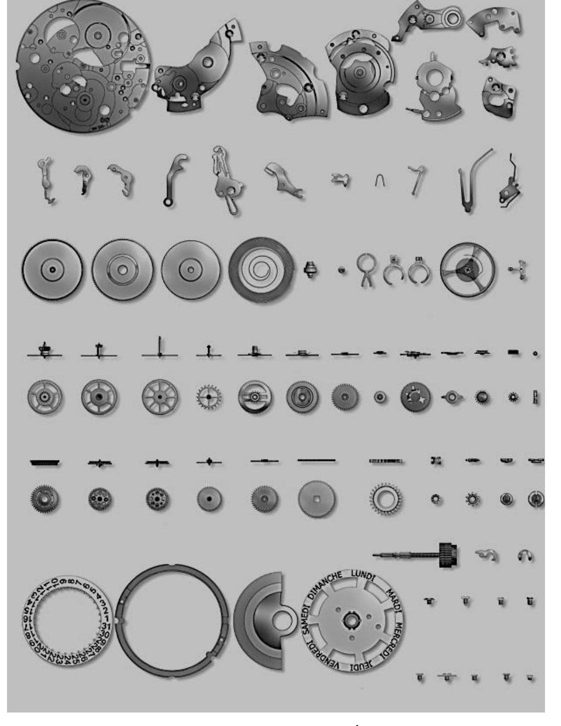
إلى جانب جهود جون ديوي العظيمة في مجالي التربية والتعليم، كانت له إسهامات واضحة في مجالات البيئة والفن والمنطق والديموقراطية والأخلاق والقانون. لقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بوضع إنسان على القمر وأعادته إلى الأرض سالما، بفضل برنامج التربية والتعليم الذي وضعه جون ديوي من قبل.

20

الفلسفة التحليلية

التحليل هنا يعني فك الشئ من بعضه، لمعرفة الأجزاء الأولية التي تساهم في تركيبه. الفلسفة التحليلية أو فلسفة التحليل (Analytic Philosophy)، تقوم بتوضيح فهمنا للأشياء عن طريق تحليل أو تفكيك معنى الجملة أو المقولة أو المفهوم.

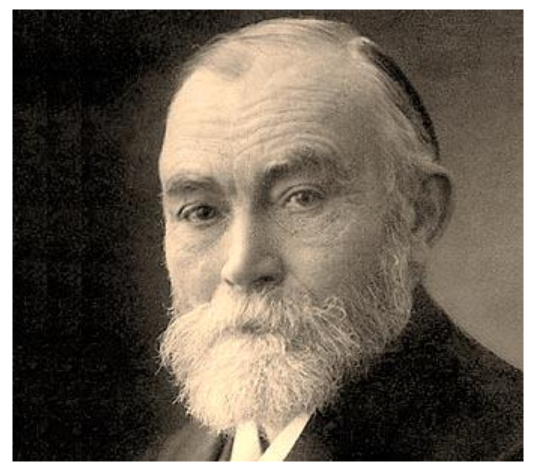
كانت الفلسفة التحليلية محط اهتمام المحافل الأكاديمية للدول الناطقة باللغة الإنجليزية منذ بداية القرن العشرين. بعد الفيلسوف كانط، انفسمت الفلسفة الغربية إلى قسمين. الفلسفة القارية، والفلسفة التحليلية.



أجزاء الساعة بعد فكها

الفلسفة القارية (Continental Philosophy)، التي تمارس في معظم أجزاء القارة الأوروبية. تنحو المنحى المثالي في اتجاه فلسفة هيجل، ثم تنعطف مع الوجوديين أمثال نيتشة وهيدجر وسارتر، لكي تصل إلى فلسفة ما بعد الحداثة أو ما بعد البنيوية (Post-structuralism).

المجتمعات الأوروبية الصناعية الرأسمالية، في القرن التاسع عشر، أصبحت تتغير وتتطور بسرعة شديدة. واكبتها أفكار اجتماعية وفلسفية أكثر سرعة وتعقيدا. ماركس يعلن نهاية الفلسفة، نيتشة وبيرجسون يقومان بتدميرها لإعادة بنائها من جديد. لذلك كانت هناك حاجة ماسة لمن يقوم بقيادة الفكر الغربي في هذا الوقت، لإخراجه من هذه الأزمة، والعبور به إلى بر الأمان.

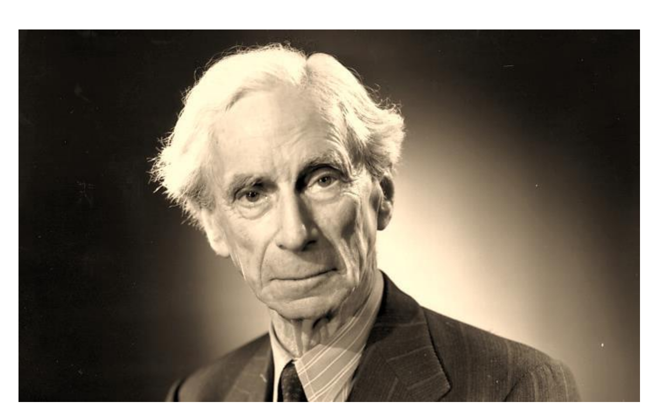

فريج

أول من ساهم في هذا العمل الجبار، هو عالم الرياضيات والمنطق، جوتلوب فريج (1848-1925م) الألماني الجنسية، أعظم مفكر ظهر في العالم الغربي بعد الفيلسوف كانط.

أهمية فريج تأتي من أنه: وضع علم الرياضيات على أسس جديدة أكثر صلابة. نقاها من الأخطاء، وقام بتعريف الأعداد تعريفا دقيقا. وأوضح أن القضايا المنطقية التركيبية لكانط لم تكن صحيحة. ثم قام بوضع أصول منطق رصين يمكن أن يستخدم كأساس للفلسفة.

مساهمة فريج في فلسفة الرياضيات والمنطق واللغة كانت عظيمة. لقد كان يعتقد أن أساسيات علم الرياضيات يمكنها أن تستنتج من علم المنطق. كما أن الجملة اللغوية، يمكن أيضا تحليلها وإخضاعها للمنطق، حتى يتيسر اختبار صحتها أو كذبها.

الرياضيات ليست أمورا روحانية، إنما هي طريقتنا في التفكير الواضح السليم. الرياضيات، هي ببساطة فرع من فروع المنطق. أما بالنسبة للغة، فيقول فريج، إن معنى الجملة يجب أن يشتق من أجزائها، فقط لا غير. وإن معنى الكلمة، يجب أن يفهم من سياق الجملة.


راسل

يأتي بعد ذلك بيرتلاند رسل، لكي يمزج أسلوب فريج ومنطقه مع أفكار هيوم وفلسفته التجريبية. لقد كان رسل يعتقد في أن العالم مكون من حقائق صغيرة مستقلة لا يمكن تفتيتها، أسماها بالحقائق الذرية (Atomic facts). كلمة ذرة باليونانية تعني الشئ الذي لا يمكن تفتيته إلى أشياء أبسط منه.

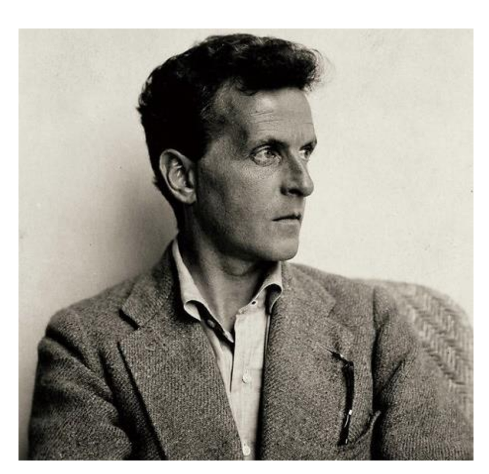
أبحاث راسل في المنطق، جعلته يفحص بعناية طريقة استخدامنا للغة. اعتقد راسل أن قواعد اللغة المستخدمة في حياتنا العامة ليست منطقية، ويمكن أن تؤدي إلى عدم فهم وتضليل.

الجملة في لغتنا، لكي تكون مفيدة، يجب أن يكون لها معنى. ولكي يكون لها معنى، يجب أن تماثل أو توافق هذه الحقائق الأساسية، أي الحقائق الذرية. وظيفة الفلسفة هي تحليل هذه الجمل أو المقولات، وتفكيكها إلى جمل بسيطة تطابق حقائق بسيطة. الحقائق البسيطة إما أن تكون صحيحة أو كاذبة.


المرأة تنجب عدد صحيح من الأطفال

مثلا، جملة: "المرأة تنجب 2.6 طفل في المتوسط"، هي جملة مركبة وليست بسيطة. كذلك مفاهيم مثل "الدولة" و"الرأي العام"، هي مفاهيم مركبة وليست بسيطة. نخطئ إذا اعتبرناها أشياء حقيقية موجودة.

ثم يأتـي بعد ذلك الفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجنشتاين (1889-1951م). ولد في فيينا بالنمسا. تنازل عن ميراثه الكبير عن والده الذي كان يعمل في صناعة الحديد. ترك دراسة هندسة الطيران لكي يلتحق بجامعة كامبريدج لدراسة الرياضيات والفلسفة مع بيرتراند رسل. عاد أثناء الحرب العالمية الأولى إلى فيينا للتطوع في الجيش.


فيتجنشتاين

كان يضع القلم واوراق الكتابة في جيبه عندما كان يذهب إلى الخنادق الأمامية. في نهاية الحرب، وقع أسيرا في يد القوات الإيطالية. أثناء فترة الأسر، كتب فيتجنشتاين أهم الأعمال التي ألفت في الأسر. كتاب:

رسالة منطقية فلسفية- (Tractatus Logico-Philosophicus)

نشرت الرسالة عام 1921م، وهي مكونة من 85 صفحة، تناقش سبعة قضايا منطقية. كل قضية من هذه القضايا، يتبعها ملاحظات، وملاحظات على الملاحظات. الرسالة كتبت باختصار شديد بحيث لا يمكن تلخيصها أو ضغطها أكثر من ذلك. ويدعي فيتجنشتاين بأنها ستقوم بحل كل المشاكل الفلسفية.

يقول فيتجنشتاين في الرسالة، إننا يمكنا القول بصحة أشياء في هذا العالم. لذلك، لغتنا يجب أن تعكس، بطريقة ما، تركيبة هذا العالم. هذا ما كان يعنيه بقوله "العالم عبارة عن مجموعة حقائق، لا أشياء". ما يمكن التفكير فيه يمكن قوله بالكلمات. هل يمكن أن تقول اليوم شديد البروده وأنت تعني شديد الحرارة؟ فقط إذا كنت تريد خداع الناس.

الآن، ما هي هذه الحقائق التي يتكون منها هذا العالم؟ هي الحقائق الذرية التي تحدث عنها بيرتلاند راسل. هي الحقائق البسيطة التي لا تتجزأ والتي يمكن تأكيدها أو نفيها بالتجربة والمشاهدة. الحقائق المركبة أو المعقدة، يمكن تحليلها إلى حقائق بسيطة. يمكن فكها مثل أجزاء الساعة.

يقول فيتجنشتاين أيضا في رسالته أن الأسئلة الميتافيزيقية، لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها. من ثم، هي كلام فارغ. هي هراء وقضايا باطلة من أساسه. لذلك، ليس لها جواب ولا يجب إضاعة الوقت في مناقشتها. بل يجب اعتبارها نوعا من السخافات. الثعبان الأقرع نوع من السخافات.

الطريقة السليمة لمعالجة القضايا الفلسفية، هي إننا إما أن نكون قادرين على قول الحق، أو نصمت. هذا ما تقوله لغة العلوم. فهي تبين قدرتنا على قول الحق . أما القضايا الأخلاقية والميتافيزيقية، فهي تثبت فشلنا في القول المؤكد، لذلك كان يجب الصمت حيالها. ما يقوله رجال الدين، يثبت فشلنا المؤكد في التعبير بالقول.



ما يقوله رجال الدين، هو دليل فشلنا في التعبير بالقول

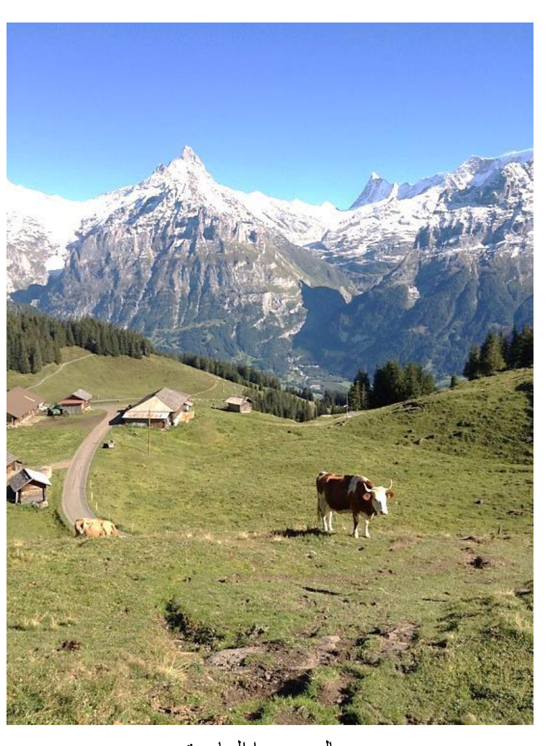
رسالة فيتجنشتاين يمكن تلخيصها في الآتي: "ما يمكن قوله على الإطلاق، يمكن قوله بوضوح. وما لا يمكن قوله أو الحديث عنه، يجب أن نلزم حياله الصمت المطبق". وعلى الميتافيزيقيين ورجال الدين أن يخرسوا ويغلقوا أفواههم.

يقول فيتجنشتاين، إن أي شخص أمكنه فهم ما جاء في رسالته من قضايا، سوف يكتشف أنها كلام فارغ، إذا طبقنا عليها نفس القواعد. لكن هذا الكلام الفارغ، سوف يساعدك في التسلق والصعود إلى آفاق أعلى. حينئذ، عليك أن تتخلص من السلم، بأن تتجاوز هذه المرحلة، حتى تستطيع أن ترى العالم الحقيقي. هنا يبدو فيتجنشتاين كصوفي أكثر منه فيلسوف.

عندما لا يمكننا كتابة الإجابة بوضوح، قد يعني هذا أن السؤال أيضا غير واضح. إذا استطعنا فهم السؤال وكتابته بوضوح، أمكننا إجابته.

بعد نشر الرسالة، هجر فيتجنشتاين الفلسفة كلية. وذهب إلى جبال الألب في النمسا حيث الطبيعة الساحرة، لكي يعمل كمدرس إبتدائي . لكنه لم يكن سعيدا بهذه الوظيفة. ولم يكن مرتاح البال.

نجح الفيلسوف راسل في إقناع فيتجنشتاين بالعودة إلى كامبريدج لتدريس الفلسفة. قدم رسالته في المنطق الفلسفي لنيل أجازة الدكتوراة. شغل فيتجنشتاين مكان الفيلسوف مور عند تقاعده.



جبال سويسرا الساحرة

بعد وفاة فيتجنشتاين بمرض سرطان البروستاتا عام 1951م، نشرت محاضراته وأبحاثه الجديدة تحت عنوان بحوث فلسفية (Philosophical Investigations). منها يتضح أن أفكاره قد تغيرت كثيرا عن ذي قبل.

لكن كان هناك قاسم مشترك بين أفكاره السابقة وأفكاره اللاحقة. فهو لا يزال مهتما باللغة والكلمة ومعناها. حدود اللغة، هي حدود العالم الذي نعيش فيه. إن ضاقت ضاق، وإن اتسعت اتسع. هذا الرأي جاء في كل من كتابيه، الرسالة والبحوث.

دعنا الآن نناقش ما جاء في كتاب البحوث الفلسفية لفيتجنشتاين مع التركيز على اللغة ومشكلة المعنى. خلال تاريخ الفلسفة الطويل، منذ أفلاطون إلى فيتجنشتاين، ظل المعنى مرتبطا بالأسماء التي نطلقها على الأشياء. بالنسبة لفيتجنشتاين، ارتباط المعني بالأسماء، تسبب عنه نوع من الصور الميتافيزيقية والخيالية الخاطئة التي عمت الفكر الغربي كله.

مثلا، كان يعتقد أفلاطون أن الكلمات هي عبارة عن أسماء لأشياء موجودة في العقل لا تتغير، مثل المثلث والإنسانية، إلخ. نظرا لأن مثل هذه الأشياء لا توجد في عالمنا المحسوس، لأنه عالم دائم التغير، جاء أفلاطون بفكرة وجود العالم الآخر، عالم المُثل الذي لا تتغير فيه الأشياء. أما أرسطو، فكان يعتقد بأن الكلمات تسمي أشياء ثابته في هذا العالم. وعلم آدم الأسماء.

التجريبيون يعتقدون أن الكلمات تسمي بيانات ترصدها الحواس. البراجماتيون يعتقدون أن الكلمات تسمي أفعال ونتائج. بيرتلاند راسل وفيتجنشتاين، في بداية حياته الفلسفية، يعتقدون أن الكلمات تسمي حقائق ذرية أو حقائق بسيطة أولية ثابتة.

لكن فيتجنشتاين لاحقا، تغير مفهومه للكلمات زاعما أن معنى الكلمة يكمن في طريقة استخدامها في سياق اللغة. الكلمات أصبحت عنده مجرد أدوات لتأدية الغرض والوظيفة المطلوبة منها في الوقت الراهن.

عندما نقول قد غربت الشمس. فهل يعنى هذا أن الشمس قد غربت حقا؟ الشمس لا تغرب، الأرض هي التي تدور حول محورها. لكن الجملة الأولى قامت بنقل المعنى وأدت وظيفتها. وهي الإخبار بأن الشمس أصبحت مختفية وراء الأفق.

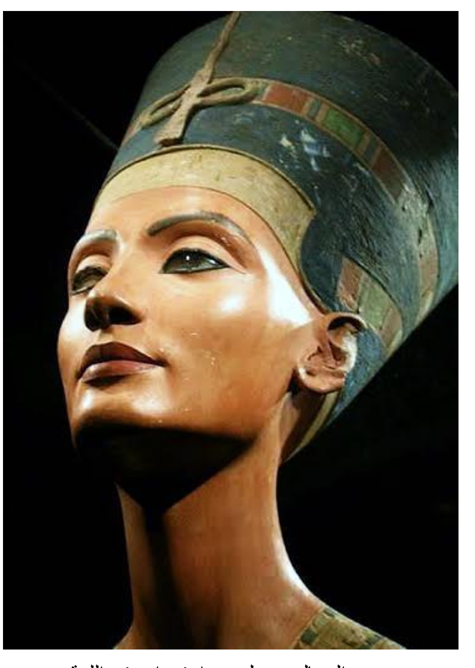


الشمس لا تغرب ولكن الأرض هي التي تدور حول محورها

معنى الكلمات لم يعد مرتبطا بالحقائق الأولية البسيطة، أي الحقائق الذرية.
معنى الكلمات أصبح مرتبطا بطريقة استخدامها. إننا نستخدم الكلمة الواحدة بطرق مختلفة لأغراض عديدة. نستخدم نفس الكلمة في لغات مختلفة بمعان مختلفة. فلدينا لغة العلوم ولغة الدين ولغة الفنون، إلخ.

لكن يختلف فيتجنشتاين مع المناطقة الوضعيين، ولا يرى مثلهم أن اللغة الوحيدة التي لها معنى هي لغة العلم. لغة العلم بالنسبة لفيتجنشتاين، هي أحد الطرق للتحدث عن، أو وصف هذا العالم الذي نعيش فيه.

اللغة مثل ألعاب التسلية أو الألعاب الرياضية. لكل لعبة قواعدها وأصولها. الكلمات تشتق معناها من طريقة استخدامها داخل اللغة. يرى فيتجنشتاين أن المشاكل تأتي من محاولة فهم الكلمة بمعزل عن طريقة استخدامها داخل اللغة.



معنى الجمال بمعزل عن استخدامه في اللغة

إذا حاولنا تعريف معنى الجمال أو الحق، دون النظر لطريقة استخدام هذه الكلمات في اللغة، اختلط علينا الأمر. وظيفة الفلاسفة هي علاج الأسئلة كما نعالج الأمراض. الأمراض التي تعترينا بسبب استخدامنا الخاطئ للغاتنا.

الفلسفة منذ ديكارت، كانت تقول بأن المعرفة تعتمد على تجاربنا الخاصة. في الواقع، قام ديكارت بالتفرقة بين العقل والمادة بناء على تجربة خاصة. "أنا أفكر، إذن أنا موجود". هيوم، الفيلسوف التجريبي البريطاني، بدأ فلسفته من التجربة

والمشاهدة. وهي أيضا تجارب خاصة.

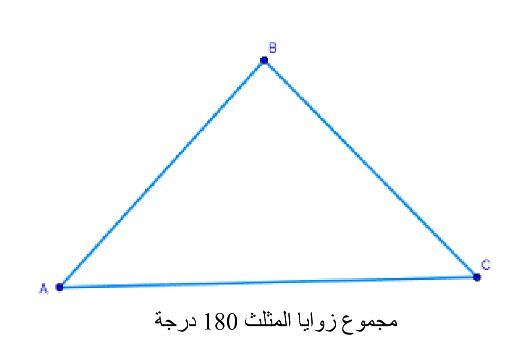
أما فيتجنشتاين، فهو يرى أن اللغة تحكم نشاط المجتمع. من ثم، لا يستطيع الفرد أن يؤلف لغة خاصة به. لأنه لا يعلم ما إذا كان استخدامه للكلمة صحيحا أم خاطئا. ليس هناك شخص آخر يمكنه أن يصحح له طريقة استخدامه للكلمة أو التعبير.

إذا لم تكن اللغة الخاصة ممكنة، يعني هذا أن الفلسفة لا يجب أن تفهم كحالة فردية خاصة، إنما كحالة اجتماعية عامة. من ثم، الفلسفة التي تعتمد على التجارب الخاصة، مثل فلسفة العقلانيين وفلسفة التجريبيين، هي فلسفات بها أخطاء ولا يمكن الوثوق بها.

21

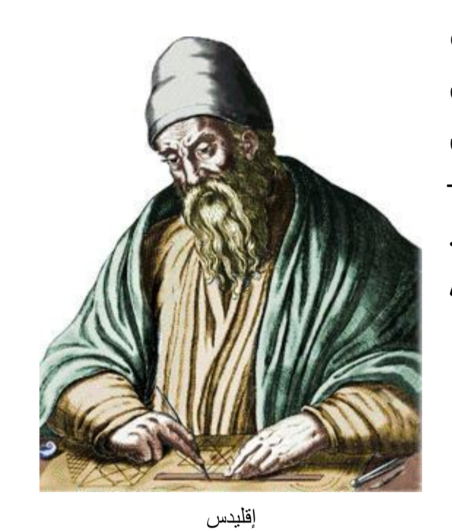
علم الرياضيات ورحلة البحث عن الحقيقة

"ربما أكون مخطئا فى الاعتقاد بأنني أقوم بكتابة هذه السطور. وأنا مخطئ بالتأكيد فى الاعتقاد بأن الشمس سوف تشرق غدا. لكن كيف أكون مخطئا فى الاعتقاد بأن زوايا المثلث تساوى 180 درجة" اسبينوزا



مجموع زوايا المثلث 180 درجة

يدرس الطلبة فى مدارسنا فرعا من فروع الرياضيات يسمى بالهندسة المستوية. هذا العلم نشأ وترعرع فى مدينة الاسكندرية. بالتحديد داخل مكتبتها الشهيرة قبل ميلاد المسيح. على يدي عبقري زمانه إقليدس (325 – 265 ق م). العالم الرياضي الشهير فى ذلك الوقت. لذلك تسمى فى بعض الأحيان بالهندسة الإقليدية، نسبة إلى إقليدس هذا.


إقليدس

هذه الهندسة تبدأ بخمس بديهيات. هى:

1- من نقطتين معلومتين، يمر مستقيم واحد
2- الخط المستقيم لا نهاية له
3- من نقطة معلومة، يمكن رسم قوس دائرة واحد
4- كل الزوايا القائمة متطابقة
5- من نقطة معلومة، يمكن رسم مستقيم واحد يوازى مستقيما معلوما

هذه البديهيات نفترض صحتها بدون برهان. اعتبر إقليدس هذه البديهيات حقائق. واعتقد أنها واضحة جدا للجميع، ولا يوجد هناك داع لإثبات صحتها.

من هذه البديهيات الخمسة، استنتج إقليدس نظريات. من النظريات اشتق نظريات أخرى. فى النهاية، بنى هذا الصرح الكبير. ظلت هذه الهندسة حتى القرن التاسع عشر، تأخذ مكانها الرفيع بين علماء الرياضيات والفلاسفة.

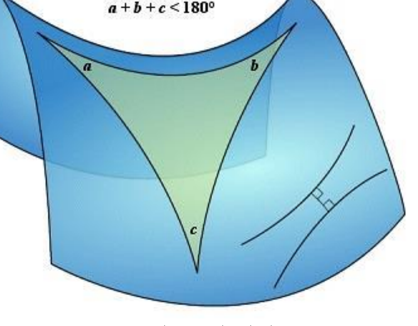
كانت تعتبر أوثق فروع المعرفة. وكانت باقي فروع الرياضيات، تأخذ مكانها المرموق لمجرد اتصالها بهذه الهندسة. لم تكن هناك حاجة لتسميتها هندسة إقليدس، لأنه لم يكن هناك غيرها. الهندسة ببساطة هى هندسة واحدة، تدرس خواص الخطوط فى الفراغ المحيط بها. وهى مضبوطة ومعروفة للإنسان بالتأكيد.

لكن دوام الحال من المحال. وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فى القرن التاسع عشر، بدأ العلماء يتساءلون عن مدى صحة هذه البديهيات الخمسة. إذا كانت صحيحة، لماذا لا يوجد لها برهان. حاول العلماء بجهود جبارة برهان بديهية واحدة منها، لكنهم عجزوا تماما. حاولوا استخدام البديهيات الأربعة الأول فى إثبات البديهية الخامسة، لكنهم فشلوا أيضا.

هذه المحاولات المستميتة، قد أوصلت العلماء إلى نتيجة كانت غائبة عنهم فى البداية. ماذا يحدث لو رفضنا البديهية الخامسة هذه. واستخدمنا البديهيات الأربع الأول فقط. هل نصل إلى تعارض منطقي أم لا؟ إذا وصلنا إلى تعارض منطقي، هذا يعنى أن البديهية الخامسة، والتى أسقطناها من اعتبارنا من قبل، ضرورية. بذلك نثبت صحتها.



برنارد ريمان



مجموع زوايا المثلث ليست بالضرورة 180 درجة

لكن ما حدث كان عكس المتوقع. لم يصل العلماء إلى أي تعارض. إنما توصلوا إلى نوع جديد من الهندسة يختلف عن هندسة إقليدس. من ثم، تم اكتشاف هندسات أخرى غير الهندسة الوحيدة المعروفة. منها هندسة ريمان والهندسة التوافقية والهندسة المتجانسة وهندسة القطوع وهندسة ديكارت والهندسة التفاضلية وغيرها. وأصبحت الإجابة على تساؤل اسبينوزا، هي: مجموع زوايا المثلث ليست بالضرورة 180 درجة.

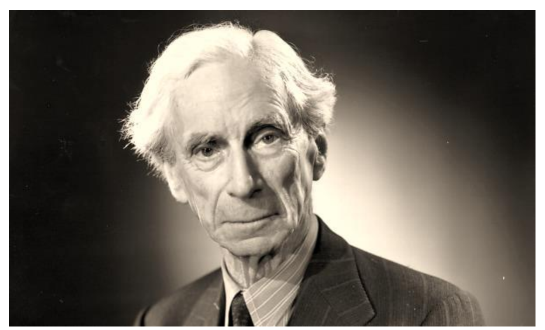
ثم تلا الاعصار الأول، إعصار آخر أشد ضراوة. هو اكتشاف الرياضيات التحليلية والمنحنيات التى تملأ الفراغ. هذه الاكتشافات أدت إلى نظريات جديدة. عصفت بثقة علماء الرياضيات فى الهندسة الإقليدية. لكن فقدان الثقة فى هذه الهندسة بالنسبة للفلاسفة، كان شيئا غير محتمل. فهذا يعني فقدان الثقة فى المعرفة الإنسانية كلها.


ويرستراس

واجه علماء الرياضيات فى القرن التاسع عشر بقيادة ديدكن و ويرستراس هذا التحدي. وقاموا بالتحول من الهندسة إلى الحساب كأساس للرياضيات. واستخدموا نظام المجموعات (Set System)، لتقسيم الأعداد إلى أعداد صحيحة وكسور، وأعداد حقيقية وأخرى تخيلية. ثم تبنى كانتور فكرة المجموعات هذه. وكون منها نظرية المجموعات (Set Theory)، كأساس للرياضيات الحديثة.

يبدو لأول وهلة أن نظرية المجموعات تنطبق تماما مع علم المنطق. علم المنطق هو قوانين العلة والمعلول والتعارض والاستنتاج. علم معقولية الحجج والتفكير السليم.

لقد كان الاعتقاد فى ذلك الوقت أن الحقيقة خالدة وأبدية. يمكن الوصول إليها عن طريق الاستنتاج والتحليل والمنطق. لهذا، ظهرت محاولات لتحويل علوم الرياضيات إلى علم المنطق. أي محاولات لاستخدام نفس قواعد المنطق لبناء صرح الرياضيات من أساسه.


راسل

قاد برتراند راسل والفريد نورث وايتهد عملية تحويل الرياضيات إلى منطق. استخدما فى ذلك نظرية المجموعات هذه. بعد جهد متواصل استمر أكثر من عشرين عاما، نجدهما فى كتابيهما مبادئ الرياضيات، قد نجحا فى إثبات أن 1 + 1 = 2 بعد 362 صفحة من القوانين والنظريات المنطقية المعقدة.


وايتهد

لقد كان هذا العمل الجبار، يهدف إلى بناء صرح واحد من الرياضيات. يمكن عن طريقه الوصول إلى كل الحقائق والنظريات الرياضية. بذلك يمكن الإستغناء عن باقى فروع الرياضيات.

لكن بعد هذا الجهد الجبار، وعلى غير المتوقع، اكتشف برتراند راسل وجود تعارض منطقي. هذا التعارض ناتج من تعريف المجموعة التى تحتوي على نفسها كعنصر من عناصرها. فمثلا، هناك مجموعة تتكون من الحروف الأبجدية. ا، ب، ت، ... ى. الحرف ب هو أحد عناصرها. فإذا أضفنا إلى هذه المجموعة عنصرا جديدا، هو عبارة عن مجموعة الحروف الأبجدية نفسها، أصبحت المجموعة تحتوى على نفسها كعنصر.

أرسل برتراند راسل خطابا إلى جتلوب فريج، وكان أيضا على وشك نشر كتابا له عن الحساب، مستخدما نظرية المجموعات. أوضح فيه أن استخدام المنطق ونظرية المجموعات كأساس للرياضيات، يعتبر عملا غير مضمون وغير موثوق به. ويقود إلى تعارض، لم يحدث من قبل فى الهندسة الإقليدية أو الحساب.

من هنا ظهرت أزمة شك فى وجود أساس ثابت وصلب للعلوم الرياضية فى الربع الأول من القرن العشرين. استمرت هذه الأزمة، بالرغم من قيام عدة محاولات لتعديل نظرية المجموعات، أو لإعادة تعريفها. حتى تستطيع التغلب على التعارض المنطقي الذى اكتشفه برتراند راسل.

إلا أن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل. لأن الأمور تعقدت وابتعدت الرموز المستخدمة عن المنطق بمعناه العام الواضح. هنا كتب برتراند راسل:

"إنني أريد الحقيقة المجردة التى لا تقبل الشك. بنفس الطريقة التى يطلب بها الناس الإيمان. لقد اعتقدت أن الحقيقة المجردة سوف أجدها فى علوم الرياضيات. لكنني اكتشفت أن الرياضيات مليئة بالقصور.

إذا كانت الحقيقة يمكن اكتشافها عن طريق الرياضيات، فإن ذلك يكون عن طريق نوع جديد من الرياضيات. يبنى على أساس صلب. بينما العمل نحو هذا الهدف على أشده، كنت دائما أتذكر قصة الفيل والسلحفاء.


فيل الرياضيات الضخم غير مستقر

لقد صنعت فيلا ضخما تستطيع أن تعتمد عليه كل الرياضيات. لكنني وجدت أن هذا الفيل يتأرجح. لذلك سندته بسلحفاء حتى لا يسقط. لكن السلحفاء نفسها غير مستقرة مثل الفيل. بعد أكثر من عشرين عاما من الجهد الشاق، وصلت إلى النتيجة المرة. وهى أننى لا أستطيع أن أفعل شيئا، يجعل الرياضيات حقائق لا يقربها الشك."

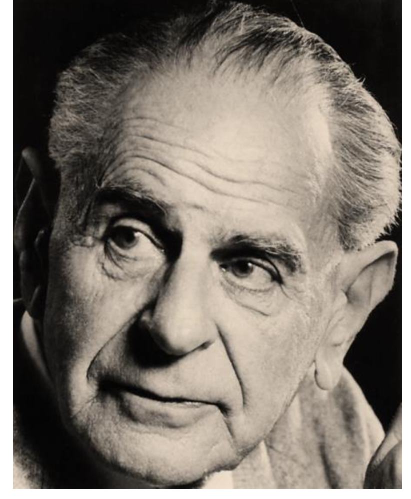
بعد محاولات المنطقيين بقيادة برتراند راسل ووايتهد فى بناء أصول الرياضيات الحديثة، يأتي دور البنائين بقيادة بروير عالم الطوبولوجيا. موقف بروير يستند إلى أن الأعداد الطبيعية، 1 2 3 ...، ندرك صحتها بداهة. ولا تحتاج إلى برهان.

لا بد أن تكون الأعداد الطبيعية نقطة البدء وأساس أية علوم رياضية. هاجم بروير الرياضيات الكلاسيكية. وأثبت أن هناك نظريات رياضية كثيرة غير صحيحة. فمثلا

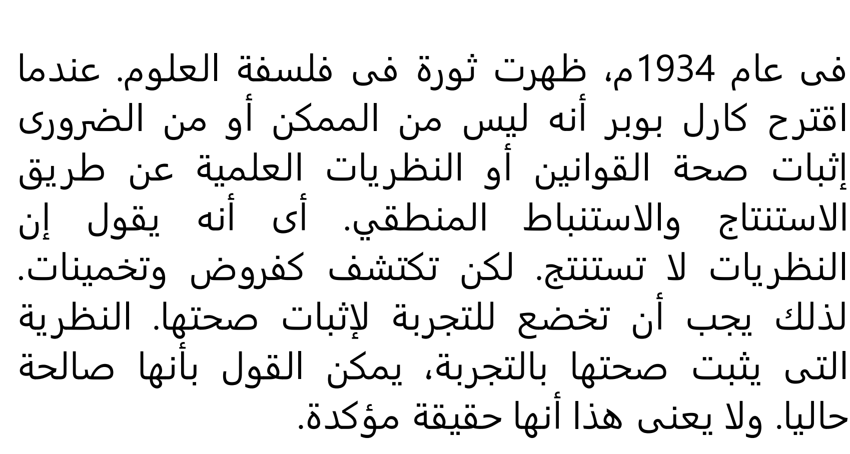
الأعداد الحقيقية، إما أن تكون موجبة، أو سالبة، أو صفرا. لكن بروير أثبت وجود عدد حقيقي، ليس موجبا أو سالبا أو صفرا.

اتهم العلماء بروير بأنه يغالي كثيرا فى الهجوم على الرياضيات الكلاسيكية. تصدر هلبرت للدفاع عنها. وتقدم ببرنامج يتكون من ثلاث نقاط. يمكن عن طريقه ضمان عدم تعارض الرياضيات الكلاسيكية.

لكن فى صيف عام 1930م. أثبت جودل بالبرهان المنطقي، أن برنامج هلبرت هذا لا يمكن تحقيقه. أثبت أيضا أنه لم يوجد فى الماضى أو الحاضر، ولن يوجد فى المستقبل أى برنامج أو نظام (System) كامل، يمكن إعتباره أساسا آمنا للرياضيات. أى أن برتراند راسل وويتهد كانا يحاولان المستحيل.



كارل بوبر



فى عام 1934م، ظهرت ثورة فى فلسفة العلوم. عندما اقترح كارل بوبر أنه ليس من الممكن أو من الضرورى إثبات صحة القوانين أو النظريات العلمية عن طريق الاستنتاج والاستنباط المنطقي. أى أنه يقول إن النظريات لا تستنتج. لكن تكتشف كفروض وتخمينات. لذلك يجب أن تخضع للتجربة لإثبات صحتها. النظرية التى يثبت صحتها بالتجربة، يمكن القول بأنها صالحة حاليا. ولا يعنى هذا أنها حقيقة مؤكدة.

فى عام 1976م، نُشِر للفيلسوف الرياضي لاكاتوس كتابا بعد وفاته. جاء فيه أن علوم الرياضيات مثل علوم التاريخ الطبيعي، ومثل الكائنات الحية. تولد وتتغير وتتطور وتنقرض. تتطور وتتقدم عن طريق تصحيح النظريات التى لا تخلو من الغموض أو الخطأ.

بالرغم من هذا، علم الرياضيات ينشر تحت لوائه 200 ألف بحث ونظرية جديدة كل عام. الحاصل على شهادة الدكتوراة فى الرياضيات اليوم لا يستطيع الإلمام إلا بنسبة أقل من 4% من أساسيات هذا العلم. رحم الله الأيام التى كان فيها الرجل الواحد

يستطيع الإلمام بكل علوم الفلسفة والطب والأدب واللغة والرياضيات والحكمة الموجودة فى عصره.

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأوثق العلوم. فما بالك بالعلوم الأخرى. فهل العقل عاجز عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة. مذهب عدم اليقين لهيزنبرج يقول بأن الحقيقة الكاملة غير ممكنة، لكن جزء من الحقيقة فقط هو الذى يمكن معرفته وإدراكه. فماذا يتبقى لنا الآن؟ سوى الحقيقة النسبية. التى تتغير وتتبدل وتتأثر بحواسنا وعواطفنا. والتى تشكلها رغباتنا وميولنا. أما الحقيقة المطلقة فهى من نصيب الواثقين من المفسرين ورجال الدين.

22

عدم اليقين في العلوم الحديثة

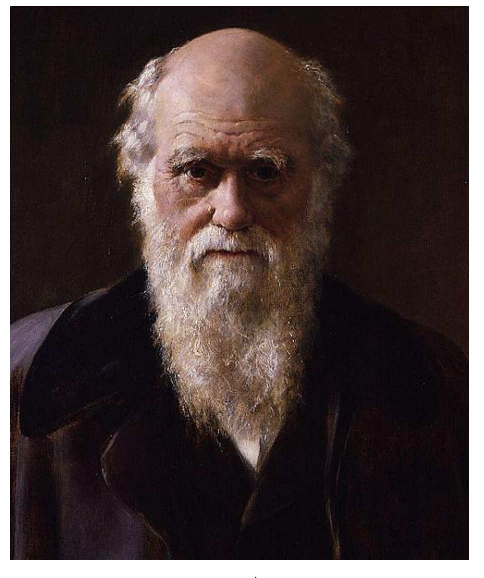
العلوم عبارة عن فرع عقلاني من الفلسفة. ما نسميه علما، هو عبارة عن نظام معرفي يبحث في العالم الفيزيائي الخارجي، ويدرس خواصه باستخدام الملاحظة المحايدة والتجربة المنهجية. بصفة عامة، العلوم تبغي المعرفة الخالصة للحقائق العامة والقوانين الأساسية التي تسير هذا الكون.

العلوم، كأداة معرفة، ليست كاملة. لكنها تعطينا من المعلومات والنتائج، ما تعجز فروع الفلسفة الأخرى عن إعطائه. العلوم هي شمعة مضيئة تنير الظلام عندما يغيب العقل وتسيطر الخرافات.



العلوم شمعة مضيئة وسط الظلام الدامس

العلوم تعتمد أساسا على البرهان أو على الشواهد والبيانات. هذا لا يعني الحقيقة المؤكدة. الحقيقة المرة التي يجب أن نعرفها جميعا، هي أنه لا شئ مؤكد بالنسبة لما نعرفه. حتى العلوم الرياضية التي تعتمد على المنطق الرصين، بها تعارض منطقي. أي فرع منها لا يكون نظاما متكاملا. رجاء مراجعة الباب السابق، الخاص بعلم الرياضيات ورحلة البحث عن الحقيقة.


داروين

مقولة إن نظرية التطور لداروين أو غيرها لم يثبت برهان صحتها، تبين عدم فهم عميق لطبيعة العلوم. حقيقة، نظرية التطور لداروين، لم يثبت برهانها بما لا يقبل الشك، الآن أو في المستقبل، لكن هذا هو الحال بالنسبة للنظرية الذرية، ولنظرية النسبية الخاصة والعامة، ونظرية الكم، وأي نظرية علمية أخرى. السبب هو أن العلوم التجريبية لا تتعامل مع البراهين المطلقة، بل تتعامل فقط مع الشواهد والدلائل.

عندما يواجه العلماء بظاهرة جديدة، ويبحثون عن سببها، يبدأون بالفروض، وهي مجرد تخمينات. هذه الفروض نعتبرها صحيحة وتسمى نظرية، طالما لا تتعارض مع النتائج، وطالما تعطينا تنبؤات صحيحة. إذا أعطتنا النظرية نتائج أو تنبؤات خاطئة، تصبح الفروض والنظرية خاطئة وتحتاج إلى تعديل أو إلغاء.

لكن كيف نتأكد من صحة الفروض أو النظرية؟ وماذا لوكانت الفروض خاطئة، لكن تعطينا نتائج سليمة بالصدفة؟ كيف نصبح متأكدين بدون شك؟ الإجابة، لا يمكن التأكد من أي شئ. هذا هو السبب في أنه لا توجد نظريات علمية مؤكدة، بما في ذلك نظرية التطور لداروين.

لكن كلما توالت الشواهد والدلائل التي تؤيد النظرية، كلما زادت ثقتنا فيها. إذا كانت الشواهد والدلائل كثيرة ومهولة ولا يمكن حصرها، يكون من السخف رفضها وتكذيبها. هذا هو شأن نظرية التطور، وشأن النظرية الذرية، وباقي النظريات.

ليس لدينا برهان مطلق لأي شئ، بما في ذلك النظريات الرياضية. الفيلسوف بيرتلاند راسل والفيلسوف وايتهيد، بعد جهد رهيب استمر لمدة 20 سنة، توصلا إلى النتيجة المرة التي لامفر منها، وهي إن النظريات الرياضية بها تعارض ولا يمكن أن تكون أساسا صلبا لحقائق لا تقبل الشك. لقد اصطلح العلماء على أن يكون البرهان للنظريات الرياضية، والفروض والمشاهدة للعلوم التجريبية.

الهدف من أي نظام في علوم الرياضيات أو المنطق (علم حساب المثلثات على سبيل المثال)، هو:

أولا، أن يكون النظام كاملا. بمعني أن كل نظرية أو مقولة، أو عكسها، يمكن إثباتها بنظريات من داخل النظام.

ثانيا، أن يكون النظام متسقا مع ذاته. بمعنى أنه ليس به تعارض داخلي، ولا يشمل نظريات تعارض نظريات أخرى.

فى صيف عام 1930م. أثبت جودل النمساوي بالدليل القاطع، أنه لم يوجد فى الماضى أو الحاضر. ولن يوجد فى المستقبل أي برنامج أو نظام (System) كامل، يمكن إعتباره أساسا آمنا للرياضيات أو المنطق. أى إن برتراند راسل ووايتهد كانا يحاولان المستحيل.


جودل

يقول جودل، إن الكمال لله وحده. لأن الكمال في النظم الرياضية والمنطقية معناه وجود التعارض. إذا أردنا عدم التعارض، فعلينا أن نقنع بالنظم الناقصة الغير كاملة. هذا يفسر لنا أسباب وجود فروع كثيرة للرياضيات. كل منها نظام ناقص. يكمل بعضها البعض.

بالرغم من عدم كمال المنطق، إلا أنه يستخدم كأساس للأسلوب العلمي. المنطق يأخذ أربعة أشكال:

1- الاستدلال (Deduction)، عندما نصل إلى النتائج عن طريق مجموعة فروض. هندسة إقليدس أفضل مثال على ذلك. فرض يقود إلى نظرية، ونظرية تقود إلى نظرية أخرى، إلخ.
2- الاستقراء (Induction)، عندما نصل إلى النتائج عن طريقة بعض الحقائق التي تستخدم كأمثلة.

3- الاحتمالات، عندما تكون لدينا قراءات وبيانات
4- المقاييس الإحصائية، الوسط الحسابي والإنحراف المعياري،...إلخ.

العلوم أيضا تستخدم، إلى جانب هذه الطرق المنطقية، كمية كبيرة من الشك للبحث عن الخطأ في أي حجة أو مقولة. الشك هنا يسبق الإيمان.

العلوم تحاول فهم هذا الكون وفك طلاسمه. هذا ينتج عنه مشاكل تحتاج إلى حلول.
الأسلوب العلمي لحل هذه المشاكل، هو الآتي:
1- الملاحظة
2- الاستدلال
3- الفروض
4- الشك

التركيز هنا على الشك، لا على التحقيق. الفروض القوية، هي التي تكون عرضة للشك أكثر من غيرها. وهذا يتحقق بطرق كثيرة.


التفسير العلمي للقرآن لزغلول النجار ليس علما

العلوم يمكن فصلها عن أشباه العلوم، عن طريق الشك. أي فكرة أو نظرية علمية، يجب أن تكون قابلة للشك والتكذيب وإثبات عدم صحتها. إذا لم تكن قابلة للشك والتكذيب، فهي ليست نظرية علمية. التفسير العلمي للقرآن أو الإنجيل مثلا، ليس علما. لأنه لا يمكن إثبات خطئه أو صحته.

الاختزالية (Reductionism) في الماضي، كانت تعني أن أي مجموعة معقدة من الظواهر، يمكن شرحها أو تفسيرها بمصطلحات بسيطة. النظرية الذرية هي نوع من الاختزالية. لأنها تختزل الكون كله في مجموعة جزيئات بدائية، وقوانين تصف التفاعلات بينها.

الاختزالية تشبه مبدأ "شفرة آكام"، التي تقول بأن أفضل الأفكار هو أبسطها. الاختزالية، تنجح في عالمنا على المستوى الكبير والأجسام الكبيرة، لكنها لا تصلح لعالم الجزيئات الصغيرة، كما يتضح من دراسة الفيزياء النظرية ونظرية الكم.

النجاح الزائد عن الحد في تطبيق الاختزالية، يعتبر خطرا كبيرا. لأن الاختزال قد يقودنا إلى تبني ما يفيد بأن كل شئ يمكن اختزاله إلى خواص مادية. الشعور والجمال والتجارب الروحية يمكن أن نختزلها أيضا إلى عوامل بيولوجية وتفاعلات كيميائية في الدماغ.


الحقيقة مثل العفاريت، تظهر في صور مختلفة

رد فعل القرن العشرين للاختزالية، هو النسبية (relativism). النسبية هنا تعني أن الحقيقة نسبية ولا توجد حقيقة مطلقة. الحقيقة تتوقف على الشخص الذي يستقبلها وكيف يتلقاها. النسبية تعني أن كل وجهات النظر سليمة. الحقيقة هنا، مثل العفاريت، لها صور متعددة حسب المشاهد والتجربة التي يقوم بها. الضوء يكون موجات في تجربة، وكرات في تجربة أخري. العلوم الحديثة هي شئ بين الاختزالية والنسبية.


الطفل يقوم بكسر زجاج الشبابيك حتى يقوم شابلن بإصلاحها

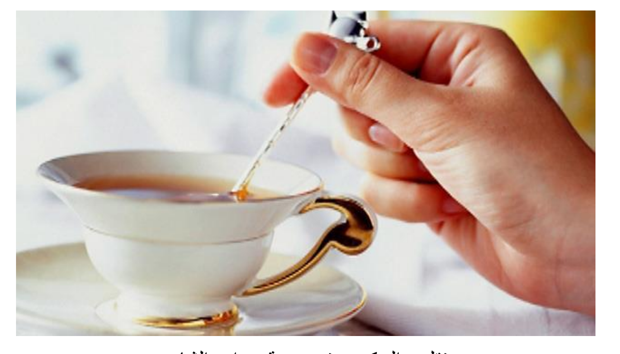
الحتمية (Determinism)، هي فلسفة تقول بأن كل شئ أو حدث له سبب. وكل سبب له نتيجة فريدة. الأسباب تحدد النتائج وتجعلها محتومة. الحتمية تعني أن كل شئ يمكن التنبؤ به متى توفرت المعلومات. في فيلم الطفل لشارلي شابلن، الطفل يلقى الأحجار لكي يكسر زجاج الشبابيك، ثم يأتي شابلن بعد ذلك ليقوم بإصلاحها. الزجاج يُكسر، لأن الطفل رماه بحجر. هذه هي الحتمية.

فيزياء نيوتن والفيزياء الكلاسيكية هي فيزياء حتمية. يمكن التنبؤ بمعادلاتها وأساسياتها. لا مكان للصدفة أو المفاجأة أو الابتكار. كل شئ كما خلق له. هذا يقودنا إلى فكرة، إن العالم يعمل مثل الساعة.

النظريات العلمية التي تصف لنا كيف تعمل الأشياء في هذا العالم، هل هي مجرد اختراع إنساني مرتبط بوجوده، أم هي شئ مستقل عن الإنسان؟ بمعنى، هل العلوم كانت موجودة قبل أن يظهر الإنسان على سطح الكرة الأرضية؟

طبعا هذا سؤال يخص الفلسفة الميتافيزيقية. لكن يمكننا القول هنا أن هناك إجابتان على هذا السؤال. الأولي تقول بأن الرياضيات مثلا، هي مجرد تمثيل وتجريد للعالم الفيزيائي. أي أن القوانين الرياضية، تنبثق من عالم الأشياء ولا توجد إلا بوجوده.

الإجابة الثانية تقول، وهي إجابة أفلاطونية، بأننا لم نخترع القوانين الرياضية، لكننا نكتشفها فقط. عالم المُثل عند أفلاطون، هو العالم الحقيقي. عالم الفيزياء الذي نعيش فيه، ما هو إلا ظلال للحقيقة، وليس الحقيقة نفسها. إننا نكتشف أن الطبيعة تتبع القوانين الرياضية بدقة شديدة. إلى الدرجة التي تجعل علوم الفيزياء تتحول إلى مجرد معادلات رياضية بحتة.


تقليب السكر يرفع درجة حرارة الشاي

دراسة العلاقة بين الحرارة والطاقة التي يتعرض لها جسم أو نظام معين، تسمى الديناميكا الحرارية (Thermodynamic). أول قوانين الديناميكا الحرارية، هو قانون بقاء الطاقة. الطاقة لا تفنى ولا تستحدث. الطاقة يمكنها أن تتغير من شكل إلى آخر، لكنها في مجموعها ثابته داخل النظام المغلق. إذا قمت بتقليب الماء مثلا، فبعض طاقة التقليب تذهب لتحريك الماء، والطاقة الباقية تذهب لرفع درجة حرارة الماء.


لا توجد طريقة لعكس الفوضى

القانون الثاني للديناميكا الحرارية، هو من أهم القوانين الفيزيائية، في مرتبة أعمال شكسبير في الأدب. يقول: إنه داخل النظام الحراري المغلق، "الإنتروبيا"، أي الفوضى، تزداد مع الزمن. أجسام السيارات تصدأ، الأشجار الميته تتحلل، البيوت تنهار وتسقط. شرف البنت مثل عود الكبريت، يشتعل مرة واحدة. كل هذه أمثلة توضح ماذا نعني بالإنتروبيا. الإنتروبيا هي

مقياس للانتقال من النظام إلى الفوضي. الإنتروبيا تزيد فقط ولا تنقص، أي أنه لا يوجد طريقة لعكس زيادة الإنتروبيا بعد حدوثها

إنتروبيا العالم كله، تزداد مع مرور الزمن. النجوم سوف تستهلك مابداخلها من وقود ذري، الحضارات سوف تموت عندما تنقطع عنها الطاقة. ثم يحدث التوازن داخل النظام.

القانون الثالث في الديناميكا الحرارية، يقول، إن النظام الحراري يصل إلى أقل حالات طاقته عندما يصل إلى درجة حرارة تبلغ (-273) درجة مئوية بالتقريب.

إذا قامت الثلاجة بعمل مكعبات ثلج، فالحرارة التي تلقيها الثلاجة في الحجرة، تزيد من إنتروبيا الحجرة، بالرغم من أن مكعبات الثلج، تقل بها الإنتروبيا. لكن محصلة البيت، وهو هنا يمثل النظام المقفل، سوف تزداد. هذا ما نعني بأن الإنتروبيا دائما في الزيادة بالنسبة للنظام المقفل.

هل الإنتروبيا مقصورة على الحرارة؟ لا. انتقال المعلومات في الأسلاك أو عبر الأقمار الصناعية أو عبر الأجيال، تتعرض هي الأخري للإنتروبيا بسبب الضوضاء أو النسيان أو التعصب وغيرها من الأسباب.

بالنسبة لعالم الأشياء الكبيرة، الزمن نراه دائما يسير إلى الأمام . ذاكرتنا تعي الماضي وليس المستقبل. كل قوانين نيوتن تتعامل مع الزمن والأحداث على أنها تحدث في إتجاهين، لا اتجاه واحد. التصادم يبدو واحدا، إلى الأمام أو الخلف. صندوق مليء بالغازات يتبع قوانين نيوتن ولا يسير الزمن داخله في اتجاه واحد. الذرات لا تهرم ولا تتغير في المستقبل. ومع هذا، يمكن للذرات أن تستمر في الحركة العشوائية لكي تكون تجمعات مختلفة، مثل الاستمرار في تفنيط مجموعة كروت الكوتشينة تعطينا تسلسلات معينة.

الشجرة عندما تكبر، والبيضة عندما تنكسر، هذه أحداث لا يمكن عكسها وإرجاعها للوراء. الزمن يسير مثل السهم، في اتجاه واحد. الإنتروبيا والزمن الذي يسير في اتجاه واحد لهما علاقة وثيقة. بسبب الإنتروبيا، الزمن بالنسبة لعالم الأشياء الكبيرة، لا يرجع إلى



الشجرة عندما تكبر لا يمكن عكس هذا الحدث

الوراء. لكن بالنسبة لعالم جزيئات الذرة، فالزمن يمكن أن يرجع للوراء.

الجزيئات الصغيرة للذرة، مثل الإلكترونات والبروتونات هي أشياء لها مفاهيم غير حتمية في الفيزياء الحديثة. هذا يعني أنها أشياء توجد كاحتمالات لا كأشياء حقيقية. أشياء ربما تكون أو ربما تحصل. هذا مفهوم يختلف عن فيزياء نيوتن. هنا عدم تأكد وعدم حتمية واحتمالية، كلها خواص مبنية بين طيات نسيج هذا العالم ي العجيب الذي نحاول فهمه.

23

خاتمة

هذه قصة الفلسفة الغربية بأسلوب مبسط مع عدم المساس أو التحريف للنظريات الفلسفية الأصلية. هذا الكتاب يعتبر تلخيصا لأهم الأعمال الفلسفية التي أنتجها العقل الغربي منذ سقراط إلى سارتر. التفاصيل يمكن الرجوع إليها في أعمال هؤلاء الفلاسفة العظام. كتاباتهم تتسم بالبساطة والوضوح والدقة، وهي متاحة لمن يبغي المزيد والتعمق في مثل هذه المواضيع، التي أصبح فهمها ضرورة وواجب وطني وإنساني. الأبواب تم نشرها كمقالات على الإنترنت في عدة مواقع.

أرجو أن أكون قد وفقت في تبسيط قصة الفلسة الغربية وتاريخها للسادة القراء. وأن أكون قد نجحت في فتح شهيتكم لهذا العالم الساحر، حتى تطلبوا المزيد. فشكرا لمروركم الكريم، ولا حرمنا الله من أمثالكم.

تعريف بالمؤلف



الاسم: محمد زكريا توفيق

المؤهلات: ماجستير فى الرياضة البحتة من كلية الهندسة جامعة نيويورك 1973م

ماجستير فى علوم الكمبيوتر من كلية العلوم جامعة نيويورك 1983م

دراسات فى الرياضيات التطبيقية تعادل الدكتوراه من معهد كورانت بجامعة نيويورك

الخبرة: أكثر من 40 سنة فى مجال الكمبيوتر حيث كان يعمل مديرا للتخطيط والبرمجة فى عدة بنوك أمريكية منها البنك الفدرالى الأمريكى.

نشرت له العديد من المقالات العلمية والثقافية والسياسية فى صحافة مصر والخارج

يعيش الآن فى مدينة نيويورك